

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

ابن فضل الله العمري

كتاب في ذكر العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين،
ومضارب أخبيتهم ومساكنهم على اختلاف طوائفهم وأشتات
قبائلهم، ومنازلهم من أطراف العراق إلى آخر المغرب،

أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين: مؤرخ،
حجة في معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم والبلدان، إمام في
الترسل والإنشاء، عارف بأخبار رجال عصره وتراجمهم، غزير المعرفة بالتاريخ
ولا سيما تاريخ ملوك المغول من عهد جنكيزخان إلى عصره. مولده ومنشأه
ووفاته في دمشق. أجل آثاره «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - ط» كبير،
طبع المجلد الأول منه، قال فيه ابن شاکر: كتاب حافل ما أعلم أن لأحد مثله.
وله «مختصر قلائد العقيان - خ» و «الشتويات - خ» مجموع رسائل، و «النبذة
الكافية في معرفة الكتابة والقافية - خ» و «ممالك عباد الصليب - ط» و
«الدائرة بين مكة والبلاد» و «التعريف بالمصطلح الشريف - ط» في مراسم
الملك وما يتعلق به، و «فواضل السمر في فضائل آل عمر» أربع مجلدات، و
«يقظة الساهر» في الأدب، و «نفحة الروض» أدب، و «دمعة الباكي» أدب، و
«صباية المشتاق» في المدائح النبوية، أربع مجلدات. وله شعر في منتهى
الرفقة.

في ذكر ممالك الإسلام جملة
ممالك الإسلام واقعة بحمد الله في أحسن المعمور شرقاً وغرباً وجنوباً
وشمالاً، لأنها لا تنتهي إلى غاية الحرارة المفرطة ولا إلى غاية البرد المفرط، إلا
فيما قل، ولا يخرج عن حد المستطاب، وسيأتي بيان ذلك في تحديد كل
مملكة، فغاية معمور الجنوب مساكن السودان من عبّاد النيران والأصنام، بما
تغلغل من جزائر الهند وأطرافه، والنصارى بأطراف الحبشة، وعبّاد الحيات،
والهمج في سوادان المغرب جنوب غانه.
وغاية معمور الشمال من النصارى والهمج ببلاد الصقل، في شمالها أحد
قسمي إيران المسماة ببلاد القبقاق، وما سامت ذلك الخط من القسطنطينية،
وما وراءها إلى جليقية والأرض الكبيرة وجزائر البحر الرومي.

وغاية معمور الشرق من عبّاد النيران والأصنام بثالث أقسام توران من بلاد
الصين إلى المحيط، وأمّا الغرب فانتهى فيه الإسلام إلى البحر المحيط وكلاطر
في الشرق، والغرب بلاد صالحة وإن لم تكن الغاية، فالغرب إلى منتهى الغاية
في ممالك الإسلام، والصين وإن كان خارجاً من دعوة الإسلام، فإنه مُلكٌ
عظيم جليل القدر، ضخم الملك، وهو معظم توران، ولم يزل لملك الترك، وبه
تخت فانهم الآن لقانهم من أبناء جنكيزخان، وسيأتي ذكره عند ذكر أبناء
جنكيزخان.

فممالك الإسلام واقعة على ما نذكره؛ فأولها الهند والسند، وهو واقع في
ممالك الإسلام بشرق محض أخذاً في الجنوب على مسامتة الصين، يحدها
البحر من جنوبها، وبلاد الكفار من شرقها، والإسلام في أحد قسمي توران من

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

شَمَالِهَا، ثم أحد قسمي توران، مما بيد الإسلام، وهي مملكة تركستان وما وراء النهر، وهي واقعة بشرق مَحْضاً آخِذاً إلى الجنوب، يَحدها السُّنْد من جنوبها، والصَّين من شرقها، وممالك الإسلام وقسمها الثاني، وإيران من جنوبها.

ثم القسم الثاني مما بيد الإسلام من مملكة توران، وهي خوارزم وبلاد القبجاق، وهي واقعة في الشمال، أخذاً إلى المشرق، يحدها أطراف الصين من شرقها، وبلاد الصقلب وما يليها من شمالها، فأما جنوبها فخراسان وما سَامَتْهَا، وغربها الخليج القاطع من بحر الرُّوم على القرم، وِراءها ممالك الإسلام والروم، كلها من ممالك الإسلام، ثم إيران، وهي تلي قسمي توران المذكورين داخله، كالشعبة الفارقة بينهما، وذلك القسمان منشعبٌ عليهما مثل كَمَى السراويل على سَرَجِه، يحدها ممالك الإسلام من كل جهة، وفي بعض جنوبها لينتهي إلى البحر الفارس الآخذ على البصرة وما سَامَتْهَا، وممالك كيلان والدر والشول وشنكاره والأكراد، وبلاد أتراك الروم كلها في هذا القسم، خلا أن أتراك الروم وَحْدَهُم شمال بلاد القسطنطينية ثم يليها مملكة مَصْر والشام والحجاز وتلك عمود الإسلام وفسطاط الدين، يحدها ممالك الإسلام من كل جهاتها الأربع، منتهية في الجنوب إلى اليمن، واليمن والحجاز كلاهما من جزيرة العرب على ما يأتي تبينه، ثم إلى البحر الآخذ على جُدة إلى آيله وينتهي في الشمال إلى البحر الرومي، ثم اليمن، وهو جنوب الحجاز في نهاية جزيرة العرب، يحدها من جنوبها البحر الآخذ إلى الهند، ومن شرقها البحر الآخذ إلى جُدة، ومن شمالها الحجاز، ومن غربها بحر الحبشة، ثم ممالك الإسلام بالحبشة، فالحبشة متصلة بأطراف الواحات، أخذاً إلى الجنوب محيط بها بحر الحبشة من شرقها، وممالك نصارى الحبش من جنوبها، وكفارهم، ثم الصَّحارى القفار من غربها، وشمالها الواحات، ثم الكانم، وهو على ضفة النيل على مسَامَتِه دنقله ثم يليها من وراء برقة، مملكة إفريقية، يحدها من جنوبها كفار السودان، وبقيّة حُدُودها مُنْتَهية إلى ممالك الإسلام من شمالها البحر الشامي ثم بر العدوّة، يحدها ممالك الإسلام، من جنوبها بلاد البربر ثم ما يلي، ومن شمالها بلاد إفريقية، ومن غرب البحر المحيط، ومن شمالها بحر

الزقاق إلى البحر الشامي، ثم بر العدوّة، وَشَرْقَهَا القفار، ثم يليها ماء وما معها، جنوبها غانة وبلاد كفار السودان، وغربها المحيط، وشمالها جبال البربر وبر العدوّة، وشرقها القفار ثم يليها جزيرة الأندلس، وهي نهاية ممالك الإسلام، ليست بجزيرة، ولكن كالجزيرة، يحيط بها من جانبها الجنوبي البحر الشامي ومن غربها وشمالها البحر المحيط، ويبقى شرقها مكشوفاً متصلاً بالأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة، فلو مشى ماشٍ من نهاية غرب الأندلس عند مخرج بحر الزقاق، في الجانب الشمالي إلى ناحية شرقه انتهى إلى الجبل المسمّى بهيكل الزهرة، وهو آخر حد الأندلس، وفيه الأبواب المفتوحة، وقد تقدم ذكرها.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
ثم يمشي الماشي من تلك الأبواب إلى أن يخرج من شرقي هذا الجبل، ويدخل

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

في الأرض الكبيرة، ويمشي فيها إلى حيث شاء من الأرض شمالاً وشرقاً وجنوباً لا يقطعه بحر، حتى أنه إذا أراد مشى على ساحل البحر الشامي، وما هو متصل به حتى ينتهي إلى حجرة، ثم يدور معها عند حجرة ببلاد الشام على شرقه، ثم يدور معه على ساحله الجنوبي حتى يعود إلى نهاية الغرب قبالة المكان الذي بدأ منه عند مخرج الزقاق في الجانب الجنوبي، لا يقطعه دون ذلك قاطع، ولا يمنعه مانع.

واعلم أن الأمر في تحديد الأقاليم العرفية لا يجري في تحديد الدار أو البستان ونحوهما لأن غالب الدور واليساتين تكون قطعاً مربعة أو مثلثة أو متساوية الجوانب، وليس الأمر في الأقاليم العرفية كذلك، فإن بعض جوانبها يكون مُداخلاً لإقليم آخر، وبعضها يكون فيه تقويس، وبعض جوانبها أعرض من بعض، والذي يحدد المكان إنما يحدده بالجهات الأربع، وهي الشرق والغرب والجنوب والشمال، وذلك لا يصفو في الأقاليم العرفية، لما ذكرناه، ولو كانت الأقاليم قطعاً مربعة أو متساوية الجوانب لأمكن فيها ذلك، فينبغي أن يُعرف العذر في التقصير في تحديدها، لا سيما عند من لم يشاهدها وإنما نقلها من الأوراق وأفواه الرجال، فإن عذره في التقصير أوضح، وأيضاً فإن بعض الأقاليم يكون على شكل مثلث كجزيرتي الأندلس وصقلية، وبعضها يكون ذا خمسة أضلاع وأكثر وأقل، فيتعدد ذكر ذلك بجهاته الأربع على الصحة، ومن هذا نشرع في ذكر الممالك مملكة مملكة، وهذا الباب هو المراد من هذا الكتاب، وبسببه ألف ولأجله صُنف، ونحن نأخذ في هذا الباب على التحرير في أكثر ما عرفنا، والتحقيق لأكثر ما لم نعرف بتكرار السؤال من واحدٍ بعد واحدٍ، عما يعلمه من أحوال بلاده وما فيها، وما اشتملت عليه في الغالب نواحيها، وكنت أسأل الرجل عن بلاده ثم أسأل الآخر والآخر لأقف على الحق، فما اتفقت عليه أقوالهم أو تقاربت فيه أثبتته، وما اختلفت فيه أقوالهم أو اضطربت تركته، ثم أنزل الرجل المسؤول مدة أناسيه فيها عما قال، ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سألت، فإن ثبت على قوله الأول أثبت مقالته، وإن تزلزل، أذهبت في الريح أقواله، كل هذا تعالى في مكانه، وبالله استعين، ومنه أسأل التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
الباب الأول في مملكة الهند والسند

هذه مملكة عظيمة الشأن، لا تقاس في الأرض بمملكة سواها لاتساع أقطارها، وكثرة أموالها وعساكرها، وأبهة سُلطانها في رُكوبه وتروله ودست ملكه، وفي صيتها وسمعتها كفاية، ولقد كنتُ أسمع من الأخبار الطائخة والكتب المصنفة ما يملأ العين والسمع، وكنت لا أقف على حقيقة أخبارها، لبُعدها منا، وتناىء ديارها عنا، فلما شرعت في تأليف هذا الكتاب، وتبعت ثقافة الرواة، وجدت أكثر مما كنت أسمع، وأجل مما كنتُ أظن، وحسبك ببلاد في بحرها الدر، وفي بَرِّها الذهب، وفي جبالها الياقوت والماس، وفي شعابها العود والكافور، وفي مُدتها أسيرة الملوك، ومن وحوشها الفيل والكركدن، ومن حديدتها سيوف الهند، وبها معادن الحديد والزئبق والرصاص، ومن بعض منابها

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

الزعفران، وفي بعض أوديتها البلور، خيراتها موفورة، واسعارها رخيصة، وعساكرها لا تعد، وممالكها لا تحد، لأهلها الحكمة ووفور العقل، أملك الأمم لشهواتهم، وأبدلهم للنفوس فيما يظن به الزلفى.

قال محمد بن عبد الرحيم الأقليني الغرناطي في تحفة الألباب: والمُلْكُ العظيم والعدل الكبير والنعمة الجزيلة والسياسة الحسنة والرخاء الدائم والأمن الذي لا خوف معه في بلاد الهند والصين، وأهل الهند أعلم الناس بأنواع الحكمة والطب والهندسة والصناعات العجيبة؛ التي لا يُقدَّر على منالها، وفي جبالهم وجزارهم ينبت شجر العود والكافور وجميع أنواع الطيب كالقرنفل وجوزبوا والسُنْبُل والدارصيني والقرفة والسلخة والقاقلة والكبابة والسياسة وأنواع العقاقير، وعندهم غزال المسك وقط الزباد، ويخرج من بلادهم أنواع البواقيت، وأكثرها من جزيرة سرنديب.

وقد حكى ابن عبد ربه في العقد عن نعيم بن حماد قال: بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه من ملك الأملاك؛ الذي هو ابن ألف ملك وتخته بيت ألف ملك، وفي مربطه ألف فيل، وله نهران ينبتان العود والأكوة والجوز والكافور؛ الذي يُوجد ريحه على اثني عشر ميلاً، إلى ملك العرب؛ الذي لا يُشرك بالله شيئاً، أمّا بعد... فإني بعثت بهدية وما هي هدية ولكنها تحية، وقد أحببت أن تبعث إليّ رجلاً يعلمني ويفهمني الإسلام والسلام، يعني بالهدية الكتاب.

حدثني الشيخ العارف المبارك بقية السلف الكرام مبارك بن محمود الأنباري من ولد مجدشاه أن حاجب خاصي نفع الله ببركاته، وهو الثقة الثبت، وله الأطلاع على كل ما يحكيه لمكانته ومكانة أسلافه من ملوك هذه البلاد، قال: إن هذه المملكة متسعة غاية الإتساع، يكون طولها ثلاث سنين، وعرضها مابين سومنات وسرنديب إلى غزنة وطولها من العرصة المقابلة لعدن إلى سد الإسكندر، عند مخرج البحر الهندي من البحر المحيط، متصلة المدن ذوات المنابر والأسرة والأعمال والقرى والضياع والرساتيق والأسواق، لا يقطع بينها، ولا يفصل بينها خراب.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قلتُ وفيما ذكره من هذه المسافة طويلاً وعرضاً نظراً إذ لا يفي جميع المعمورة بهذه المسافة، اللهم إلا إن كان مراده أن هذه مسافة من يتنقل فيها حتى يُحيط بجميعها مكاناً فيحتمل على ما فيه.

قال: وفي طاعة هذا السلطان؛ أهل مَراجِل، لهم منه هدية وأمان، على قطاع تُحمل إليه منهم، يتحصّل منها مال، وهذا جبل قراجل به معادن ذهباً، يحصل منها ما لا يحصى، وجميع هذه البلاد براً وبحراً مجموعة لسلطانها القائم الآن، إلا الجزائر الموعلة في البحر، فأما الساحل فلم يبق به قيد فتر إلا بيده، فتح مغالقه (مخطوط ص 11)، وملك معاقله، وله الآن السكة والخطبة في جميع هذه البلاد، لا يشاركه فيها مشارك.

قال: ولقد حضرت معه من الفتوحات العظيمة ما أقوله عن المشاهدة والعيان على الجملة لا على التفصيل خوفاً من إطالة الشرح، فأول ما فتح مملكة

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

تلنك، وهي واسعة البلاد، كثيرة القرى، عدة قراها تسعمائة ألف قرية، وتسعمائة قرية، ثم فتح بلاد جاجنكر، وبها سبعون قرية جليلة كلها بنادر على البحر، دخلها من الجواهر والفيلة والقماش المنوع والطيب والأفاوية، ثم فتح بلاد لكنوتي وهي كرسى تسعة ملوك، ثم فتح بلاد دواكير، ولها أربع وثمانون قلعة، كلها جليلات المقدار.

قال الشيخ برهان الدين ابن الخلال البزي: وبها ألف ألف قرية ومائتا ألف قرية.

عدنا إلى حديث الشيخ مبارك، قال الشيخ مبارك: ثم فتح بلاد سمند، وكان بها السلطان بلال الديوا وخمسة ملوك كفار، ثم فتح بلاد المعبر، وهو إقليم جليل، له تسعون مدينة، بنادر على البحر، يجيء من دخلها الطيب والانس والقماش المنوع ولطائف الأفاق.

وحدثني الفقيه العلامة سراج الدين أبو الصفاء عمر بن إسحاق بن أحمد الشبلي العوضي من إقليم عوض من الهند، وهو من أعيان الفقهاء؛ الذين يحضرون حضرة السلطان بدهلي: أن أمهات الأقاليم التي في مملكة هذا السلطان ثلاثة وعشرون إقليماً وهي: إقليم دهلي، وإقليم الدواكير، وإقليم الملتان وإقليم كهران، وإقليم سامانا، وإقليم سيوستان، وإقليم وجا، وإقليم هاسي، وإقليم سرستي، وإقليم المعبر، وإقليم تلنك، وإقليم كجرات، وإقليم بدوان، وإقليم عوض، وإقليم القنوج، وإقليم لكنوتي، وإقليم بهار، وإقليم كره، وإقليم ملاوه، وإقليم نهاور، وإقليم كلانور، وإقليم حاجنكر، وإقليم تلنج، وإقليم دورسمند، وهذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة ومائتي مدينة، كلها مدن ذوات بنايات (المخطوط 21) كبار أو صغار، إذ بجميعها الأعمال والقرى العامرة الآهلة، ولا أعرف ما عَدَد قراها، وإنما أعرف أن إقليم القنوج مائة وعشرون لكاً كل لك مائة ألف قرية، فيكون إثني عشر ألف ألف قرية، وإقليم تلنك، وهو ستة وثلاثون لكاً، فيكون ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف قرية، وإقليم مالوه أكبر من القنوج، ولكنني لم أُحَرِّر كم عدده، وأما المعبر فيشتمل على عدة جزائر كبار، كل واحدة منها مملكة جليلة مثل كولم وفتن والسيلان ومليبار.

وقال الشيخ مبارك: وعلى لكنوتي مائتا ألف مركب صغاراً خفافاً للسَّير، إذا رمى الرامي في آخرها سهماً وقع في وسطها لسُرعة جريتها، هذا غير الكبار، ولا تبلغ بعض هذا العدد، ومنها ما فيه الطواحين والأفران والأسواق، وربما لا يتعرف بعض سُكَّانه ببعض إلا بعد مدة، لاتساعها وعظمتها، وجردت من جغرافيا تحقيقاً طولها وهو من الواق وإق إلى قبالة عدن، وعرضها من سرنديب إلى بوارو الواقعة غربي قراقرم، وأقوله بعبارة البسط من هذا وأوضح لمن تأمل لوح الرسم في الجغرافيا الكاملة فنقول طولها من مخرج البحر الهندي من المحيط في نهاية الصين في المشرق دون جزيرة الجواهر والواق واق المائلة إلى الجنوبي أخذاً في البحر إلى حيث ينعطف مغرباً على جزيرة الموجه أم جزائر الصين مع طول البحر حتى ينتهي إلى فرصة المغرب، ثم يمتد من هناك

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

براً وبحراً أخذاً في الشمال إلى بوارو غربي قراقرم على حد بلاد كشتغد إلى حد بلاد مكران ممتداً على نهر مكران إلى أن يدخل السند في حدة قريب كرمان، ثم ينتهي هناك إقليم الهند في البر وآخره المنصورة، وتتصل جزائره في البحر إلى قبالة عدن، وأما عرضُه فمن سرنديب، وما هو في سمتها في الجنوب، إلى بوارو وما هو في سمتها إلى الشمال، وحدود هذه المملكة من الجنوب البحر وما يمتد معه من كورة قراجل ومن الشرق لها ور وكلاور، ومن الشمال بلاد الترك، ومن الغرب سبالكوت والمفازة. ومدينة دهلي هي قاعدة الملك، ثم بعدها قبة الإسلام، وهي مدينة الدواكير، جددَهَا هذا السلطان، وسماها قبة الإسلام، قال: ودَهلي في الإقليم الرابع، قلتُ: وهكذا قال الملك المؤيد صاحب حماء رحمة الله في تقويم البلدان، ونقله عمن يوثق به من أهل هذا الشأن.

قال الشيخ مبارك: وأما قبة الإسلام فتكون في الثالث، وفارقتها وما تكاملت، ولي الآن عنها ست سنين، وما أظنها تكون قد تكملت، لعظم ما حصل الشروع فيه من إتساع خطة المدينة، وعظم البناء، وإن هذا السلطان كان قد قسمها على أن تبنى محلات، لأهل كل طائفة محلة، الجند في محلة، والوزراء والكتاب في محلة، والقضاة والعلماء في محلة، والمشايخ والفقراء في محلة، والتجار والكسّاب في محلة، وفي كل محلة ما يحتاج إليه من المساجد والمآذن والأسواق والحمامات والطواحين والأفران وأرباب الصناعات من كل نوع حتى الصُّبَّاغ والصباغين، والدباغين، حتى لا تحتاج أهل محلة إلى أخرى في بيع ولا شراء، ولا أخذ ولا عطاء، لتكون في محلة كأنها مدينة مفردة قائمة بذاتها، غير مفتقرة في شيء إلى سواها، وليس في هذه المملكة خراب، إلا تقدير عشرين يوماً مما يلي غزنة التجاذب صاحب الهند وصاحب تركستان وما وراء النهر بأطراف المنازعة أو جبال معطلة أو شعراء، مشتبكة، ومتحصلات تلك من نبات العطر والأفاويه والعقاقير الداخلة في أدوية الطب أعوّد نفعاً من الغلات المزدرعة بما لا يقاس. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قلت: وقد أوقفني الفاضل نظام الدين يحيى بن الحكيم علي تأليف قديم في البلاد، وذكر فيه أن قرى جميع الملکان مائة ألف قرية وستة عشرون ألف قرية مثبتة في الديوان، وهو ودَهلي في الرابع، ومعظم المملكة في الثاني والثالث، وكلها فسيحة، وبلادها صحيحة، إلا مزارع الأرز، فإنها وخيمة، وبقاها ذميمة.

وحكى في ذلك التأليف أن محمد بن يوسف الثقفي، أصاب بالسند أربعين بهاراً من الذهب، كل بهار ثلاثمائة، وثلاثة وثلاثون منّا قال: ومن بلاد غزنة والفندهار آخر حده، وسألت الشيخ مبارك: كيف ير الهند وضواحيه؟ فقال لي أن به أنهاراً ممتدة، تقارب ألف نهر كباراً وصغاراً، منهما، يضاهي النيل عظماً، ومنها ما هو دونه، ومنها ما هو دون هذا المقدار، وما هو مثل بقية الأنهار، وعلى ضفاف الأنهار، القرى والمدن، وبه الأشجار الكثيفة، والمروج الفيح، وهي بلاد معتدلة، كل أوقاتها ربيع، وتهبُّ بها الأهوية، ويتنسم النسيم اللطيف، وتتوالى بها الأمطار مدة أربعة أشهر وأكثرها في أخريات الربيع، إلى ما يليه من

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

الصيف، وبها أنواع من الحبوب والحنطة والأرز والشعير والحمص والقدس، والماش واللوبيا والسّمسم وأمّا الفول فلا يكاد يوجد فيها.

قلت: أظن عدم وجود الفول بها لأنها بلاد حكماء وعندهم أن الفول يفسد جوهر العقل، ولهذا حرّمته الصابئة، قال: وبها من الفواكه شيء من التين والعنب والرمان الكثير الحلو والمر والحامض والموز والخوخ والأترج، والليمون واللبم والنارنج والجميز والتوت الأسود المسمى بالفرصاد والبطيخ الأصفر والأخضر والخيار والقثاء والعجور والتين، والعنب هو أقل ما يوجد من بقية هذه الأنواع، وأمّا السفرجل فيوجد بها ويجلب إليها، وأمّا الكمثري والتفاح فهما أقل وجوداً من السفرجل، وبها فواكه آخر لا تعهد في مصر والشام والعراق وهي العنبا والمهوا واللّكج والكريكا وايجلى والفكي والنفرك وغير ذلك من الفواكه الفائقة اللذيذة، فأما النارجيل وهو المسمى بالجوز هندي، (لا يعادله شيء، وهو أخضر مملوء بدهنه، وأما الحمر وهو المسمى بالتمر هندي) فهو شجر بري يلو الجبال، والنارجيل والموز بدهلى أقل مما حوّلها من بلادها على أنه الموجود الكثير، وأما قصب السكر فإنه بجميع هذه البلاد كثير ممتن، ومنه نوع أسود جف صلب العيدان، وهو أجوده للامتصاص لا للإعتصار، وهو مما لا يوجد في سواها، ويُعمل من بقية أنواعه السكر الكثير العظيم الرخيص من السكر النبات والسكر المعتاد، ولكنه لا يجمد بل يكون كالسميد الأبيض، وبها الأرز؛ على ما حدثني الشيخ مبارك بن مجدشاذان؛ على أحد وعشرين نوعاً، وعندهم اللفت والجزر والقرع والبادنجان والهلجون والزنجبيل، وهم يطبخونه إذا كان أخضر، كما يطبخ الجزر، وله طعم طيب لا يعادله شيء، وبها السلق والبصل والفوم والشمار والصعتر وأنواع الرياحين من الورد والنيلوفر والبنفسج والبان وهو الخلاف، والنرجس، وهو العبير، وثامر الحناء، وهو الفاغية، وكذلك الشيرج، ومنه وقيدهم، وأمّا الزيت فلا يأتيهم إلا جلباً، وأما العسل فأكثر من الكثير، وأمّا الشمع فلا يوجد إلا في دور السلطان، ولا يسمح فيه لأحد، وما لا يحصى من الدواب السائمة من

الجواميس والأبقار والأغنام والمعز، ودواجن الطير من الدجاج والحمام البلدي والأوز، وهو أقل أنواعه، فأما الدجاج الهندي فيكاد أن يكون كالأوز في عظم المقدار، وكل هذا يباع بأرخص الأسعار، وأقل الأثمان، وأما السمن واللبن على اختلاف أنواعه فكثير لا يعبأ به ولا له قيمة، ويباع بأسواقها من الأطعمة المتنوعة كالشواء والأرز والمطجّن والمقلّى والمنوع والحلوى المتنوعة على خمسة وستين نوعاً، والفقاع والأشربة ما لا يكاد يرى في مدينة سواها، وبها من أصحاب الصنائع للسيوف والقصي والرماح وأنواع الرماح والزرداء، والصواغ والزراکش والسراجين وغير ذلك من أرباب كل صنف مما يختص بالرجال والنساء وذوي السيوف والأقلام وعامة الناس ما لا يحصى لهم عدد، وأمّا الجمال فقليلة لا تكون إلا للسلطان ومن عنده من الخانات والأمراء والوزراء وأكابر أرباب الدولة، وأما الخيل فكثيرة وهي نوعان: عرباب وبرادين، وأكثرها مما لا يُحمد فعله، ولهذا تجلب إلى الهند من جميع ما جاورها من بلاد الترك،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وتقاد إليها العَرَّاب من البحرين وبلاد اليَمَن والعراق على أن في دواخل الهند خيلاً عرباً كريمة الأحساب، يتغالى في أثمانها، ولكنها قليلة، ومتى طال مُكث الخيل بها إنحلت، وأما البغال والحمير فَمَا يُعَابُ عندهم رُكوبها، ولا يستحسن قَفيه ولا ذو علم ركوب بَغلة، فأما الحمار فإن ركوبه عندهم مذلة كبرى، وعار عظيم، بل ركوب الكل الخيل، وأَمَّا الأثقال فخاصتهم يحمل على الخيل، وعامتهم يحمل على البقر، يحمل عليها الأكفأ، فيحمل عليها، وهي سريعة المشي، مُمتدة الخطا.

وسألت الشيخ مبارك عن مدينة دهلي، وما هي عليه، فحدثني أن دهلي مدائن جُمعت مدينة، ولكل وَاحِدَة اسم معروف، وإنما دهلي واحدة منها، وقد صار يطلق على الجميع اسمها، وهي ممتدة طويلاً وعرضاً، يكون دَوْر عمرانها أَرْبَعِينَ ميلاً، بناؤها بالحجر والآجر، وسقوفها بالأخشاب، وأرضها مفروشة بحجر أبيض شبيه بالرخام، ولا يُبنى بها أكثر من طبقتين، وفي بعضها طبقة واحدة، ولا يفرش بالرخام إلا السُلطان.

قال الشيخ أبو بكر بن الخلال: هذه دور دهلي العتيقة، فأما ما أضيف إليها فغير ذلك، قال: وجملة ما يطلق عليه الآن اسم دلي أحد وعشرون مَدِينَة، وبساتينها على استقامة، كل خط اثنا عشر ميلاً من ثلاث جهاتها، فأَمَّا الغربي فعاطل لمقاربة جبل لها به، وفي دهلي ألف مدرِسة، وبها مدرِسة واحدة للشافعية، وسائرُها للحنفية، ونحو سبعين مارستاناً، وتسمى بها دور الشفاء، وفيها وفي بلادها من الخوانق والربط عدة ألفين مكاناً، وبها الديارات العظيمة، والأسواق الممتدة، والحمامات الكثيرة، وجميع مَياها من أبار محتفرة قريبة المستقى، أعمق ما يكون سبعة أذرع، عليها السواقى، وأَمَّا مشرب أهلها فمن ماء المطر في أحواض واسعة تجتمع فيها الأمطار، كل حوض يكون قنطرة، علوه سَهْمٌ وأزيد، وبها الجامع المشهور المئذنة، التي قال أنه ما على بسيط الأرض لها شبيه في سُمكها وارتفاعها، وقال الشيخ برهان الدين بن الخلال البزي الصوفي أن علوها ستمائة ذراع في الهواء.

قال الشيخ مبارك: وأما قصور السُلطان ومنازله بدهلي فإنها خاصّة بسُكونه وسُكن حريمه ومقاصير جواريه وحظاياها، وبيوت خدمه ومماليكه، لا يسكن معه أحد من الخانات، ولا من الأمراء، ولا يكون به أحد منهم إلا إذا حضروا للخدمة، ثم ينصرف كل واحدٍ إلى بيته، وخدمتهم مرتين في كل نهار في بكرة كل يوم وبعد العصر منه، ورَتَب الأمراء على هذه الأنواع، أعلاهم قدراً الخانات ثم الملوك ثم الأمراء، ثم الأصهبلاريه ثم الجند، وفي خدمته ثمانون خاناً أو أزيد، وعسكره تسعمائة ألف فارس من هؤلاء، منهم من هو بحضرته، ومنهم في سائر البلاد، يجرى عليهم كلهم ديوانه، ويشتملهم إحسانه، وعساكره من الأتراك والخطا والفرس والهند، ومنهم البهالوين والشكار، ومن بقية الأنواع والأجناس، كلهم بالخيال المسومة، والسلاح الفائق والتجمل الظاهر الزائد، وغالب الأمراء والجند تشتغل بالفقه، ويتمذهبون خاصة وأهل الهند عامة لأبي حنيفة رضي الله عنه، وله ثلاثة آلاف فيل محققة، تلبس في الحروب

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

البركصطوانات الحديد المذهب، وأما في أوقات السلم فتلبس جلال الديباج والوشى وأنواع الحرير، وتزين بالقصور والأسرة المصفحة، وتشد عليها البروج من الخشب المستمرة، ويتبوا بها رجال الهند مقاعد القتال، ويكون على الفيل من عشرة رجال إلى ستة رجال على قدر احتمال الفيل، وله عشرون ألف مملوك أتراك.

قال البرس وعشرة آلاف خادم خصى، وألف خزندار وألف بشمقدار وله مائتا ألف عند ركابه، تلبس السلاح، وتمشي في ركاب السلطان، وتقاتل رجالة بين يديه، وليس يستخدم أحد من الخانات والملوك والأمراء والأصفهاريه أجناداً، يقطع لهم الإقطاعات من قبلهم، كما هو في مصر والشام، بل ليس يتكلف الواحد منهم إلا نفسه وعدته من الجند، استخدامهم للسلطان، وأرزاقهم من ديوانه، ويبقى كلما تعين لذلك الخان أو الملك أو الأمير أو الأصفهاري خاص لنفسه والحجاب وأرباب الوظائف وأصحاب الأشغال من أرباب السيوف من الخانات والملوك والأمراء، لكل رتبة من يناسبها على مقدارها، فأما الأصفهارية فلا يؤهل منهم أحد لقرب السلطان، وإنما يكون منهم نوع الولاة، ومن يجري مجراهم، والخان يكون له عشرة آلاف فارس، والملك ألف فارس، والأمير مائة فارس، والأصفهارية دون ذلك. وأما أرزاقهم فيكون للخانات والملوك والأمراء والأصفهارية بلاد مقررة عليهم من الديوان، إن كانت لا تزيد، فإنها لا تنقص، والغالب أن تجيء أضعاف ما عبرت به. ولكل خان لكان، كل لك مائة ألف تنكة كل تنكة ثمانية دراهم، هذا خاص له، لا يخرج منه لجندي من أجناده شيء، ولكل ملك ستين ألف تنكة إلى خمسين ألف تنكة، ولكل أمير منه أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة، والأصفهارية من عشرين ألف تنكة وما حولها، وأما الجند فكل جندي من عشرة آلاف تنكة إلى ألف تنكة، وأما المماليك السلطانية، فكل مملوك من خمسة آلاف تنكة إلى ألف تنكة، وطعامهم وكساويهم وعليقهم والجند والمماليك ليس لهم بلاد، وإنما يأخذون أموالهم نقداً من الخزانة، وأما أولئك فبلاد تلك غيرها. قال: والآن إن لم يزد متحصلات البلاد المقتطعة لهم عن المعبر وإلا فما تنقص، ومنهم من يحصل له قد عبرته مرتين وأكثر.

وأما العبيد فكل عبد منهم في كل شهر منان من الحنطة والأرز طعاماً لهم وفي كل يوم . ثلاثة أسيار لحم مما يحتاج إليه، وفي كل شهر عشر تنكات بيضا، وفي كل سنة أربع كساوي. ولهذا السلطان دار طراز، فيها أربعة آلاف قزاز تعمل الأقمشة المنوعة للخليع والكساوي والإطلاقات، مع ما يُحمل له من قماش الصين والعراق والإسكندرية، وهو يُفرق كل سنة مائتي ألف كسوة كاملة، مائة ألف كسوة في الربيع، ومائة ألف كسوة في الخريف. فأما كسوة الربيع فغالبيتها من القماش الإسكندري، عمل الإسكندرية، وأما كساوي الخريف فكلها حرير من عمل دار السلطان الطراز بدهلي، وقماش

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

الصين والعراق، ويغرق على الخوانق والربط الكساوى، وله أربعة آلاف زركشي، يعمل الزراكش لباقي الحريم، ويعمل في مستعملاته، ولما يخلعه على أرباب دولته، ويعطى لنسائهم. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ويفرق في كل سنة عشرة آلاف فرس عربي من الخيل العرب المسومة منها ما هو مشرج ملجم، ومنها ما هو عربي بلا سرج ولا لجام، والمسرجات والملجمات على أنواع منها ما هو ملبس، ومنها ما هو محلى، ثم إن تلك الملابس والملجمات. منها ما هو بالذهب، ومنها ما هو بالفضة، فأما ما يعطى من الخيل والبرادين، فإنه بلا حساب، يُعطى جسارات جسارات، ويفرق مئناً مئناً.

وهو على كثرة الخيل ببلاد، وكثرة ما يجلب إليه يتطلبها من كل قطر، ويبذل فيها أكثر الأثمان، لكثرة ما يعطى ويطلق، وهي مع هذا غالية الثمن، مربحة المكاسب، لمن يتاجر فيها، لكثرة المكاسب والعساكر وجمهرة الخلق.

وحدثني علي بن منصور العقيلي من أمراء عرب البحرين، وهم ممن يجلبون من البحرين، الخيل، إلى هذا السلطان؛ أن لأهل هذه البلاد علامة في الفريس، يعرفونها بينهم، متى ما رأوها في فرس اشتروه بما عسى يبلغ ثمنه.

ولهذا السلطان نائب من الخانات يسمى أميرت أقطاعه يكون قدر إقليم عظيم نحو العراق، ووزير؛ أقطاعه يكون قدر إقليم العراق وله أربعة نواب، يسمى كل واحد منهم شق، ولكل منهم أربعين ألف تنكة إلى عشرين ألف تنكة، وله أربعة ديران أي كتاب سر، لكل واحد مدينة من المدن البنادر العظيمة الدخل، ولكل واحد منهم بقدر ثلاثمائة كاتب أصغر من فيهم وأضيق رزقاً له عشرة تنكة.

وأما أكابرهم فله قرى وضياح، وفيهم من له خمسون قرية، ولصدر جهان، وهو اسم قاضي القضاة، وهو في وقتنا كمال الدين بن البرهان، عشرة قرى، يكون متحصلها قريب من ستين ألف تنكة ويسمى صدر الإسلام، وهو أكبر نواب الحكم بالقضاء، ولشيخ الإسلام وهو شيخ الشيوخ مثله، وللمحتسب قرية، يكون متحصلها قريب ثمانية آلاف تنكة.

وله ألف طبيب، ومائتا طبيب وعشرة آلاف بزدار تركب الخيل، وتحمل الطيور المعلمة للصيد، وثلاثة آلاف سواق، تسوق لتحصيل الصيد، وخمسمائة نديم، وألف ومائتان نفرًا من الملاهي، غير مماليك الملاهي، وهم ألف مملوك، يرسم تعليم الغناء خاصة، وألف شاعر من اللغات الثلاثة العربية والفارسية والهندية من ذوي الذوق اللطيف، يجرى على هؤلاء كلهم ديوانه، وتدر عليهم مواهبه، ومتى بلغه أن أحداً من ملاهيه غنى لأحد، قتله، وساءلته عما لهؤلاء من الأرزاق، فقال: لا أعلم من أرزاق هؤلاء إلا ما للندماء، فإن لبعضهم قريتين، ولبعضهم قرية، ولكل واحد منهم من أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة إلى عشرين ألف تنكة، على مقاديرهم من الخلع والكساوى والإفتقادات.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

(قال الشيخ أبو بكر بن الخلال البزي الصوفي: وله مائتا تبع تسافر بأمواله في البلاد تتابع له ولكل واحد منهم في كل مدينة ألف تنكة) قال الشيخ مبارك: ويُمد لهذا السلطان السماط أوقات الحزم في طرفي النهار مرتين، في كل يوم، ويُطعم منه عشرون ألف نفر مثل الخانات والملوك والأمراء والأصفهارية وأعيان الجند، وأما طعامه الخاص، فيحضر معه عليه الفقهاء، مائتا فقيه في الغداء والعشاء، ليأكلوا معه ويجثوا بين يديه.

قال الشيخ أبو بكر بن الخلال البزي: سألت طبياخ السلطان كم يذبح في مطابخه كل يوم؟ فقال: يذبح ألفين وخمسمائة رأس من البقر، وألفين رأس من الغنم غير الخيل المسمّنة، وأنواع الطير.

قال الشيخ مبارك: ولا يحضر مجلس هذا السلطان من الجند إلا الأعيان ومن دعتهم ضرورة الحضور لكثرة عددهم، وكذلك مجالسه الخاصة لا يحضر بها جميع أرباب الخدم من الندماء والمغانى إلا بالنوب، وكذلك أرباب الوظائف مثل الديبران والأطباء، ومن يجرى مجراهم لا يحضرون إلا بالنوب، وأما الشعراء فلحضورهم أوقات مخصوصة في السنة مثل العيدين والمواسم ودخول شهر رمضان وعندما تتجدد نصره على أعداء أو فتح من الفتوحات أو غير ذلك مما تهنيء به السلاطين، أو يتعرض إلى مدحهم فيه.

وأمر الجند خاصة بل الناس عامة إلى أمريت وأمور الفقهاء والعلماء والقاطنين والواردين كلها إلى صدر جهان وأمور الفقهاء القاطنين والواردين إلى شيخ الإسلام، وأمور عامة الواردين والوافدين والأدباء والشعراء القاطنين والواردين إلى الديبران، وهم كتاب السر.

وحدثني قاضي القضاة أبو محمد الحسن بن محمد الغوري الحنفي أن السلطان محمد بن طغلقشاة كان قد جهّز ببغصان؛ أحد كتاب سره إلى جهة السلطان أبي سعيد، وبعث معه ألف ألف تنكة ليتصدق بها في المشاهد بالكوفة والعراق وتلك الآفاق، وكان هذا مغصان مخبث النية، فجمع أحواله عازماً على أنه لا يرجع إلى حضرة مرسله، وصادف وُضوله وفاة أبي سعيد، فتمكن مما قصده، وحضر إلى بغداد ومعه نحو خمسمائة فرس له ولأصحابه، ثم توجه إلى دمشق، قال: ثم بلغني أنه عاد منها إلى العراق، وأقام ببغداد، واستوطنها.

قلت وقد حدثني بحال هذا، الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم، وقال لي أنه رآه بدمشق، لكنه لم يذكر مبلغ هذه الصدقة، وكذا حكى لي عنه السُّبكي والملتاني والبزي، وإنما تخالفت ألفاظهم، فمعناها واحد، وقال كل منهم أن هذا مغصان من الفضلاء والأعيان والزينة الأخيار.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال الشيخ أبو بكر البزي: وهذا السلطان ترعدُ الفرائص لمهابته، وتزلزل الأرض لموكبه، وهو كثير التصدي لأُمور مملكته (و) لأُمور ملكه، وهو يجلس بنفسه لإنصاف رعيته.

قال خواجه أحمد بن خواجه عمر بن مسافر فيما حكاه عنه أنه يجلس لقراءة قصص الناس عليه جلوساً عاماً، ولا يدخل عليه من معه شيء من السلاح حتى ولا السكين، إلا كاتب السر لا غير.

والسلطان عنده سلاح كامل حتى التيركايش والقوس والنشاب، حيث قعد، لا يفارقه سلاحه، قال: وهذا دأبه دائماً أبداً.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وأما ركوب هذا السلطان فإنه يختلف، تارة يكون للحرب، وتارة يكون للانتقال في دهلي من مكان إلى مكان، وتارة يكون في قصوره، وأما إذا ركب إلى حرب، فالجبال سائرة، والرمال سائلة، والبحار تتدفق، والبحور والبروق تلمع، وأمور يعتقد كذبها العيان، ويعتقل عن وصفها اللسان، وعلى الفيلة من الأبراج مدينة أو قلعة حصينة، ولا يرى الطرف إلا النقع المثار، ودجى ليل ممتد على النهار، وشعار ولا يحمل أحد في الأعلام سواد إلا له خاصة، وفي الميمنة له أعلام سود، وفي الميسرة أعلام حصر، وفيها التينيات الذهب، السلطان أعلام سود، في أوساطها تينين عظيم من الذهب، وأما بقية الأمراء فكل واحد يحمل ما يناسبه، وأما ما يدق للسلطان من الرهجيات في الإقامة والسفر فإنه يدق له مثل الإسكندر ذي القرنين وهي مائتا جمل نقارات، وأربعون جملاً من الكوسات وعشرون بوقاً، وعشرة صنوج، وتدق له النوب الخمس أيضاً، ويحمل معه ما لا يحصى من الخزائن، وغير ذلك ما لا يكاد يعد من الجنايب. وأما في الصيد فإنه يخرج من خف، لا يكون معه أكثر من مائة ألف فارس، ومائتي فيل، ويحمل معه أربعة قصور خشب على ثمانمائة جمل، كل قصر على مائتي جمل ملبسة جميعها ستور حرير سود مذهب، وكل قصر طبقتان غير الخيم والخركاوات.

وأما في الانتقال من مكان إلى مكان للتنزه أو ما هذا سبيله فيكون معه نحو ثلاثين ألف فارس، وهذه العدة من الفيلة وألف جنيب مسرجة ملجمة ما بين ملبس بالذهب ومحلاً (المخطوط 32) ومطوق، ومنها المرصع بالجواهر واليواقيت.

وأما ركوبه في قصوره، فقال لي الشيخ محمد الخجندي، وكان ممن دخل دهلي، واستخدم في الجند بها، أنه رأى قد خرج من قصر إلى آخر وهو راكب وعلى رأسه الجتر والسلاح داريه، ورأه محمولاً بأيديهم السلاح، وحوله قريب اثني عشر ألف مملوك، جميعهم مشاة؛ ليس فيهم راكب إلا حامل الجتر والسلاح داريه والجمداريه حملة القماش.

وقال لي الشيخ مبارك أن هذا السلطان يحمل على رأسه سبعة جنوره منها إثنان مرصعان ليس لهما قيمة ولد ستة من الفخامة والعظمة والقوانين الشاهنشاهيه، والأوضاع السلطانية، ما لم يكن فعله إلا للإسكندر ذي القرنين أو لملكشاه بن ألب أرسلان.

وأما الخانات والملوك والأمراء، فإنه لا يركب أحد منهم في السفر والحضر إلا بأعلام، وأكثر ما يحمل الخان تسعة أعلام، وأقل ما يحمل الأمير ثلاثة، وأكثر ما يجرى الخان في الحضر عشرة جنائب، وأكثر ما يجرى الأمير في الحضر جنيبات.

فأما في الأسفار فمهما وصلت قدرة كل واحد منهم ووسعة صدره وكرمه مع أنهم إذا حضروا باب السلطان، تضاءلوا لطمس شمسهم كواكبهم، ولطم بحره سبحانه، وهذا السلطان مع هذا ذو بر وإحسان وتواضع لله تعالى. حدثني أبو الصفاء عمر بن إسحاق السبكي أنه رأى وقد نزل إلى جنازة فقير صالح، ومات، وحمل نعشه على عنقه، وله فضيلة جمّة يحفظ كتاب الله تعالى

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وكتاب الهداية على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، ويُجيد في المعقول، ويكتب خطأ حسناً، وله يد ممتدة في الرياضة، وتأديب النفس، والأدب، ويقول الشعر، وينظمه، ويستنشد، ويفهم معانيه، وباحث عنها العلماء، وناظر الفضلاء، ويؤاخذ خصوص الشعراء بالفارسية، فإنه عالق بأهدابها، عارف بشعابها.

قال: ولقد سمعته يبحث في معنى تقدم الأمس على اليوم، من أي قبيل هو، لأنهم قالوا إنما التقدم إما أن يكون بالزمان أو بالرتبة أو بالذات، وهذا لا يجوز أن يكون واحد من هذه الأقسام، وقرر أن قولهم انتقض بهذا، لأن الأمس متقدم لا بشيء من هذا.

قال: ولقد رأيته يأخذ بأطراف الكلام على كل من حضر على كثرة العلماء.

قال: والعلماء تحضر مجلسه، وتفطر في شهر رمضان عنده، وبأمر صدر جهان كل ليلة واحداً ممن يحضر بأن يذكر نكتة ثم تتجاذب الجماعة أطراف البحث فيها بحضرة السلطان، وهو كواحد منهم، يتكلم معهم، ويبحث بينهم، ويُرد عليه، وهو ممن لا يرخص في محذور، ولا يقر أحداً على منكر، ولا يتجاسر أحد أن يتظاهر في بلاد محرم، وأشد ما ينكر على الخمر، ويقيم الحد فيه، ويبالغ في تأديب من يتعاطاه من المقربين إليه.

حدثني السيد الشريف تاج الدين ابن أبي المجاهد الحسن السمرقندي أن بعض الخانات الأكابر بدهلى، كان يشرب الخمرة، ويدمنها، ويصر عليها، وكان يُنهى فلا يُنتهى، فغضب عليه هذا السلطان غضباً شديداً، وأمسكه، وأخذ أمواله، فكان بحمله ما وجد له أربعمئة ألف ألف مثقال، وسبعة وثلاثون ألف مثقال ذهباً أحمر، وفي هذه الحكاية كفاية في مبالغته في إنكار المنكر، وفي سعة أموال هذه البلاد، فإن هذا المال إذا حسب بالقناطير المصرية كان ثلاثة وأربعين ألف قنطار أو سبعمئة قنطار ذهباً، وهذا مما لا يكاد يدخل تحت حصر ولا إحصاء.

وحكى لي هذا الشريف حسن السمرقندي، وهو ممن جال الأرض وجاب الآفاق، عن أموال هذه البلاد وما تحار العقول فيه من مثل هذا أو أشباهه، وله من وجوه البر، والصدقات ما تسطره الدنيا في صحائف حسناتها، وترقمه الأيام في غرر حياتها، سمعت منه أحاديث جملتها ما علمت تفصيلها حتى حدثني الشيخ المبارك مبارك أن هذا السلطان يتصدق في كل يوم بلكين لا أقل منهما، يكون عنهما من نقد مصر والشام ألف ألف وستمئة ألف درهم في كل يوم، وربما بلغت صدقته في بعض الأيام خمسين لكا، ويتصدق عند رؤية كل هلال من كل شهر بلكين، عادة دائمة لا يقطعها، وعليه راتب مستمر لأربعين ألف فقير، لكل واحد منهم في كل يوم درهم واحد وخمسة أرطال خبز قمح أو أرز، وقرر ألف فقيه في مكاتب أرزاقهم على ديوانه، تعلم الأيتام وأولاد الناس القراءة والكتابة، ولا يدع بدهلى سائلاً يستعطى الناس، بل كل من استعطى منع من هذا، وأجرى عليه ما يجرى على أمثاله من الفقراء.

فأما إحسانه إلى العزباء، ومن يؤمله، فما يكاد يخرج عن حد التصديق.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

حدثني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم الطياري قال: كان عندنا بالأردو في خدمة السلطان أبي سعيد، رجل اسمه عضد بن قاضي يزد، يروم الوزارة، ولا يؤهل لها، ولا يعد من أكفائها، فلا يزال يشغب على الوزراء ويفتن بين أهل الأردو، فاتفق رأيهم على إبعاده، فبعثوه رسولا إلى دهلي برسالة مضمونها السلام والوداد والسؤال والإفتقاد، وعملوا هذه صورة ظاهرة لإبعاده، وكان قصدهم أن لا يعود، فلما حصل في دهلي، وحضر في حضرة هذا السلطان، وأدى الرسالة له، أقبل عليه، وشرفه بالخلع والعطاء، وأحله من كنفه في محل الرحب والسعة، وأطلق له حملاً من المال، ثم لما أراد الإنصراف عائداً إلى مرسله، قال له: أدخل الخزانة، وخذ مما شئت، وكان هذا السيد عضد رجلاً داهية، فلما دخل الخزانة لم يأخذ سوى مصحف واحد، فسمع السلطان بهذا، فأعجبه، وقال له لأي شيء ما أخذت إلا هذا المصحف؟ فقال: لأن السلطان قد أغنانني بفضله، ولم أجد أشرف من كتاب الله، فازداد إعجابه بفعله وبكلامه، ووقع منه موقع الاستحسان، وأعطاه مالاّ جمّاً، منه ما هو خاص بنفسه، ومنه ما هو معه لأبي سعيد على سبيل المهاداة، وكان جملة ما اتصل إليه منه ما هو لأبي سعيد وما هو له ثمانمائة، تومان التومان عشرة آلاف دينار رايجاً، الدينار ستة دراهم، فيكون هذا المبلغ ثمانية آلاف ألف دينار رايجاً، عنها ثمانية وأربعون ألف ألف درهم، فلما عاد بهذا المال الممدود، خشى أن يؤخذ في الأرد ومنه، ففرقه أقساماً، وغيبه عن العيون، وكان أمير أحمد بن خواجه رشيد، وهو أخو الوزير قد وقع له أمر اقتضى إخراجَه من الأردو، وروى لِمَكَان أخيه الوزير غياث الدين محمد، فكتب له بأن يكون أمير الإيلكاه، ومعنى هذا أنه يحكم حيث حل من المملكة حتى على حكامها، فصادف في طريقه هذا السيد عضد، فأخذ منه شيئاً كثيراً، احتمل إنه عمل منه عدة حمول من أواني الذهب والفضة، ليقدّمها إلي أبي سعيد والخواتين وأحسبه سبله له

إلى العود إلى الأردو، فعاجله الموت، ثم مات أبو سعيد، والسيد عضد، وتصرمت تلك الأيام، وذهب الذهب، ولم يغن أحداً ما كسب. اسم الكتاب: مسالك الأبصار
قال ابن الحكيم: وهذا السلطان صاحب دهلي، كرمه خارق، وإحسانه إلي الغرباء عظيم، قصده بعض الفضلاء من بلاد فارس، وقدم إليه كتباً حكيمة، منها الشفاء لابن سينا، واتفق أنه لما مثل بين يديه، وقدمه له، أحضر إليه حمل جليل من الجواهر الثمينة فحثا له منه ملء يده، وأعطاه له، وكان بعشرين ألف مثقال من الذهب، هذا غير بقية ما وصله به.
وحدثني الشريف السمرقندي، أن أهل بخاري يقصدونه بالبطيخ الأصفر المبقى عندهم في زمن الشتاء، فيعطيهام عطاءً جزيلاً.
قال: ومنهم واحد أعرفه، حمل إليه حملين من البطيخ، فتلف غالبه، ولم يصل معه إلا اثنتان وعشرون بطيخة، فأعطاه ثلاثة آلاف مثقال من الذهب.
قال الشيخ أبو بكر بن أبي الحسن الملقاني المعروف بابن التاج الحافظ: الذي بلغنا بالملتان، واستفاض عندنا بها، ثم أتى سافرت إلي دهلي، وأقامت بها، ووجدت أيضاً مستفيضاً فيها، أن هذا السلطان التزم أنه لا ينطق في اطلاقاته بأقل من ذلك.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وحدثني الخجندي قال: قصدته، واتصلت به، فأنعم عليّ بألف مثقال من الذهب، ثم سأل إن كنت أختار الإقامة أو العود، فقلت: اخترت الإقامة، فأجراني في جملة الجند.

وحدثني الشيخ أبو بكر بن الخلال البزي الصوفي، قال: بعث هذا السلطان مع جماعة أنا منهم ثلاث لكوك ذهباً إلى بلاد ما وراء النهر، لتفرق على العلماء لكاً منها، ويتصدق على الفقهاء بلك منها، ويبتاع له باللك الثالث.

قال: وقال لنا بلغني أن الشيخ برهان الدين الصاغر جي شيخ سمرقند مزيد في العلوم والزهد، وأنه لا يثبت عنده مالاً، فأعطوه أربعين ألف تنكة يتزود بها إلى الملتان، ثم إذا دخل بلادنا جُذنا عليه بالأموال، ثم قال: وإن لم تجدوه، أعطوا هذا المبلغ لأهله، ليوصلوه إليه إذا جاء، وعرفوه بأننا نطلبه ليتزود إلى الملتان.

قال: فلما وصلنا إلى سمرقند، وجدناه، قد دخل إلى بلاد الصين، فأعطينا المال لجاريتته، وعرفناها برغبة السلطان فيه، وحثه على طلبه.

وحدثني الفقيه أبو الصفاء عمر بن إسحاق الشبلي أن هذا السلطان لا يفارق العلماء سفيراً ولا حضراً، قال: وكنا معه في بعض غزواته، فلما كنا في أثناء الطريق جاءت من مقدمة عساكره كتب البُشرى بالفتوح، ونحن بين يديه، فحصل له السرور، وقال: هذا ببركة هؤلاء العلماء، ثم أمر بأن يدخلوا بيت المال، ويحملوا من بيت المال ما قدروا عليه، ومن كان منهم ضعيفاً يستنيب من يحمل من ذلك المال عنه، قال: فدخلوا إلى الخزانة، ولم أدخل أنا ولا كثير من أمثالي لأننا لم نكن من تلك الطبقة، وحمل أولئك كل واحد كبسين، كل كيس عشرة آلاف درهم إلا واحداً منهم، فإنه حمل ثلاثة أكياس، اثنين تحت إبطيه، وآخر فوق رأسه، فلما رآهم السلطان ضحك تعجباً من حرص الذي حمل الثلاثة، وسأل عن بقية الجماعة، ممن لم يدخل مثلي، ف قيل له إن هؤلاء دون أولئك لأن هؤلاء من المدرسين، وهؤلاء من المعيدين، فأمر لكل واحد منا بعشرة آلاف درهم، ففرقت علينا.

قال: ومنار الشرع عنده قائم، وسوق أهل العلم لديه رائج، يُشار إليهم بالتوقير والإجلال، وهم في غاية المحافظة على ما ينقام به ناموسهم من اصطلاح الظاهر والباطن والمداومة على قراءة العلم، وإقراءه، والتحري في كل أمورهم، والاقتصاد في جميع أحوالهم، وهذا السلطان لا يتأني عن الاجتهاد في الجهاد براً وبحراً، لا يثنى عنه عنانه ولا سنامه، ولا يزال هذا دأبه، نصب عينه، ودبر أذنه، وقد بلغ مبلغاً عظيماً في إعلاء كلمة الإيمان، ونشر الإسلام في تلك الأقطار، حتى سطع في ذلك السواد ضوء الإسلام، وبرقت في تلك الأنواء بوارق الهدى، وهدم بيوت النيران، وكسر البُدود والأصنام، وأخلا البرّ ممن ليس ببر إلا من هو تحت عقد الذمة، واتصل به الإسلام إلى أقصى المشرق، وقابل مطلع الشمس لألاء الصباح المشرق، وأوصل راية الأمة المحمدية كما قال أبو نصر العتبي إلى حيث لم تصل إليه راية ولا تليث به سورة ولا آية، فعمر الجوامع والمساجد، وأبطل التطريب بالآذان، وأسكت المزمزمة بالقرآن، وپوأ أهل هذه الملة قمم الكفار، وأورثهم — بتأييد الله — أموالهم وديارهم وأرضاً

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

لم يطأوها، وهو مع هذا تمد له خافقة مع كل خافقة، ففي البر عقبان الأعلام، وفي البحر غريان السفن الجواري المنشآت كالأعلام حتى أنه لا يخلو في يوم من الأيام من بيع آلاف مؤلفة من الرقيق بأقل الأثمان لكثرة السبى والأخذ. حدثني كل هؤلاء أن الجارية الخادمة لا يتعدى ثمنها بمدينة دهلي ثمان تنكات، واللواتي يصلحن للخدمة والفراش خمسة عشر تنكة، وأما في غير دهلي فإنهن بأرخص من هذه الأثمان. وقال لي أبو الصفاء عمر بن أبي إسحاق الشبلي أنه اشترى عبداً مراهقاً نقاعاً بأربعة دراهم، وقس على مثل هذا، قال: ومع رخص قيمة الرقيق، وهو أنه يوجد من الجواري الهنديات من يبلغ ثمنها عشرين ألف تنكة وأكثر وهكذا.

قال لي ابن التاج الحافظ الملقاني، قلت: وكيف تبلغ الجارية هذا الثمن مع الرخص؟ قال لي: كل واحد في مجلس على انفراده لحسن خلقها، ولطف خلائقها، ولأن غالب مثل هذه الجوار يحفظن القرآن، ويكتبن الخط، ويروين الأشعار والأخبار، ويجدن الغناء وضرب العود، وبلغن الشطرنج والنرد، وصل هذه الجواري يتفاخرن في مثل هذا، فتقول الواحدة: أنا أخذ قلب سيدي في ثلاثة أيام، فتقول الأخرى: أنا أخذ قلبه في يوم، فتقول الأخرى: أنا أخذ قلبه في ساعة، فتقول الأخرى: أنا أخذ قلبه في طرفة عين. قالوا: إن ملاح الهنديات أكثر حسناً من الترك والقفجاق مع ما يتميز به من التخرج العظيم والتفنن الفاتن، وغالبهن ذهبيات الألوان، وفيهن بيض ذوات بياض ساطع مختلطاً بالخمرة، وعلى كثرة وجود الترك والقفجاق والروم وسائر الأجناس عندهم، لا يفضل أحد على ملاح الهنديات سواهن لكمال الحسن والحلاوة وأمور أخرى تدق عنها العبارة. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

حدثني سراج الدين عمر الشبلي أنه لا يلبس ثياب الكتان المجلوبة إلى هذه المملكة من الروس، والإسكندرية إلا من لبسه السلطان منهم وإلا قميصهم وثيابهم من القطن الرفيع، قال: تعمل منه ثياب شببيات بالمقاطع البغدادية، ولكن أين المقاطع البغدادية والنصافي منها، لرفعيتها ولطافة بشرتها، فإن بعضها يوازي اللوانس في رفعيتها مع الصنق والمأبىة. وحدثني الشيخ مبارك أنه لا يلبس ولا يركب بالسروج الملبسة أو المحلاة بالذهب إلا من أنعم السلطان عليه بشيء منها، فإذا أنعم عليه بشيء من المحلى بالذهب، كان إذناً له في اتخاذ ما شاء منه، أمّا عامة ركوبهم ففي الملبس أو المحلى بالفضة.

قال: والسلطان ينعم على من في خدمته على اختلاف أنواعهم من أرباب السيف والقلم والعلم، بكل شيء جليل ونوع نفيس من البلاد والأموال، والجواهر والخيول والسروج المحلاة بالذهب والمناطق الذهبية والأقمشة المختلفة الأنواع والأجناس إلا الفيلة فإنها لا تكون إلا له، لا يشاركه فيها مشارك من جميع الناس، قال: والفيلة لها رواتب كثيرة لعلوفاتها، فإنها لعل هذه الثلاثة آلاف فيل لا يكفيها إلا دخل مملكة كبيرة، فسألته: كم لها؟ قال: تختلف أجناسها وأشكالها، وعلى قدر اختلافها، علوفاتها، وأنا أقول لك أكثر ما

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

يريد كل فيل في كل يوم، وأقل ما يريد، أما أكثر ما يريد في كل يوم أربعون رطلاً من أرز، وستون رطلاً من شعير، وعشرون رطلاً من سمن، ونصف حمل حشيش، وأما ما تريده سوّاسها، والقومة عليها فجملة كثيرة وأمور كثيرة، قال: وشحنه الفيل رطل كبير من أكابر الدولة. قال الشبلي: يكون أقطاعه قدر إقليم كبير مثل العراق وهيئته، وفوق ملوك هذه الملكة في مواقف الحرب.. أن يقف السلطان في القلب وحوله الأئمة والعلماء والرمّة قدامه وخلفه، وتمتد الميمنة والميسرة موصولة بالجناحين، وأمامه الفيول الملبسة بالأركصطوانات الحديد، وعليها الأبراج المسمرة فيها المقاتلة على ما قدمنا القول فيه، وفي الأبراج منافذ لرمي النشاب ومرمى قوارير النفط، وقدام الفيول العبيد المشاة في خفّ من اللباس، بالسيوف والسلاح يفسحون لمجال الفيول، ويعرفون الخيل بالسيوف، الرماة في الأبراج تكشف عليهم من خلفهم من فوق، والخيل في الميمنة والميسرة، تضم أطراف الأرض على الأعداء، وتقاتل من حول الفيول وورائها، فلا يجد الهارب مفراً ولا مدخلاً، فلا يكاد ينجو قدامهم، لاحتياط العساكر المحدقة بهم، ومواقع النشاب والنفط من فوقهم، ومخالسة الرجال لهم من تحتهم، فيأتيهم الموت من كل مكان، ويحيط بهم البلاء من كل جهة.

ولقد تهيأ لهذا السلطان القائم بها الآن ما لا تهيأ لأحدٍ قبله من ملوك هذه المملكة من النصر والاستظهار وفتوح الممالك، وهدم قواعد الكفار، وحل عقد السحرة، وإبطال ما كانت تتعلل به الهنود من الصور والتماثيل، ولم يبق إلا ما هو داخل البحار من القليل الشاذر والناذر الذي لا حكم له، (ولا معلم لهم عهد هذا السلطات حتى يستكملها، ويغسل بالسيف ما بقى منه)، فتضوعت أندية الهند من ذكره بأطيب من طبيها، وتحلى زمانه بها بأعلى قيمة من جواهرها، وهو اليوم جامع ذويل تلك الأقطار، وماسك نطاق البراري والبحار، وإذا قيل اليوم سلطان الهند لا يطلق على سواه، ولا يصح هذا الاسم الكريم إلا على مسماه.

قال الشبلي: وحقيق على مسلم أن يدعو للسلطان هذا في الله جهاده، وذلك معروفيه، وتلك سجاياه. وحكى لي محمد الخجندي: إن لهذا السلطان في كل أسبوع يوماً عاماً يجلس فيه للناس جلوساً عاماً، وهو يوم الثلاثاء، يجلس في ساحة عظيمة متسعة إلى غاية يُضربُ له فيها جتر كبير سلطاني، يجلس في صدره على تخت عال مصفح بالذهب مرصع بالجواهر، ويقف أرباب الدولة حوله يميناً ويساراً وخلفه السلاح داريه والجمداريه، ومن حكمه بين أرباب الأشغال الخاصة حكمهم، وأرباب الوظائف على منازلهم ولا يجلس إلا على الخانات وصدر جهان والدبيران يعني كتاب السر، بين يديه، والحجاب وقوف، وينادي مناداة عامة أنه من كان له شكوى يحضر، فيحضر كل من له شكوى أو حاجة يسأل السلطان فيها، فإذا حضر أو وقف بين يديه، لا يضرب، ولا يمتنع حتى ينهى إليه شكواه، ويأمر السلطان فيه بأمره.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وهم الموقعون إلى جانب المكان، لا يقع فيه نظر السلطان عليهم، ومدت الأسمطة، وقدمت الحجابُ القصص إلى حاجبي صاحبه، وهو الحاجب الخاص المقدم على الكل، فيعرضها على السلطان، ثم إذا قام السلطان، جلس إلى كاتب السر فأدى إليه الرسائل بما رسمه السلطان في ذلك، فينفذها، ثم إذا قام السلطان من المجلس، جلس في مجلس خاص واستدعى العلماء، فيحضر من له عادة فيجالسهم، ويؤانسهم، ويأكل معهم، ويتحدث هو وإياهم وهم بطانته الخاصة، ثم يأمرهم بالإنصراف، ويخلو بالندماء والمغاني، تارة ينادم بالحديث، وتارة يُغنى له، وهو على كل حال في المحافل والخلوات، عفيف الخلوة، طاهر الذيل، يحاسب نفسه على الحركات والسكوت، ويراقب الله في السر والعلن، لا يرتكب محرماً، ولا يفسح فيه.

قال لي الشبلي: حتى أنه لا يوجد بدهلي خمرًا بالجملة الكافية، لا ظاهراً ولا مضمراً، لتشديد هذا الرجل فيه، وإنكاره على من يعانيه، قال: مع أن أهل الهند لا رغبة لهم في الخمر ولا في المسكرات استغناءً بالتنبول، وهو حلال طيب لاشية فيه مع ما فيه من أشياء لا يوجد في الخمر بعضها، وهو أنه يطيب النكهة، ويصرف الأطعمة، ويبسط الأنفس بسطاً عظيماً، ويورثها سروراً زائداً، مع ثبوت العقل، وتصفية الذهن، ولذاذة الطعم، فأما أجزاءه فهو ورق التنبول والقوقل ونون يعمل خاصة.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال: ولا يعد أهل تلك البلاد كرامة أبلغ منه، فإنه إذا ضيف الرجل لآخر وأكرمه بما عسى أن يكون من أنواع الأطعمة والأشربة والرياحين والطيب، ولا يحضر معها التنبول لا يعتد له بكرامة، ولا يعد أنه أكرمه، وكذلك إذا أراد الرئيس إكرام أحد ممن يحضره، يناوله التنبول.

قلت: وهذا نظير مسك الأياق في ممالك أولاد جنكيزخان، والأياق هو قدح خمر أو تمر يمسكه الكبير لمن أراد إكرامه أو الرجل لمن أراد خدمته، وهو أبلغ خدمة عندهم، وسيأتي بمشيئة الله تعالى ذكر هذا في موضعه.

وحدثني العلامة سراج الدين أبو الصفاء عمر الشبلي أن هذا السلطان متطلعاً إلى معرفة أخبار ممالكه وبلاده، وأحوال من حوله من جنوده ورعاياه، وأن له ناساً يسمون المنهيين، وطبقاتهم مختلفة، فمنهم من يخالط الجند والعامه، فإذا علم ما يجب إنهاؤه إلى السلطان أنهاه إلى أعلى طبقة منه، ثم ينهيها ذلك المنتهى، إلى آخر الأعلى فالأعلى إلى السلطان.

فأما أخبار البلاد النائية فإن بين حضرة السلطان وبين أمهات الأقاليم أماكن متقاربة، بعضها من بعض شبيهة بمراكز البريد في مصر والشام، ولكن هذه قريبة المدى بين المكا والمكان بقدر أربع علوات نشاب أو دونها، وفي كل مكان عشر ساعة ممن له خفة في الجري، يحمل الكتب بينه وبين تاليه، إذا أخذ أحدهم الكتاب جرى به جرياً قوياً بأشد ما يمكنه أن يشدد، وأقوى ما يمكنه أن يجرى إلى أن يوصله إلى الآخر، فيجرى به كالأول إلى المكان الذي يليه، ويرجع حامله إلى مكانه على مهله، فيصل الكتاب من المكان البعيد إلى المكان البعيد في أقرب الأوقات أسرع من البريد والنجاية.

قال: وفي كل مكان من هذه الأماكن المركزية مساجد تقام بها الصلوات، ويأوى إليها السفار، وبرك ماء للشرب، وأسواق للبيع للمكاكل وعلوفة الدواب، ولا يكاد يحتاج إلى حمل ماء ولا زاد ولا خيمة.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

قال: ومن جملة عناية هذا السلطان جعل بين قاعدتي ملكه وهما: دهلى وقبة الإسلام في هذه الأماكن المعدة لإبلاغ الأخبار طبول، فحيثما كان في مدينة وفتح باب الأخرى أو غلق يدق الطبل، فإذا سمعه مجاوره دق، فيعلم خبر فتح المدينة التي هو غاب عنها، وغلقه في وقت الحاضر كل يوم بنوبة. ولهذا السلطان مهابة يسقط لها القلوب مع قربه من الناس، ولينه في كلامه وحديثه، وكل من أراد الوصول إليه وصل إليه، لا يبعده عظم حجاب، ولا عموم حجاب، وقد أدر الله في أيامه الأرزاق، وكثر المواد، وضاعف النعم، على أن الهند ما زال موصوفاً بالرخاء، معروفاً بالسخاء.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
حدثني الخجندي قال: أكلت أنا وثلاثة نفر رفاقاً لي في بعض بلاد دهلى لحماً بقرياً وخبزاً وسمناً حتى شبعنا بكتيل وهو أربع فلوس، وسأذكر معاملاتهم، ثم ذكر الأسعار عندهم لأنها مرتبة على المعاملة وبها تعرف.
ولقد حدثني الشيخ مبارك قال: اللك الأحمر مائة ألف تنكة، واللك الأبيض مائة ألف تنكة الذهب، وهي المسمى عندهم التنكة الحمراء، ثلاثة مثاقيل، والتنكة النقرة وهي تنكة الفضة، ثمانية دراهم هشتكاني، وهذا الدرهم الهشتكاني هو وزن الدرهم النقرة معاملة مصر والشام، وجوازه لا يكاد يتفاوت ما بينهما، وهذا الدرهم الهشتكاني هو أربعة دراهم سلطانية، وهي المسماة الدكانية، وهذا الدرهم السلطاني يجيء ثلث درهم هشتكاني، وهو درهم ثالث يتعامل به في الهند، وجوازه بنصف وربع درهم ششتكاني (ولهذا الدرهم السلطاني نصف يسمى يكاني وهو بكتيل واحد، وكلهم درهم آخر اسمه شاتربكاني جوازه بدرهمين، فحينئذٍ دراهم الهند ستة شاذودكاني ودوازديكاني هشتكاني ششتكاني وسلطاني ويكاني أصغرها السلطاني، وهذه الدراهم الثلاثة الأخيرة كلها مما يتعامل بها.
والمعاملات بينهم بها دائرة والأكثر بالدرهم السلطاني، وهو الذي تقديره ربع درهم من نقد مصر والشام، وهذا الدراهم السلطاني هو بثمانية فلوس، والثمانية فلوس هي جيتلان كل جيتل أربعة فلوس، فيكون الدراهم الهشتكاني، الذي هو مثل درهم النقرة، معاملة مصر والشام اثنتين وثلاثين فلساً.
ورطلهم يسمى سير وهو وزن سبعين مثقالاً عنها بصنجة الدراهم بمصروفاته فإنه مائة ودرهمان وثلثان، وكل أربعين سيراً من واحد، ولا يعرف عندهم الكيل.

وأما الأسعار فإن أوسطها القمح، كل من بدرهم ونصف هشتكاني، والشعير كل من بدرهم واحد منه، والأرز كل من بدرهم ونصف وربع منه إلا أنواعاً معروفة من الأرز فإنها أعلى من ذلك، والحمص كل مئين بدرهم واحد هشتكاني، ولحم البقر والمعز سعر واحد، ويباع كل ستة أسيار بدرهم سلطاني، وهو ربع درهم هشتكاني، والغنم كل أربعة أسيار بدرهم سلطاني، والأوز كل طائر بدرهمين هشتكاني، والدجاج كل أربعة طيور بدرهم هشتكاني، والسكر كل خمسة أسيار بدرهم هشتكاني، والنبات كل أربعة أسيار بدرهم منه، ورأس من الغنم الجيدة السمينه الفائقة بتنكة واحدة عنها ثمانية دراهم

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

هشتكانية، والرأس البقر الجيد بتنكتين، وربما كان بأقل، والجاموس كذلك، وأكثر ماكلهم لحوم البقر والمعز.
قلت للشيخ مبارك: أهذا لقلة الغنم؟ قال: لا؛ ولكن عادة؛ وإلا فالأغنام لا تعد في كل قرية في الهند بالآلاف المؤلفة، والدجاج كل أربعة طيور فائقة يدرهم واحد بالمصري، وأما الحمام والعصافير وأنواع الطير فبأقل الأشياء ثمنًا.
اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وأما أنواع الصيد من الوحش والطير بها فكثير، وبها الفتك والكركند، وإنما فيلة الزنج أجل، وأمارتهم في الملبوس، لبسهم البياض وثياب الجوخ وثياب الصوف، إذا جلب إليهم، يباع بأربع الأثمان، ولا يلبس الصوف إلا أهل العلم والفقر.
ويلبس السلطان والخانات والملوك وسائر أرباب السيوف تتريات وتكلاوات وأقبية إسلامية مخصرة الأوساط خوارزمية وعمائم صغار لا تعدى العمامة خمسة ستة أذرع من اللانس الرفيع.

وحدثني الشريف ناصر الدين محمد الحسيني الكارمي المعروف بالزمردى، وهو ممن دخل إلى الهند مرتين، وأقام عند السلطان قطب الدين بدھلى، أن غالب لباسهم البياض، وغالب جمعاتهم أكسباتهم التتيرية مزركشة بالذهب، ومنهم من يلبس مطرز الكمين بزركش، ومنهم من يعمل الطراز بين كتفيه مثل المغل وأتباعهم، مربعة الإنيساط مرصعة بالجواهر، وغالب ترصيعهم بالياقوت والماس، وتضفير شعورهم ذوءابات مرخية، كما كان يفعل عسكر مصر والشام، ويعمل في الذؤابات شراريب حريز، وتشد في أوساطهم المناطق من الذهب والفضة وأخفاف ومهامير، وأما السيوف فلا تشد إلا في الأسفار، وأما في الحضر فلا تشد، وأما الوزراء والكتاب فمثل زي الجند، ولكن لا يشدون المناطق، وبعضهم يرخى له عذبات أمامهم، مثل عذبات الصوفية، وأما القضاة والعلماء فلبسهم فرجيات (شبهات بالجندات ودرايع، وأما عامة الناس فقمص، وفرجيات مقتدرة ودرايع).
وحدثني الشبلي: أن أهل دهلى أهل ذكاء وفطنة فصحاء في اللسان الفارسي، والهندي، ومنهم من ينظم الشعر بالعربي ويجيد فيه النظم، وكثير ممن يمدح السلطان منهم ممن ليس لهم اسم في ديوانه، فيقبل عليهم ويجيزهم.
قال الشبلي: وأخذ دبيران السلطان له عادة أن يمدحه إذا تجدد له فتح أو أمر كبير ورسمه عليه أن يأمر بأن تعد أبيات قصيدته، ويعطي لكل بيت عشرة آلاف تنكة، وكثيراً ممن يستحسن السلطان منه شيئاً، (أو يعلم له درراً)، فما يأمر له بشيء مخصوص على التعيين وإنما يأمره بأن يدخل إلى الخزانة ليحمل ما أطاق.
فلما رأي عجت مما يحكيه من كثرة هذا الإنفاق والبسطة من المواهب والأطلاق، قال: وهو مع هذه السعة المفرطة في بذل الإعطاء، لا ينفق نصف دخل بلاده.

وحدثني شيخنا فريد الدهر شمس الدين الأصفهاني، قال: كان قطب الدين الشيرازي رحمه الله يثبت صحة الكيمياء، قال: فبحثت معه في بطلان

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

الكيمياء، فقال لي: أنت تعلم ما يتلف (من الذهب) في الأبنية والمستعملات، ومعادن الذهب لا يتحصل منها نظير (ما يتلف) وينفذ، وأما الهند فإني حررت أن له ثلاثة آلاف سنة، لم يخرج منه ذهب إلى البلاد، ولا دخل إليه ذهب، فخرج منه، والتجار من الآفاق تقصد الهند بالذهب العين، تتعوض عنه بأعراد، وحشائش وصموغ لا غير، فلولا أن الذهب يعمل لعدم بالجملة الكافية. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال شيخنا شهاب الدين: أما قوله عما يدخل إلى الهند من الذهب ثم لا يخرج منه فصحيح، وأما إثباته لصحة الكيمياء فباطل لا صحة له.

قال: بلغني أن ممن تقدم لهذا السلطان فتح فتوحاً، فأخذ منه من الذهب وسق ثلاثة عشر ألف بقرة، قلت: والمشهور عن أهل هذه البلاد جمع الأموال وتحصيلها حتى أن بعضهم إذا سئل كم معك؟ فيقول: ما أعرف إلا أن ثاني ولد يجمع على مال جده أو ثالث ولد في هذا النقب أو في هذا الجب، وما نعلم كم هو، وهم يتخذون أجاباً لجمع الأموال، ومنهم حق ينقب في بيته، ويتخذ به بركة ويسدها، ولا يدع إلا مقدار ما يسقط منه الدنانير ليجمع فيها الذهب، وهم لا يأخذون الذهب المصوغ ولا المكسور ولا السبائك خوفاً من الغبن، ولا يأخذون إلا الدنانير المسكوكة.

وفي بعض جزائريهم من ينصب على سطح داره علماً، كلما تكامل لأحدهم جرة ذهب، حتى يكون لبعضهم عشرة أعلام وأكثر.

وحدثني الشيخ برهان الدين أبو بكر بن الخلال محمد البري الصوفي قال: بعث هذا السلطان عسكر إلى بلاد مجاورة للدواكير في نهاية حدودها، وأهلها كفار، يدعى كل ملك منهم الرا، فلما نازله جيوش السلطان بعث يقول لهم، قولوا للسلطان أن يكف عنا، ومهما أراد من الملك يبعث له ما أراد من الدواب لأحمله له، فبعث أمير الجيش يعرفه بما قال، فأعاد جوابه بأنه يكف عنهم القتال، ويؤمنه للحضرة معه، فلما حضر إلى السلطان أكرمه إكراماً كثيراً، وقال له: ما سمعت مثل ما قلت، فكم عندك من المال حتى قلت إنا نبعث لك مهما أردنا من الدواب لتحملها؟ فقال: تقدمني سبع رآات في هذه المملكة، جمع كل واحد منهم سبعين ألف بايين، أموالاً، وكلها عندي حاصلة، فقال: والبايين هو صهرج متسع جداً ينزل إليه بسلاالم من أربع جهات، فأعجب السلطان مقالته، وأمر بأن يختم على الأموال باسمه، فختمت باسم السلطان، ثم أمر الرا بأن يجعل له نواباً من مملكته، ويقيم هو بنفسه في حضرته بدهلى، وعرض عليه.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

الباب الثاني

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

في ممالك بيت جنكيزخان

وفيه فصول:

الفصل الأول: في الكلام عليهم جلياً.

الفصل الثاني: في مملكة الفان الكبير صاحب التخت وهو صاحب الصين

والخطا.

الفصل الثالث: في التوارنيين وهم فرقان:

الفرقة الأولى: فيما وراء النهر

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

الفرقة الثانية: في خوارزم والقبجاق.

الفصل الرابع: في الإيرانيين.

الفصل الأول

جعلت هذا فصلاً جامعاً لذكرهم، قبل ذكرهم على التفصيل في ممالكهم، لأن هؤلاء منهم أربعة سلاطين بيد كل منهم مملكة عظيمة، استولوا بها على غالب المعمور من حدود الفرات إلى نهاية الشرق على الخط المستقيم المتصل بالسند، فالمسمى بالقان الكبير، وهو المتغلغل في الشرق، منهم، وهو القائم مقام جنكيزخان، والجالس على تخته وسيأتي ذكره إن شاء الله.

والثاني منهم، هو صاحب إيران بمجموعها، وهي التي كانت بيد الأكاسرة، والثالث منهم، هو صاحب القبجاق (والرابع منهم)، صاحب مملكة ما وراء النهر، فانقسمت بينهم مملكة توران، وهي مملكة الترك القديمة، وبها كان افراسياب وأما صاحب إيران، فهو يفخر على الملكين؛ صاحب القبجاق وصاحب ما وراء النهر؛ بأن جده الأكبر هو لاکو بن تولى ابن جنكيزخان، وهو جد القان الأكبر الآن. والملكان الآخران بفخران بأن جنكيزخان لما قسم البلاد بين ابنيه، ملك جديهما، ولم يملك تولى ولا هولاکو ولده جد صاحب إيران، بل كان هولاکو ابن تولى مندوباً من جهة أخيه منكوكبكا خان، وارث الملك والتخت. (حدثني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم نور الدين الطياري الكاتب البنوسي عدي أنه كان أرسله لدفع الإسماعيلية والأكراد، فلما أخذ بغداد، تمكن وعصا، واستقل بنفسه، والواضح الجلي ما سنذكره عن شيخنا الفرد نادرة الوجود أبي التناء الأصفهاني إن شاء الله في ذلك).

وأما أصل جنكيزخان، جد هؤلاء الملوك في النسب، فنحن نذكر منتهى نسبهم إلى أن نأتي إلى جنكيزخان (متبعهم، ومشرع الباسته لهم)، ثم تفرع نسب كل ملك من هؤلاء الأربعة، فنقول وبالله التوفيق، (قيل) أن جنكيزخان ينتهي (نسبه) إلى امرأة تسمى آلان قوا كانت متزوجة بزوج أولدها ولدين، اسم أحدهما بكتوت والآخر بلكوت، وأبناء هذين الولدين يسميان عند المغل الدرلكيه، ثم مات زوجها، وبقيت مرحلة بغير زوج، فحملت فأنكر عليها المحل، وحملت إلي من له الحكم بينهم، لينظر في أمرها، فسألها ممن حملت؟ فقالت: ما حملت من أحد، إلا أنني كنت قاعدة وفرجي مكشوف، فنزل نور دخل في فرجي ثلاث مرات فحملت منه هذا الحمل، وأنا حامل بثلاثة ذكور، لأن دخول ذلك النور كل مرة بولد ذكر، فأمهلوني حتى أضع، فإن وضعت ثلاثة ذكور، فأعلموا مصداق قلبي، وإلا فرأيكم في، فولدت ثلاثة أولاد ذكوراً من بطن واحد؛ بوقن فوناغي، وبوسن سالجي، وبوذنجر، وهؤلاء الثلاثة هم المسمون بالنورانيين نسبة إلى النور الذي ادعت أنهم أنه نزل في فرجها، ولهذا يقال عن جنكيزخان أنه ابن الشمس وبوذنجر عليه عمود النسب إلى جنكيزخان.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

فنقول: إن هذا بوذنجر ابن الآن قوا أولد بغا وبغا أولد ذو توم منن، وذو توم منن

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وذوتوم ممن أولد قيدو، وقيدو أولد باي سنقر، وباي سنقر أولد تومنيه خان، وتومنيه خان أولد قبل خان، وقبل خان أولد ترپان، وترپان أولد بيوكي بهادر، ويسكوي بهادر أولد جنكيزخان، جد هؤلاء الأربعة. ونحن الآن نسرد نسبه منه إلى الآن، فواصل أن تفرع أنساب هؤلاء الأربعة منه، فنقول جنكيزخان بن بيسوكي بهادر ابن نزيان بن قبل خان بن تومنيه خان بن باي سنقر بن قيدو ابن ذو توم ممن بن بغابن بوذنجر بن الآن قوا، إلى هذه المرأة منتهى نسبهم.

وهذه الحكاية في نسب جنكيزخان أكذوبة قبيحة، وأحدثة غير صحيحة، وإن صحت عن المرأة، فلعلها احتالت على سلامة نفسها من القتل، ولعلها سمعت قصة مريم الزكية، فتعلقت بحبل الشبهة، حتى أضلت أقواماً بشييه ذلك الحق، وزورت كذباً على مثل هذا الصدق.

«قد يُبعد الشيء من شيء يشابهه»

إن السماء نظير الماء في الزرق

وها نحن نبدأ بذكر نبذة من ابتداء حال جنكيزخان وترقيه إلى أن ملك، ودانت له ملوك تلك الديار، وقبل الخوض في سياقة انتساب هؤلاء الملوك واتصالهم به، فنقول: حكى صاحب علاء الدين عطا ملك الجويني (أنه كان ملك الجويني)، أنه كان ملك عظيم في قبيلة عظيمة يدعى أونك خان، وكان مطاعاً في قبيلته ينقاد إليه عظماء رعيته، فتردد إليه جنكيزخان في حال صباه، وقربه وأدناه، وتوسم فيه النجاة والرياسة، فزاد في ارتقائه على أقربائه، وأعلاه على من سواه، حتى نشأ بينهما الاتحاد، وانتسج الوداد، فشبت نار الحسد في أقرباء ذلك السلطان، ونفخ في روعهم مخيّل الشيطان. أن وضعوا لجنكيزخان المراضد والمصائد، ودفنوا له الأوابد والمكائد، وأعملوا الفكر في قطع جعل انفصال عنه، ووضع موجبات قتله واتصال منه، فلما بالغوا في الوقعة، وأسرفوا في الغيبة والشنيعة، تغير أونك خان، على جنكيزخان تغيراً لم يظهره، وأسر كدراً لم ينقره، وجمع فكراً في ذنب بأخذه به، أو ينتحله، أو جرم يتقوله واستشار فيه أصحابه، وجعل التوقع لذلك دأبه، فاتفق أن سخط أونك خان على صبيين من مماليكه، فخافاه والتجأ إلى حوزة جنكيزخان، واستجارا به، فأحسن إليهما، وحنا عليهما، ووعدهما بإزالة كدر السلطان، وتلاقى ما كان، فأنطقهما لسان الإحسان بهذه:

«إذا التزم المقدار جبل سعادة

أتاك جميع الكائنات مساعداً

«وَإِذَا جَرِيَ الْقَضَاءُ عَلَى صَغْبٍ سَهَّلَهُ

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وإذا أَرَادَكَ اللَّهُ لَأَمْرٍ هَمَّاكَ لَهُ»

وقالا له: إن السلطان أونك خان يتوقع لك الوقعة، ويتربص لك الأجن الشنيعة، فخذ جذرك، وأصلح أمرك، فرحل من ليلته بأتباعه وجماعته، ودهمه أعداؤه سحراً، فلم يجدوا له أثراً، ولا عرفوا له خبراً، ونفر العسكر يتلوه، فلم يلقوه، وقيل بل لحقوه، فعطف بجماعته إليهم، وقاتلهم حتى أتى عليهم، وغنم مالهم،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

فلما جمع أتباعه وأقاربه، وأعز مقامه، وحمى جانبه، وربّ رجاله وآله، وبذل لهم قوته وماله، وخص بإحسانه دنيك الصغيرين دون الناس، وأنزلهم منزلة العينين من الراس، ويسمى كلا منهما ترخاناً، وكتب له أماناً وفرماناً بفراغه من جميع المؤن والكلف، وتفرغه لانتهاز الفرصة، واقتطاف الطرف، وأن ينهب في الفتوح قبل كل ناهب، ويسلب قبل كل سالب، ويدخل على يده عامة البيوت فلا يمنع، ويحكم فلا يدفع، وأن لا يؤخذ بذنوب كثيرة ولو تكررت ذنوبه، واستمرت عيوبه، وأجرى ذلك لجمليتهما، وأحادهما، وأن يستمر ذلك إلى سبعة أبطن من أولادهما، ومن نسلهما الآن قوم لا عادية عليهم، ولا لوم، محترمون عند الملوك، جارون على ذلك النهج المسلوك.

ثم شرع في الإحسان إلى جميع من رحل عن أونك خان، وباعده، واتصل به، وعاضده، وأفشى فيهم الإنعام، وبث فيهم الإعزاز والإكرام، حتى تتالوا إليه أفواجاً، وتواردوا إليه فرادى وأزواجاً، وأولادهم الآن أقرب الأخصين، وأخص الأقربين، فقوى بذلك أمره وإمارته، واشتدت شوكته ومهابته، وراسل القواد، فانقادت، واستلات القلوب فلانت أو كادت، فحينئذٍ جرد عسكرياً كثيفاً، وتبعاً لفيفاً لمحاربة السلطان أونك خان، وأمدّه بآخر يتلوه، فنازلته العساكر الجنكيزية، فقتل في أقرب أمد، وملك جنكيزخان ما كان له من عدة وعدد.

ثم بعث جنكيزخان إلى القبائل المتباعدة، والبطون المتباينة، بما عرفهم به من حاله وعدله وبأسه وفضله وعلو شأنهم إن انضموا إليه، وتأييد سلطانهم إن عكفوا عليه، فتوالوا إليه كالسبل ورمل الفلا ورجل الجراد.

وكان من أعظم القبائل المجيبة لدعوته، الداخلة في إبالته، القانعة برئاسته وباسته قبيلتان، بالغان في العدد، نهايتان في الاستعداد والغدد، إحداهما تدعى أويرات، والأخرى قنقورات وأما القبيلة التي هي في خدمه، ومنها عظمه تسمى قيات وهي أكثر القبائل شهرة، وأتمها كثرة، وكان اسمه القديم تموجين فلما تؤخذ أمره، وعلا قدره، سمى جنكيزخان.

نبذة من عقيدته وباسته وقاعدته وسيرته

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال صاحب علاء الدين عطا ملك الجويني: الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحداية الله تعالى، وأنه خلق السموات والأرض، وأنه يحيى ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع، وأنه على كل شيء قدير.

قال من جهان كشاي: إن من أولاده من كان بملة عيسى، ومن دان بملة موسى، ومنهم من أخرج الجميع، وكل من اعتقد من بنيه مذهباً لم يكن له تعصب على غيره ومنهم من تقرب بالأصنام، وكان جنكيزخان إذا تهدد أحداً من الملوك أو كاتبه بالتحذير من صولته، قال له: إن أطعت كان لك كذا وكذا من الإعزاز والتقريب، وإن عصيت فالله أعلم بما يكون حالك معنا، قال: ويلمح من هذا القول نوع من التوكل والتفويض.

وأما السياسة وأحوالها كثيرة، فمنها ما يوافق الشريعة المحمدية، قال: وليعلم أن هذا الرجل لم يقف على سيرة ملوك، ولا طالع كتاباً، وجميع ما نسب إليه من ذلك صادر عن قوة ذهنه وحسه، واستدراك الأصلح من قبل نفسه، فإنه استخرج لكل منهم مبهماً، وقعد قاعدة مفردة، ولكل مذهب عقوبة مقدرة، وعين حدوداً، لا إمهال له عندهم، ولا مغير، وأوعز أن يتعلم ذلك صغار أهله،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ويسرى امتثاله عن عقب الرجل منهم، ونسله، بعد أن أثبتها في كتاب سماه الياسا الكبيرة، وأمر أن يوضع في خزائنه، ويتوارثها أقارب عصبته وذريته.

ونسخ ما كان لهم من قديم عوائد مذمومة بتسليكات محمودة مفهومة، فمن ذلك أن من زنى سواء أن كان محصناً أو غير محصن قُتل، ومن لاط قُتل، ومن تعدد الكذب قُتل، ومن سحر قُتل، ومن يتجسس علي قوم قُتل، ومن داخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قُتل، ومن بال من الماء قُتل، ومن أعطى بضاعة وخسر ثم أعطى ثانية وخسر إلى الثالثة قُتل، ومن أطعم أسير قوم أو كساه أو شكاه بغير إذنهم قُتل، ومن وجد هارباً أو أسيراً أو عبداً ولا يرده قُتل. وكانوا يعتمدون في ذبح الحيوان أن تكتف قوائمه ويشق جوفه، ويدخل أحدهم يده إلى قلبه ويهرسه فركاً حتى يموت أو يخرج قلبه، ومن ذبح كذبيحة المسلمين دُبح، ومن وقع جملة أو فرسه وثقله في كر أو فر، ومر عليه من يتلوه بعده، ولم ينزل لمساعدته قُتل، وقيل كانت لهم ياسة قديمة أن من ارتمس في الماء قُتل.

وكان جنكيزخان يعظم رؤساء كل أمة وملة، ويتخذ تعظيمهم، وسيلة إلى الله تعالى.

قال: والمشور من حالهم إسقاط المؤمن والكلف عن العلويين والفقراء والقراء والفقهاء والأطباء وأرباب العلوم على اختلافهم والزهاد حتى عن المؤذنين ومغسلي الموتى.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ومن آدابهم المستعملة وقوانينهم أشياء كثيرة؛ منها أن لا يأكل أحد من يد أحد طعاماً حتى يأكل المطعم منه أولاً، ولو كان المطعم أميراً والمطعم أسيراً، ولا يختص أحد بالأكل وحده دون أن يطعم جميع من وقع نظره عليه ذلك الطعام، ولا يمتاز أمير بالشعب من الزاد دون أصحابه، بل يقسمون الزاد بالسوية، ولا يرمى أحد بالماكول رمياً، وقد قابل مناولة باليد، ولا يخطو أحد موقد نار ولا طبق زاد، ومن اجتاز بقوم يأكلون فله أن يجلس إليهم، ويأكل معهم من غير استئذان، وأن لا يدخل الإنسان يده في الماء بل يأخذ ملء فيه، ويغسل يديه ووجهه، ولا يبول أحد على الرماد، ولا يطأ عتبة الخراه.

قال: وسمعت أنهم كانوا لا يرون غسل الثياب البتة، ولا يميزون بين ما يميزه المسلمون في شيء من طاهر ونجس البتة.

قال: ومن قوانينهم التي ألفت منهم أن لا يتعصبوا لمذهب من المذاهب على مذهب، وأن لا يفخمو الألفاظ والألقاب من كلام بل يتلفظ باسم السلطان كما يسمى غيره، فيقال قد تقدم قان أو خان بكذا وكذا، وأن لا يتعرضوا لمال ميت أصلاً، ولو ترك ملاً الأرض ولا يدخلونه خزانة السلطان.

قال: وأما ترتيب العساكر والقانون المقرر في ذلك، فأعلم أنه لا ينقل في تاريخ قديم ولا حديث أن عسكرياً اجتمع لسلطان كثرة كما اجتمع لهم كثرة عدد وعدد وقوة وصبراً وطاعة لسلطانهم إلا لأجل مشاهرة، ولا توقع مال وجاه بل لمجرد الطاعة حسب، ثم إذا رجعوا من القتال وكرب الحرب إلى السكون، والسلم، أخذ السلطان فيهم القلان والقبحور والأولاق والبدرقة من غير ضجر

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

منهم، ولا تأسف منهم، بل يؤدونه إليه مختارين، ومتى تجهزوا للقتال، عرضوا آلات الحرب وغيرها على أمرائهم حتى تعتبر أمراؤهم الخيط والإبرة، ويؤاخذونهم على تجويد آلة أو تقصير في سلاح. قال: وأغرب من ذلك أن نساءهم تنهض في حال بعدهم وسفرهم بجميع ما يتوجه على رجالهم الغياب من الطلب والسخر السلطانية، ومن ذلك أن كل بنت حسناء تجمع من كل مكان، ويحملن جميعاً في رأس كل سنة إلى السلطان، فيختار منهن ما يصطفيه له ولأولاده، ويرد الباقي. ومن أحسن الترتيبات وضعهم أمراء الألوف والمئات والعشرات فهو أضبط نظام لما يحاولونه، وأسرع إفهام لما يطلبونه. ومن جملة ياسهم أنه إذا كان أمير في غاية القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب، حتى أذنب ذنباً يوجب عقوبة، بعث إليه ولو من أخس أصحابه من يؤذ به بموجب ما يقتضيه ذنبه، ولو كان من ذنبه ما يوجب قتله، ألقى نفسه بين يديه ذليلاً، وأخذته الرسول بموجب جرمه حقيراً كان أو جليلاً.

ومنها أن كل أمير لا يتردد إلي سواه، ولا يتغير عن موضعه فإن فعل ذلك عوقب أو قتل، لا يتردد إلى أحدهم أولاده. ومنها وضعهم البريد بكل مكان، طلباً لحفظ الأموال، وسرعة إيصال الأخبار، ومستجدات الأحوال. وكان لجنكيزخان عادة مستمرة، وإن كانت إلي الآن سارية في الأولاد، وهي وفور الرغبة في الصيد والأمر به والركوب إليه، في كل وقت يتفرغ فيه من القتال، والمنازلة، وربما اشتملت حركته على مسيرة ثلاثة أشهر، يحافظ العسكر على ما تحويه تلك الحلقة، ويضايقون ما بين الخراكي والبيوت بالحبال، ولم يكن غرض السلطان من ذلك مجرد الصيد خاصة، وإنما مراعاة تمرين عساكره، واستمرار أوامره، وإدمانهم على استعمال السلاح، وسفك الدماء، وتغلب القوة القضيبة والمضاهرة على الأرواح. ومن عاداتهم أنه متى خرج من قبل واحد منهم شيء من الصيد أدب بحسب ما تقدم من أمره بل ربما قتلوه، ويسوقون تلك الصيد كسوق الغنم، وتواتر الرسل إلى السلطان بصورة حالها وكثرتها وقلتها، فإذا ضاقت الحلقة، وتراكمت الصيد، مشحونة بغرائب الوحوش، والحيوانات السهلية والجبلية، ودخل هو وأولاده وخواصه، وتفوقوا في القتل والقبض والتفرج، وربما استشرى القان من مكان عال، لينظر فروسية أولاده، وقوة مراسهم، فإذا تخلف من تلك الصيد بعد ذلك شيء، اجتمع ولدانهم وصبيانهم، وشفعوا إلى السلطان في إطلاق ذلك المتخلف. وحكى أن في بعض صيودهم واجتماع ما اجتمع في بعض تلك الحلق لهم من الوحوش، وضائق عليهم المذاهب، وعانيت التلف، فاستقبلت السلطان بوجهها وجاءت إليه بالصياح العالي على هيئة المستعطف المستجير، فيتقدم بفك الحلقة، وإطلاق تلك الوحوش.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

قال صاحب علاء الدين الجويني كان له عدة أولاد ذكور وإناث من الخواتين والسراري وكان أعظم نسائه أوبولجين بيكي، وفي رسم المغول تعظيم الولد بنسبة والدته، فكان له من هذه المذكورة، أربعة أولاد معدين للأمور الخطرة وهم لتخت ملكه بمنزلة أربعة قوائم سدته، وكان أكبرهم توش والد قردوا وباته وبركه وتركجار، فرتب توش على الصيد والقبض لأنه أمر محبوب إليهم موصوف عندهم، ورتب جفتاي الذي هو أصغر منه لتنفيذ الباسات والأرغوا والمقالات وأمثال ذلك، ورتب أوكتاي لما يتعلق بالعقل والرأي والتدبير والولاية والعزل واختيار الرجال واختيار الأعمال وعرض الجيوش وتجهيزها. وحكى أنه قال لأولاده في جملة وصاياه إليهم، وحقه لهم على المؤالفة، وإجراء الأمور على انقياد الصغير للكبير، وضرب لهم أمثالا منها أنه دفع إليهم عدة أسهم مفردة، وأمر بكسر كل واحد منهم، فكسر في أسرع وقت، ثم جمع من تلك الأسهم عدة كثيرة، وأمر كل واحد منهم بكسرها مجتمعة، فعجزوا، قال: كذا حالكم في الوهن متفرقين.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ولما عرضت لهم الممالك، وذلت لهم المسالك، عين لكل منهم إقليمًا بمفرده، ومنزلاً يختص بحشده وعدد، فعين لأخيه أوتكين نوبان حدود بلاد الختا وعين لولده الكبير توشى من حدود قبالق إلى أقصى شفشين وبلغار، وعين لجفتاي من حدود الأويغور إلى سمرقند وبخاري، وجعل لنفسه مقامًا في قياس مجاور أرماليق، وجعل ولده أوكتاي ولي عهده، وكان موضعه في عهد حدود أمل وقراباق، فلما جلس على تخت السلطنة، انتقل إلى الموضع الأصلي بين الختا وبلاد الأويغور، وأعطى ذلك الموضع لولده كبوك وكان ولده تولى متصلاً به، وبالجملة كان موضعه نقطة دائرة ملكه، وبنوه حوله كمحيط الدائرة.

وكان أولاده وأحفاده أزيد من عشرة آلاف، هذا ما ذكره صاحب علاء الدين، وقد سألت شيخنا فريد الدهر شمس الدين الأصفهاني عن بني جنكيزخان فقال: إن جنكيزخان أولد أربعة أولاد وهم جوجى وجداري وتولى واوكتاي فقتل جوجى في حياة أبيه، وكان أكبر أولاده، وأعزهم وخلف أولاداً. قال ابن الحكيم: هو باتو وأورده وبركه وتووك وجمنى.

قال شيخنا شمس الدين: المشهور باتو وبركة ابنا جوجى، فلما قتل أبوهم كان جنكيزخان؛ أبوه، قد عين له دمشق القبجاق، وما معه، وأضاف إليه أراك وتبريز وهمدان ومراغه، وأوصى جنكيزخان بأن يكون تخته لولده الصغير اوكتاي وأن تكون مملكة ما وراء النهر وما معه لولده الآخر جداي ولم يجعل لتولي شيئاً، فاستقل اوكتاي بتخت أبيه جنكيزخان، واستقل بدشت القبجاق وما معه، ولم يتمكن جداي مما له من مملك ما وراء النهر.

ثم مات اوكتاي وارث التخت، وملك بعده ولده كيوك، وكان رجلاً شريراً جباراً متسلطاً قوي النفس، فقوى على بني أبيه، وحكم عليهم حكماً قاهراً، وهم بمعاندة باتو، ونزع يده، وبعث أميراً اسمه الجكداي إلى أران وبقية المضافات معها إلى باتو، وأمره بإمساك نواب باتو بها، وحملهم إليه، وسمع نواب باتو بذلك، فكتبوا إلى باتو بالاستئذان على ما يكون اعتمادهم عليه.

وصل الجكداي المجهز من جهة كبوك، وفي تلك الساعة بعينها، عاد جواب باتو على نوابه بمسك الجكداي، وتقييده، وحمله إليه، فقامت شيعة أولئك النواب المقيدون، ففكوا قيودهم، وأمسكوا الجكداي، وقيدوه وحملوه إلى حضرة باتو،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

فسلقه بالماء، فلما بلغ هذا كيوك مرسله عز عليه، وعظم لديه، وجمع ستمائة ألف فارس، وسار كل واحد منهما لملتقى الآخر وقتاله. فلما تقاربا حتى كان بينهما نحو عشرة أيام مات كيوك، فاضطرب من كان معه، ثم اتفق رأي الخواتين والأمراء على مكاتبة باتو، فكتبوا إليه بإعلامه بموت كيوك، وأنه هو أحق بتخته، فيفعل ما يراه.

فقال باتو: لا حاجة لي به وإنما أبعث إليه بعض أولاد تولي، وعين له منكوقان بن تولي، وجهزه إليه هو وأخوه قبله قان وهولاكو وجهز معهم باتو أخاه بركة في مائة ألف فارس من بهاذرته العسكر ليجلسه على التخت، ثم يعود. فأخذه معه وتوجه به ثم أجلسه، وعاد، فلما مر ببخارى، اجتمع بالشيخ سيف الدين البخارزي من أصحاب شيخ الطريقة نجم الدين كبرى وحسن موقع كلام البخارزي عنده، وأسلم على يده، وتأكدت الصلحة بينه وبين البخارزي، فأشار عليه البخارزي بمكاتبة المستعصم الخليفة ومتابعته ومهاداته، فكتب الخليفة، وبعث إليه هدية، وترددت بينهما الرسل والمكاتبات والتحف والمهاداة. ثم أن منكوقان لما استقل بالتخت ملك أولاد جغتاي مملكة ما وراء النهر، تنفيذاً لما كان جنكيزخان أوصى به لأبيهم جغتاي، ومات دونه. وعلت كلمة منكوقان، وجاءت إليه رسل أهل قزوین وبلاد الجبال يشكون من سوء مجاورة الملاحدة، وضررهم بهم، فجهزهم أخاه هولاكو في جيوش جمعة لقتال الملاحدة، وأخذ قلاعهم، وقطع دابر دولتهم. فحسن هولاكو لأخيه منكوقان أحد ممالك الخليفة وخرج على هذا، فبلغ هذا بركة بن جوجي، فصعب عليه، لما تأكد بينه وبين الخليفة من الصلحة، وقال لأخيه باتو: إننا نحن أقمنا منكوقان، وما جزانا منه أنه يكافئنا بالسوء في أصحابنا، وينقض عهدنا، ويحقر ذمتنا، ويتعرض إلى ممالك الخليفة، وهو صاحبي وبينني وبينه مكاتبات وعقود مودة، وفي هذا ما فيه من القبح. وقبح على أخيه باتو فعل هولاكو، فبعث باتو إلى هولاكو بأنه لا يتعدى مكانه، فجاءه رسالة باتو وهو وراء نهر جيحون ما غيره، فأقام في موضعه بمن معه سنتين كاملتين حتى مات باتو، وتسلبن أخوه بركة بعده، فحينئذ قويت أطماع هولاكو، وبعث إلى أخيه منكوقان يستأذنه في إمضاء ما كان أمره به، من قصد ممالك الخليفة وانتزاعها منه، وحسن له ذلك، فأجابه إليه.

ودخل هولاكو إلى البلاد، وأوقع بالملاحدة واتهم سبعمائة نفر من أكابرهمذان وتلك البلاد المضافة إلى باتو ثم إلى بركة بالميل إلى بركة والمباطنة على هولاكو ومنكوقان، وقتلهم عن آخرهم، وإمتد في البلاد، وقصد دست القبجاق، وعدى إليه، وأقام ثلاثة أيام، لا يجد مقاتلاً، فلما كان في اليوم الرابع دهمتهم الخيل، وداسهم بركة بجنوده وعساكره، ودارت الدائرة على هولاكو حتى هم بالهزيمة، فترك أمير كبير كان معه اسمه سنتاي، وهو المنسوب إليه عقبه سنتاي بالعراق، وأمسيك برأس فرس هولاكو، وقال له: أين تروح؟ ثم استمر القتل في أصحابه فتأخر حتى صار نهر الكر، بينه وبين بركة. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وجاء بركة على نهر الكر، ولم يجد له سبيلاً إلى العبور، ورجع هولاء، وعاش في البلاد، وعام في تيار الفساد، وفعل فعلته، وقويت العداوة بينه وبين بركة قآن وخف حازه من الجيش لمقاومة أعدائه.

ثم لما جرى على بغداد ما أجرى العيون دماً، وأسال النفوس أسفاً، استأثر هولاء بجلال الدين بن الدوادار الخليفة المستعصمي، واتخذ هولاء موضع رأيه، ومكان سره، فلما كسر هولاء، وتضععت رعان جيشه، كما ذكرنا، شكا إلى جلال الدين بن الدوادار ما أصابه من الكسرة وفناء جنوده، فقال له جلال الدين: عندي عسكر جيد خير من هؤلاء، قال: من هم؟ قال: عسكر الخليفة فإن ابن العلقمي قطعهم وإلا فهم أحياء موجودين وأنا أجيبهم إليك، فأعجب هولاء كلامه، ووقع منه موقعاً حسناً، وكتب له يرالغ مضمونها إنا قد جهزنا جلال الدين بن الدوادار في شغل مهم لنا، ورسماً له بما يفعل، ومرسوماً أن يمثل جميع الخواتين والأمراء والنواب والقراولات وكافة الناس أمر جلال الدين المذكور، وأنه مهما شاء فعل، يقتل من يريد، ويخلي من يريد، وأن لا يعارض في أمر من الأمور، ولا يعترض عليه بسبب من الأسباب.

ومن هذا ومثله فتوجه جلال الدين، وحط يده في كل من بقى بحده من أمراء المغل وأكابرهم، والمقربين عند هولاء، وفعل فيهم ما أراد، وفتك فيهم أنواع الفتك، حتى وصل إلى بغداد واستعد فيها لما يريد أن يعمل، وأخذ منها ما أراد ومن أراد، ودخل البرية هارباً من هولاء على عزم الوصول إلى مملكة مصر، فأدركه أجله قبل الوصول إليها.

وبلغ هولاء ما فعله جلال الدين في المغل من الفتك والقتل والتنكيل، ثم ما أخذه من بعده، وخرج به هارباً منه، فانفطرت كبده، ومات غيباً منه.

قال شيخنا شمس الدين الأصفهاني: ومات هولاء ولم يملك ملكاً مستقلاً، وإنما كان نائباً عن أخيه منكوقان ثم كان هكذا أبغاً ومن بعده، إلى أن استقل أرغون بن أبغا بالملك، وأضاف اسمه في السكة إلى اسم صاحب التخت أمير لا يزال مقيم في مملكة إيران مع هولاء وبنيه له عندهم حرمة كبيرة ومكانة محفوظة حتى ملك محمود غازان بن أبغا فكتب اسمه بمفرده على السكة، وأسقط اسم القان صاحب التخت وأهان أمر أميره حتى لم يبق له وضع ولا حرمة وامتهن ذلك الجانب، واستقل بالملك والسلطنة في أولاده.

وقال: أنا ما أخذت البلاد إلا بالسيف، وقام الأمر على هذا مدة محمود غازان ومن بعده.

قال الشيخ: ولهذا ينتقص ملوك بني جنكيزخان بيت هولاء، يقولون أنهم ما نقلوا الملك عن جنكيزخان ولا عن وارث تخت جنكيزخان، وإنما أخذه باليد والعدوات ومطاولة الأيام.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وسأذكر في ترجمة مملكة إيران شبهة أخرى في دعوى ملوك دشت القبجاق أن مراغة وتوريز لهم على ما كان يبلغنا من أخبارهم في كل وقت، ثم ما حدثني به الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكم، وسألت ابن الحكيم والشريف محمد بن حيدرة الشيرازي، عن يعلمانه بقى من أولاد هولاء، فقال كل منهما أنه لم يبق أحد محقق النسب إلا ما قيل عن محمد المنسوب إلى عنبرجي على كثرة اختلاف فيه، ثم جاءت الأخبار وصحت بعدم هذا محمد.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وقال لي نظام الدين بن الحكيم أهل هذا البيت، تفانوا بعضهم على بعض، لخوف القائم منهم علي ملكه، حتى أن كثيراً من أبناء ملوكهم كانوا يتخفون من الملك القائم حتى أن بعضهم كان يخلد إلى الحرف والمهانات لتستسقط همته، فيترك، ويجعل هذا سبيله للخلاص وطلباً للسلامة، حتى أن بعضهم كان قد عمل نساجة، وبعضهم عمل في الأدم وبعضهم باع الشعير علفاً، ومن هذا قال ويقال في أنساب كل منتسب منهم لكثرة التخليط من الأمهات، ومخالط آباؤهم للعوام حتى خفت أنسابهم، فجُهلَت أحوالهم.

وأخبرني الأمير الكبير المقدم نسيب السلطنة طاي رغا أنه أول من استقبل من هذا البيت بسلطان جدهم جنكيزخان، والتلفظ الصحيح جنكص خان بالصاد ثم اوكدية والتلفظ الصحيح به اوكداي ثم كيوك قان ثم مونككا قان (بن طولى بن جنكيزخان) ثم ادي يكا ثم قتلى قان ثم دمرقان ثم برياي ثم تزي طيزى ثم قيسان قان ثم سندمرقان، فأما نسبه إلى جنكيزخان فهو سندمرقان بن طرمالايابن جمكم بن قبلى قان بن طولاي بن جنكيزخان وهذا نسبه.

وأما ملوك الترك وهي تركستان وما وراء النهر وأولهم جغتاي بن جنكيزخان، وقد نبهنا على أنه لم يستقل، ثم (ولده مكتوكان ثم ابنه قرا هولواو ثم ولده مباركشاه ثم أن القان بلغه أن قيدو بن تاشى بن كيوك بن اوكداي ابن جنكيزخان تسلمن لهذه المملكة، فخافه لكوت كيوك عمه، كان وارث التخت عن أبيه اوكداي، وأبوه اكداي كان وارثه عن أبيه جنكيزخان، فسير براق بن بسنطو ابن منكوكان بن جغتاي لدفع قيدو، فدفعه، وتعد مكانه)، ثم استقل براق ثم دوا ولد براق ثم أولاد دوا واحداً بعد واحد وهم كنجك ثم اسنيغا ثم كيك ثم الجكداي ثم دواتمس ثم ترماشيرين رحمه الله ثم رجل ليس هو بابن دوا اسمه توزون بن أو باكان ابن (جنكيزخان) وتخلل من خلال هؤلاء من توثب على الملك، ولم ينتظم لهم حال ولا علت لهم أعلام دولة.

وممن أراد الملك، وعلت كلمته، ولم يملك بيساوون ابن اركتمر بن بغاتمر بن براق، وبقي الملك بعد موت ترماشيرين رحمه الله متخبطاً، حتى قام هذا جنغصوا، فأما نسبه إلى جنكيزخان فهو جنغصو بن دراتمر بن طر بن براق بن بسنطو بن مكتوكان بن جغتاي بن جنكيزخان، (اسمه جداي وهو مصحح لما يقول عارف به).

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وأما ملوك دشت القبجاق، فأول من ملك منهم باتو بن جوجى بن جنكيزخان ثم أخوه بركة.

ثم وجميع ملوك بني جنكيزخان يغلب عليهم الكرم، وتخويل من قصدهم، لا يرضى أحد منهم بالقليل، فأما القان الكبير منهم صاحب الخطا فتلك شيمته لا تسح إلا بالذهب ديمته، ليس هذا من واحد بعينه، بل كل من تسنم منهم ذروة ذلك التخت، كانت هذه سجاياه.

أما ما يحكى في القديم منهم عن منكوقان بن طولى ابن جنكيزخان، فيخشى حاكبه أن ينسب إلى الخرافة حديثه والمجازفة في قوله.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

حكى الشيخ الفاضل شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبو المحاسن الغيبي قال: حدثني عز الدين أبو البقاد الأردوبلي، قال: سمعت بكرم القان منكوتر، فقصدت حضرته متفرجاً بتلك البلاد، ومتوصلاً إليه، ولا زمت بابه مدة، ومالي من يوصلني إليه، ولا إلى أحد من أرباب دولته، فبينما أنا ذات يوم هناك من جملة الناس طلبت على التخصيص، فحملت إلى رجل سريّ بباب منكوترقان، فأمر المترجمان ذلك الرجل فسألني عن اسمي وبلدي ووالي ومقدمي، فشرحت له أمري، فقال: أشرف القان فراك فاستغريك، فأمر بالسؤال عنك، ونحن نعمله، ثم ذهب الرجل (هنيهة)، ثم طلبتني فأحضرت إلى بين يدي منكوترقان وهو في خف من الناس، وبقي يحدث ذلك الرجل، وهو يحدث المترجمان، ويسألني عن أشياء من أمور بلادي، وطريقي وما رأيت، ثم قال: القان يقول لك: ما جاء بك من بلادك البعيدة إلى هنا؟ وأي شيء معك من طرق البلاد تقدمه له؟ فقلت له: ما جاء بي إلا ما سمعت من كرم القان، وليس معي شيء، ولو كان معي شيء ما فارقت أهلي ووطني وجئت، فلما أعادوا عليه كلامي، ضحك خفياً ثم أشار إليهم، أي أنه صدق، وأمر لي بشيء ما فهمته، فلما خرجت قال لي ذلك الرجل المخاطب لي: قد أمر لك القان بما يصل إليك، ثم قال لي: على أي جهة تعود إلى بلادك؟ قلت له: في البحر إلى الحجاز لأحج ثم أعود إلى بلادي، فحمل لي إلى المركب هناك أمتعة، بعثها بعدن، ومكة بألف ألف درهم.

وحكى لي الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم قال: قصد رجل منكوترقان بزجاج من عمل حلب، ووصل إليه، وقدمه له، فشرب في بعض أوانيه، فأعجبه ما شف من جوهر الزجاج عن حمرة الشراب، فقال: هذا من أين؟ فقيل له: من حلب، فقال: يعطني له حلب، فقال بعض وزرائه، وإن حلب ليست لنا قال: فيوقف هذا الرجل ويصب عليه الذهب حتى يغطيه، فقالوا له: نوقفه في خر كان ويصب عليه الذهب، فقال: أنتم غرضكم بهذا أن يموت ولا يكون من فضاء، فعملوا ما قاله، فجاء جُملاً كثيرة عظيمة، فجمعوها، وقالوا له: قد عملنا ما رسم القان، ولكننا نريد أن يقع نظر القان عليه قبل أن يأخذه فقال: هاتوه، فلما راه قال: أنتم ما قصدكم إلا أني أبصر هذا فاستكثره، أعطوه هذا وقدره معه مرة أخرى فأعطوه.

وحكى أيضاً أن فراشاً كان يخدم تولي بن جنكيزخان أبا منكوتر، ثم خدم منكوترقان بعده، ثم عُدم، وتطلبه منكوتر فلم يجده، فبينما هو يوماً في الصيد رأس الفراش في بعض الجبال، وقد ساءت حاله، وطال شعره وظفره، فقال له: أين كنت؟ فقال: في هذه البرية، فقال: ما حملك على هذا؟ قال: القسمة قال: لا قل لي الصحيح، فقال: هو ما أقول للسكان، فقال له منكوتر: لا حملك على هذا إلا العشق، فأطرق، فقال له منكوتر: فلمن أنت عاشق، فسكت، فعلم منكوتر أنه عاشق في أحد من جهته، فقال له: كأنك عاشق فلانة لا، إلا فلانة لا إلا فلانة، يعد عليه واحدة بعد واحدة من خواتينه وأتباعهن، وهو يقول: لا إلى أن ذكر واحدة من أجل حظاياه، فسكت الفراش،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

فقال منكوتمر: أنت عاشق في هذه بلا شك، ثم أنه طلبها، وقال لها: فلان له علي أبي حق وعليّ، وهو عاشق فيك، وماله في هذا ذنب، ولا لك هذا شيء يتعلق بقلبه، ما له فيه حيلة، وأريد أزوجك به، فبكت وقالت: يا قان بعدك أتزوج بهذا، فقال: سوف تبصرين ما أعمل، ثم أنه عمل طوداً، وسأل الأمراء أن ينصب للفراش كرسيّاً فوقهم، وأجلسه فوق الجميع، فقالوا له: الأمر أمر القان، فنصب له كرسيّاً فوقهم، وأجلسه عليه، وزوجّه بتلك الحظية، وعمل له يرتاً عظيماً لا يصلح إلا للتوأمين الكبار، وأجراه مجرى واحد منهم. قلت: ومن تأمل هذه الحكاية عرف سعة إحسان هذا الرجل وكرمه، فإنه أخذ غلاماً لا يؤبه إليه، جعله ملكاً، وسمح له بما لا يسمح بمثله من المال والجاه والمحسوب.

الفصل الثاني

من

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

الباب الثاني

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

في مملكة القان الكبير

صاحب التخت، وهو صاحب الصين والخطا، قد ذكرنا في صدر الفصل الأول أن القان الكبير هو القائم مقام جنكيزخان والجالس على تخته، وهو أجل ملوك توران، التي من مملكة الترك من قديم الدهور والآباد، وبها أو بما جاورها أو قاربها كان أفراسياب، غير أنه خرج عن هذا القان ما هو الآن لأبني عمه؛ الذين تقدم ذكرهما، وإلى هذا القان إشارة الثلاثة أبناء عمه وهو كالخليفة عليهم، فإذا تجدد من مملكة أحد منهم مهم كبير مثل لقاء عسكر أو قتل أمير كبير بذنب أوصله إليه اليسق أي الحكم أو ما يناسب هذا، أرسل إليه وأعلمه، ولا افتقار إلى استئذانه ولكنها عادة مرعية.

قال الفاضل نظام الدين ابن الحكيم الكاتب البوسعيدي: أن هذا القان ما يزال يكتب إلى كل من القانات الثلاثة، يأمرهم بالاتحاد والألفة، وأنه إذا كتب إليهم بدأ باسمه قبلهم، وكلهم مدعون له بالتقدم عليهم.

وحدثني بكثير مما عليه صاحب هذه المملكة، وأنهم على ما هم عليه من الجاهلية؛ على السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكته، ومن يرد إليها من الجافهم، بجناح العدل والإحسان، ومعاملتهم بقشور من لحاء شجر التوت، مطبوعاً باسمه، فإذا عتق ذلك المتعاطى به، حمله إلى ثواب هذا القان، وأخذ عوضه مع خسارة لطيفة، كما يؤخذ من دار الضرب على ما يؤخذ إليها من الذهب والفضة، ليضرب بها.

وأهل مملكته هم أهل الأعمال اللطيفة والصنائع البديعة التي سلمت إليهم فيها الأمم، وقد ملئت الكتب عن أحوالهم بما أغنانا عن ذكره.

ومن عادة المجيدين في الصنائع أنهم إذا عملوا عملاً بديعاً، حملوه إلى باب الملك، وعلق به ليراه الناس، وتبقى سنة كاملة، فإن سلم من عائب، أسدى إلى صانعه صنائع الإحسان، وإن عيب عليه، وتوجه العيب، وضع قدر الصانع، وإن لم يتوجه العيب، قوبل من عاب عيباً غير متوجه قصد الأذية.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ومما حُكى في هذا أن صانعاً منهم صور في نقوش الثياب الكمخاء عصفوراً على سنبله حتى مثله كأنه حقيقة، فلما علقه حيث يعلق مثله، استحسنته كل من رآه، حتى مر به رجل، فعابه، فسئل لأي شيء عنته؟ فقال: لأن العصفور إذا قعد على سنبله أمالها، وهذه مستقيمة ما هي مائلة، فاستحسن قوله، ووضع قدر الصانع.

هذا مما يحكى عنهم، وأما ما يحكى لي عن المشاهدة والعيان، فحكى لي الصدر بدر الدين حسن الأسعردى التاجر، أن بعض صنائعهم عمل سرجاً من أختاء البقر ودهنه، وأبدع صناعته، ثم قدمه إلى القان، فأعجبه، ووقع منه موقع الاستحسان، ولم يشك أنه معمول من خشب مثل بقية السروج، فقال له صانعه: أما علمتم هذا مما خشبه؟ فقالوا: لا، فأوقفهم على أنه من أختاء البقر، فاستحسنوا جودة صناعته، ولطف تدقيقه.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وحكى لي أن بعض صنائعهم عمل ثياباً من الورق، وباعها من التجار على أنها من الكمخاوات الخطائية، لا يشك فيها أحد، ثم أنه لما جاز هذا عليهم، أطلعهم على حقيقة حالها، فعجبوا لهذا.

قال بدر الدين حسن: ولقد رأيت منهم من هذه الأعمال ما تحار فيه العقول، وتذهل الأفكار، وأما ما حدثني به السيد الشريف تاج الدين حسن بن الجلال السمرقندي، وهو ممن جال في الأرض، وجال في الآفاق وهو من الثقات، وقد دخل الصين، وجاز بلاده، وجاب آفاقه، وجاس خلاله، وجال في أقطاره، قال: إن قاعدة الملك به مدينة خان بالق، وهي مدينتان قديمة وجديدة، والجديدة بناها ديدو أحد ملوكها، سميت باسمه ديدوا، وفي وسط مدينة ديدوا المذكورة منزل القان الكبير، وهو قصر عظيم يسمى كوك طاق ومعناه في اللغة المغولية «القصر الأخضر» لأن القصر عندهم «طاق» والأخضر «كوك» وهي خلاف اللغة التركية، فإن كوك فيها هو الأزرق.

ونزول الأمراء حوله خارج قصره، قال: وأما ترتيب هذه المملكة فإن لهذا القان أميرين كبيرين هم الوزراء ويسمى كل من يكون في هذه الرتبة جنكصان، ودونهما أميران آخران يسمى كل من يكون في هذه الرتبة بنجار ودونهما أميران آخران يسمى كل من يكون في هذه الرتبة سمجين، ودونهما أميران آخران يسمى كل من يكون في هذه الرتبة كنجون وهو بمنزلة كاتب السر. ويجلس القان كل يوم في صدر دار فسيحة تسمى شن هي عندهم من دار العدل عندنا، ويقف حوله الأمراء المذكورون عن اليمين وعن الشمال على مقادير الرتب، ورأس الكتاب المسمى لنجون في آخرهم، فإذا شكى أحد شكوى أو سأل حاجة المذكور، فيقف عليها (هو ومن معه في الرتبة)، ثم يوصلانها إلى من يليهما في الرتبة، وكذا إلى أن تصل إلى القان، ويأمر فيها بما يراه مع العدل التام، والإنصاف المفرط.

قال: وهذا القان الكبير، ذو ملك كبير، وعسكر مديد، قال: والذي أعلم من أمره أن له بزداراً 2 تركب الخيل، وعساكره من المغل عشرون توماتاً وهي مائتا ألف فارس، وأما من الخطا فما لا يحصى.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

قال: وبلاد الصين تشتمل على ألف مدينة، ورث كثيراً منها، والطريق إلى سمرقند إلى خان بالق على ما يذكر من سمرقند إلى نيلي عشرون يوماً، ونيلي هي أربعة مدن، بين كل مدينة والأخرى فرسخ واحد، ولكل واحدة منها اسم يخصها، فالواحدة نيلي والأخرى نيلي بالق، والأخرى لنجك والأخرى تلان، ومن مدينة نيلي المذكورة إلى المالك عشرون يوماً، ومن المالك إلى قراجواجا إلى قمحو هي أول بلاد الخطا، أربعون يوماً، ومن قمحو إلى خان بالق أربعون يوماً، ثم من خان بالق إلى الخنسا طريقان؛ طريق في البر، وطريق في البحر، وفي كل منهما من خان بالق إلى الخنساء أربعون يوماً، وطول الخنساء يوم كامل، وعرضها نصف يوم، وفي وسطها سوق واحد ممتد من أولها إلى آخرها، وكل شوارعها وأسواقها مبلطة بالبلاط، وبنائها خمس طبقات، بعضها فوق بعض، وكلها مبنية بالأخشاب والمسامير، وشرب أهلها من الآبار، وأهلها في قشع عيش، وغالب أكلهم لحوم الجواميس والأوز والدجاج، والأرز والموز وقصب السكر والليمون، وقليل رمان وهي شبيهة بمزاج مصر في حرها وهوائها، وأسعارها متوسطة، ويجلب إليها الغنم والقمح، ولكنه قليل، ولا يوجد بها من الخيل إلا ما قل عند الأعيان الأكابر، وأما الجمال فلا يوجد بها شيء منها البتة، فإن دخل إليها جمل عجبوا منه.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال الشريف هلال الدين حسن السمرقندي: وأما مدينة خان بالق، فمدينة طيبة وافرة الأقوات، رعية الأسعار، ويجمد بها الماء في زمن الشتاء، ويسيل إلى الصيف، فيبرد به الماء، ويشق أحد المدينتين منها، وهي مدينة ديدوانهر، وبها أنواع الفواكه إلا العنب، فإنه قليل، وليس بها تاريخ ولا ليمون ولا زيتون، ويعمل بها السكر والنبات مما يحمل إلينا من مدينة الزيتون، وأما ما بها من الزروع والدواب الجمال والخيول والأبقار والأغنام، فما لا يدخل في الإحصاء.

قال: وبين خان بالق ومدينة الزيتون شهر واحد تقديراً، ومدينة الزيتون بندر على البحر المحيط، وهي آخر الغمارة.

قال: وأما مدينة قراقرم فإنها مدينة جليلة، فيها غالب عساكر القان العظيم، ويعمل بها القماش المليح الفاخر والصنائع الفائقة، وغالب ما يحتاج القان إليه يستدعى منها، لأنها دار استعمال، وأهلها أهل صناعات فائقة وأعمال.

قال الشريف حسن السمرقندي: وبلاد الصين كلها عمارة متصلة من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية، ومعاملتهم بورق التوت، ومنها كبار ومنها صغار، فمنها ما يقوم في المعاملة مقام الدرهم الواحد، ومنها ما يقوم مقام درهمين، ومنها ما يقوم مقام خمسة درهم وأكثر إلى ثلاثين وأربعين وخمسين ومائة، وهو يؤخذ من لحاء شجر التوت اللين، ويختتم باسم القان، وتجري به المعاملات، (فإذا عتق)، واضمحل، حُمِلَ إلى الخزانة، وأعطى عوضه مع غرم قليل.

قال لي الشريف السمرقندي: ومن عجائب ما رأيت في مملكة هذا القان الكبير، أنه رجل كافر، وفي رعاياه من المسلمين أمم كثيرة، وهم عنده مكرمون محترمون، ومتى قتل أحد من الكفار مسلماً، قُتِلَ الكافر القاتل، هو وأهل بيته، وتنهب أموالهم، وإن قتل مسلم كافراً، لا يقتل وإنما يطلب بالدية، ودية الكافر عندهم حمار، لا يطلب غير ذلك.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وسألته عن أهل الصين، وما يحكى عنهم من رزاة العقل، وإتقان الأعمال، فقال: هم أكثر مما يقال، وكنا جماعة بحضرة سيدنا وشيخنا مزبد الدهر وارث العلم والحكمة شمس الدين أبي التثاء محمود الأصفهاني فقال الشريف السمرقندي: أنا أحكي لكم ما جرى لي: كنت أشكو ضرساً في فمي، فرآني بعض من كنت ألفت به في بلاد الصين، وأنا أتألم لشدة الضربان، فسألني عما بي، فشكوت إليه وجع ضرس، فاستدعى شخصاً خطاباً قصير القامة، فقال له: أبصر حال هذا المسكين، فنظر في فمي وبقي يقلب أضراس بيده هنيهة، ثم أخرج ضرس الواحد ونصف الآخر، ولم أشعر لهما بألم، ثم أخرج من خريطة له، كانت معه أضراساً كانت كوامل وأنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً معدة عنده لوضعها في مواضع ما يقلع، ثم لم يزل يقيس مواضع ما قلع لي حتى وضع موضعها من تلك الأضراس، ثم ذر عليها ذروراً، ودهنها بدهن، التأمت به لوقيتها، وأمرني أن لا أشرب عليها الماء يومي كله، ففعلت كاني ما قلعت شيئاً، وأراني أضراسه، فوجدناها كأحسن ما يكون فلا أن المستجدين ظاهر عليها أنه ليسوا من نوع البقية والضرس المشعوب، يظهر أن نصف الشعب من غير النصف الأول. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

الفصل الثالث

في التورانيينوهم فرقتان
الفرقة الأولى: فيما وراء النهر، الفرقة الثانية: في خوارزم والقبجاق.
الفرقة الأولى فيما وراء النهر وما قبلها وما بعدها من ممالك تركستان، هي من أجل الممالك، وأشهرها، والنهر المشتهر لهم هو جيحون، وهو النهر الذي ينبع من ونج حتى يصب في بحيرة خوارزم وهي ممالك طائفة السمعة، طائفة البقعة، أسيرة ملوك وأفق علماء ودارة أكابر، ومقعد ألوية وبنود ومجرى سوابق وجنود، كانت بها سلطنة الخانية وآل سامان وبنو سبكتكين والغورية ومن أفقها بزغت شمس آل سلجوق وامتدت في الإشراق والشروق، وغير هذه الدول مما طم سيول هذه الممالك على قريها.

فأما قبل انتقالها إلى الإسلام فكانت في ملوك الترك لا تروم، ولا ترام، ولا تشق لها سهام، خيم بها الإسلام، وجازت ملكها هذه الأمة، برقت بالإيمان أسرتها، وتطرزت بالجوامع والمساجد قراها، ثم بنيت بها المدارس والخوانق والربط والزوايا، وأجرى الوقف عليها، وكثر من العلماء أهلها، وسارت لهم التصانيف المشهورة في الفقه والحديث والأصول والخلاف، وكان منهم الرؤساء والأعيان والأعلام والكبراء أهل البحث والنظر، ولبخاري من هذه المزايا الفاضلة أوفر الأقسام، ولم يُعَدِّ علم الفقه هذه الأفاق مشرقاً، ولم يعد علم هذه الأرض محققاً، وما يقال في مملكة من بلادها بخاري وسمرقند، وترمد، وخجند والمالق وغزنة وأخوات هذه الأمهات، وأخبارها مشهورة، وأثارها مشهودة، ومن نظر من كتب التواريخ رأى مثل عين المتوشم من أحوال هذه البلاد، ومن فيها، وهي وافقة في (الرابع ونادر منه في الثالث أو تمايل إلى الخامس، ولا يكاد يبلغه) من أوسط المعمورة، وأوسع الأرض إذا قيل أنها أخصب بلاد الله، وأكثر ماءً ومرعى، لم نجد القائل الحق في أوصافها ذات الأنهار السارحة والمروج الممتدة، كأنما نُشرت الحلل على آفاقها، أو كسرت الحلى على حصائها، وهذه المملكة طولها من ماء السند إلى ماء ايل المسمى قراخوجا وهو يلي بر الخطا، وعرضها من ونج، وهو منبع ماء جيحون

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

إلى حدود كركانج ما عدة خوارزم، وحدها من الجنوب جبال البتم، وماء السند الفاصل بينها وبين السند، ومن الشرق أوائل بلاد الخطا على خيلام وكلسكان وما هو على سمت ذلك من الشمال مراعي بارات وكجند وبعض خراسان إلى بحيرة خوارزم، ومن الغرب بعض خراسان إلى خوارزم إلى مجرى النهر أخذاً إلى الختل.

ومن بلاد هذه المملكة فرغانة والشاش واستيجاب وأسر وشفه (آه) وبلاد الختل، وفيها طرف من السند من غزنة إلى جنوبها وأقاليم هذه المملكة واقعة فيها على ما يذكر، وبلاد الختل أخذة على جانب جبال اليتم مغرباً بشمال، ويليها الصعورانات في الشمال، ثم تزيد إلى ما يتاخم خوارزم وبلاد فرغانة، أخذة على جانب جبال اليتم شرقاً بشمال ويليها بلاد السابون في الشمال ثم الشاش وأعمالها إلى حائط عبد الله بن حميد المعروف بحائط القلاص في خارجه بلاد استيجاب في الشمال بشرق.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وبلاد الغزنة ممتدة في نهاية الشمال من أطراف بحيرة خوارزم في الغرب إلى بلاد استيجاب في الشرق ومراعي باران، وخجند داخل بلاد الغزنة، بينها وبين حائط القلاص، وبلاد أشروسنة في الوسط على نهاية الأنهار النازلة من جبال اليتم من جهة المشرق.

وأما أكبر مدتها المشهورة وهي القواعد العظام والأمهات الكبار، فأقليم غزنة وإقليم ما وراء النهر وهو نجاري وسمرقند وخجند وترمد، وإقليم الشاش وهو الشاش. ومغلاق، وإقليم فرغانة، وهو بدغنيان ورباط سرهنگ وايدكان وأوش وإقليم تركستان شهر كند وجند وفارجند ووأطرار. وشبرم وچكل وجاص كن وبرساكن وامزدابان ونيلي وكنجك وطران، وهو المسمى بلاس، ونيكي كن وسيكول والمالق وبيش مالق وحبوك وقرشي وختن وكاشغر وبدخشان ودراوران. ودرّه وبلاصاغون، كل واحدة ذات مدن وأعمال ورسائق وقرى وضياح، ماوى الأتراك، وغيل أسودهم وجو عقباتهم. وقرشي قاعدة الملك بها الآن وهي علي نهر قراخوجا في نهاية الحد، ثم بخاري ثم سمرقند ثم غزنة وإن كانت بخاري مما لا تسير إليها ركبهم ولا ترسى عليها خيامهم، ولكن لعظمة مكانها، وسالف سلطاتها، وسيأتي ذكر هذه القواعد في مواضعها.

ولم يسلم ملوك هذه المملكة إلا من عهد قريب فيما بعد خمس وعشرين وسبعمائة، أول من أسلم منهم ترماشيرين رحمه الله، وأخلص الله وأيد الإسلام، وقام به أشد القيام وأمر به أمراءه وعساكره فمنهم من كان قد سبق إسلامه، ومنهم من أجاب داعيه، وأسلم، وفشا فيهم الإسلام، وعلا عليهم لوائه، حتى لم تمض عشرة أعوام حتى اشتمل فيها بملأته الخاص والعام، وأعان على هذا ما في تلك الممالك من الأئمة العلماء والمشايخ الأتقياء، فاعتنموا من الترك فرصة الإذعان، فعاجلوهم بدعوة الإيمان، وهم الآن على ما اشتهر عندنا، واستفاض، أحرص الناس على دين، وأوقفهم عن الشبهات بين الحلال والحرام، وعساكرهم هم أهل النجدة والبأس، لا يجحد هذا من طوائف

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

الترك جاحد، ولا يخالف فيه مخالف.
حدثني خواجه مجد الدين إسماعيل السلامي قال: إذا قيل في بيت هولوكو أن العساكر قد تحركت من باب الحديد يعني من بلاد خوارزم، والقبحاق لا يحمل أحد منهم لم هما، فإذا قيل أن العساكر تحركت من خراسان يعني من جهة هؤلاء السقط، لأن هؤلاء أقوى ناصراً، وأولئك أكثر عدداً، لأنه يقال أن واحداً من هؤلاء بمائة من أولئك.
وقال: ولهذا خراسان عندهم ثغر عظيم لا يهمل سداً، ولا يزال فيه من يستحق ميراث التخت أو من يقوم مقامه لما وقر لهؤلاء في صدورهم من مهابة لا يقلقل طودها، فإنهم طال ما يلوهم في الحروب، وابتلوا بهم فيها.

وحدثني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم ما معناه أن بلاد هؤلاء متصلة بخراسان متداخلة بعضها ببعض، لا يفصل بينهما بحر ولا نهر ولا جبل ولا شيء مما يمنع أهل هذه البلاد عن قصد خراسان، وبينها وبين خراسان أنهار جارية ومراع متصلة، فإذا أرادوا خراسان تنقلوا في المرعى واستدروا استدرجاً لا يبين ولا يظهر أنه لقصد بلاد بل للتوسع في المرعى، فلا يشعر بهم إلا وهم بخراسان، حتى إذا صاروا فيها، جاسوا بها خلال الديار، وعاثوا فيها عيث الذئاب، وهم مع سيرهم المجد من بلادهم إلى خراسان لا مشقة عليهم ولا على دوابهم، لأنهم من ماء إلى ماء، ومن مرعى إلى مرعى.
قال ابن الحكيم: ولهذا يخاف ملوكنا عادية هؤلاء لأنهم لا يعلمون بهم إلا وهم معهم.

قلت: ومن هذه البلاد نجم الدولة السلجوقية في عهد السلطان مسعود السبكتكين، ما بزغ كوكبهم ثم استعلى نيرهم ونيع معيتهم، ثم فاضت أبحرهم، وكان الاحتجاج بالتنقل في المرعى هو السبب لجر الملك إليهم حتى اشتهر من أعلامهم، وانتشرت أيامهم على ما هو مرقوم في صدر السير وصفحات التواريخ.

ولم يزل لأهل هذه (المملكتين) (قديمة) وكان سكان الهند لا يلزمون مقاومتهم، ولا يتقون إلا بصدور الأفيال مصادمتهم، حتى علت والحمد لله بالهند دولة الإسلام، وزادت اليوم بلسطانها القائم علواً، وتناهت غلواً، فنامت عيون أهل هذه البلاد لهيبة ذلك السلطان لعدم هجوده، وسكنت ثعالبهم المخاتلة بزئير أسوده، ولقد كان أهل هذه المملكة لا تزال تجوس أطراف الهند خيولهم، وتحتجف به الأموال والأولاد سيوفهم، حتى نشأ بالهند سلطانه الآن، وشمر للحرب ذيله، وجاهد الأعداء في كل قطر، واختلفت كلمة أهل هذه البلاد على ملوكها، فانكفوا لبأس ذلك السلطان، واختلاف ذات البين، وكان ملوك هذه المملكة من أولاد جنكيزخان، وأتباعهم من المحافظين على ياسة جنكيزخان، والتعبيدات المعهودة. من أهل هذا البيت من تعظيم الشمس، والميل إلى آراء البخشية، تابعين لما وجدوا عليه آباءهم، يعضون عليه بالنواجذ، مثل تمسك القان الكبير، ومن إلى مملكته بها، بخلاف الفخزين الآخرين ببلاد خوارزم والقبحاق، وأهل مملكة إيران، وإن كان الملوك الأربعة من أولاد جنكيزخان،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ومن تبعته تبعوا، ومن أفقه طلّعوا، لكن بهذه المملكة والخطا، أشد بياسته تمسكا، ولطريقته إتباعاً، وهما مع هذا أعدل بني أبيهما حكماً وأنشرهما له في بلادهما ورعاياهما.

وقد قدمنا التنبيه على أن رعايا هذه المملكة وقرارية أهلها من قدما الإسلام السابقين إليه، وكانوا مع كفر ملوكهم في جانب ألا تزان، لا تتطرف إليهم أذيه في دين ولا حال ولا مال، فلما آل الملك إلي ترماشيرين كما ذكرنا، دان بالإسلام، وأظهره في بلاده، ونشر في خانقى ملكه، واتبع الأحكام الشرعية، واقتدى بها، وأكرم التجار الواردين عليه من كل صوب، وكانت قبله الطرقات لا تفتح لتجار مصر والشام إليها، ولا يهتم مضطرب في الأرض منهم بالمرور عليها، فلما ملك ترماشيرين، كثر قصد التجار له، وعادوا شاكرين منه، حتى صارت بلاده لهم طريقاً قاصداً، ومنهجاً مسلوكة.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

حدثني الصدر بدر الدين حسن الأسعدي التاجر بما كان ترماشيرين يعامل به التجار والواردين عليه من الإكرام ومزبد الإحسان، وأخذ قلوبهم بكل إمكان. قال صاحب كتاب صفة أشكال الأرض ومقدارها، ما وراء النهر من أحصب الأقاليم منزلة، وأنزهها، وأكثرها خيراً، وأهلها يرجعون إلى رغبة في الخير، واستجابة لمن دعاهم إليه مع قلة غائله، وسلامة ناحية وسماحة بما ملك أيديهم، مع شدة شوكه ومنعة وبأس ونجدة وعدة وعدة وآلة وكراع وبسالة وعلم وصلاح.

فأما الخصب فليس من إقليم ألا يقحط أهله مراراً قبل أن يقحط ما وراء النهر من واحدة ثم أن أحسوا ببرد أو بجراد أو بأفة تأتي على زروعهم وغلاتهم، ففي فصل ما يسلم في عروض بلادهم، ما يقوم بأودهم حتى يستغنوا به عن شيء، ينقل إليهم من غير بلادهم، وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مدن أو قرى أو مراعى لسوائهم، وليس بشيء لا بد للفاس إلا وعندهم منه ما يقيم به أودهم، ويفضل عنهم لغيرهم.

فأما طعامهم في السعة والكثرة فعلى ما ذكرناه، وأما مياههم فإنها أعذب المياه وأبردها وأخفها، قد عمت جبالها وضواحيها ومدنها إلى التمكن من الجمد في جميع أقطارها، والثلوج من جميع نواحيها، وأما الدواب ففيها من التناج ما فيه كفايتهم، ولهم من نتاج الغنم الكثير، والسائمة المفرطة، وكذلك الملبوس فإن لهم من الصوف والقز وطرائف البز، وبلادهم من المعادن وخصوصاً الزئبق الذي لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدن، وأما فواكههم فإنك إذا توطنت السفد وأسروشنه وفرغانة والشاس، رأيت في فواكههم ما يزيد على سائر الآفاق، حتى ترعاها دوابهم، ويجلب إليها من محاسن الأشياء، وطرف البلاد ما يتنافس الملوك فيه.

وأما سماحتهم فإن الناس في ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة، ما ينزل أحد بأحد إلا كأنه رجل دخل دار نفسه، لا يجد المضيف من طارق يطرقه كراهية، بل يستفرغ جهده في إقامة أوده، من غير معرفة تقدمت، ولا توقع لمكافأة بل اعتقاد السماحة بأموالهم، وهم في كل أمرىء على قدره فيما ملكت يده،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وحسبك أنك لا ترى صاحب ضيعة يستقل بمؤنته إلا كانت همته اقتناء قصر فسيح، ومنزل للأضياف، فتراه نهاره في إعداد ما يصلح لمن يطرقه، وهو متشوق إلى وارد عليه ليكرمه، فإذا حل بأهل ناحية طارق، تنافسوا فيه، وهم فيما بينهم يتبارون في مثل هذا الشأن، حتى يجحف بأموالهم، كما يتبارى سائر الناس في الجمع والمكاثرة والمال.

قال: ولقد شهدت آثار منزل بالصفد، قد ضربت الأوتاد على باب داره بخيول الضيفان، أن ما بها مكث لا يغلق ما يزيد على مائة سنة، لا يمنع من نزولها طارق، وربما نزل به ليلاً على بغة المائة والمائتان والأكثر من الناس بدواهم وحشهم، فيجدون من طعامهم ودثارهم وعلف دوابهم ما يكفيهم، من غير أن يتكلف صاحب المنزل أمراً بذلك، أو يتجشم عبثاً، لدوامه مع البشاشة بأضيافه لعلم سروره بهم كل من شاهده.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
قال: وترى الغالب على أهل المال والثروة صرف أموالهم على خاصة أنفسهم في الملاهي، وما لا يرضى الله تعالى، والمنافسات فيما بينهم، والغالب على أهل الثروة والمال في ما وراء النهر صرف أموالهم في عمل المدارس وبناء الرباطات وعمارة الطرق والأوقاف على سبيل الجهاد ووجوه الخير وعقد القناطر إلا القليل من ذوي البطالة، وليس من بلد ولا سبيل مطروق ولا قرية أهلة إلا وفيها من الرباطات ما يفضل عن ينزل به.
قال: وبلغني أن بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط في كثير منها، إذا نزل النازل أطعم وعلق على دابته.
قال: وقل ما رأيت خاناً أو طرف سكة أو محلة أو مجمع ناس بسمرقند في المدينة وظهرها إلا وبه ماء مُسبل بجمد.

قال: وحدثني من له خبرة أن بسمرقند وظواهرها ما يزيد على ألفي مكان يسقى فيها ماء الجمد مسبل عليه الوقوف، من بين سقاية مبنية وجباب نحاس منصوبة وقلال خرف مثبتة في الحيطان.
وأما بأسهم فمشهور مستفيض، وفي بعض الأخبار أن المعتصم سأل عبد الله، أو كتب إليه يسأله عن من يمكنه حشده من خراسان وما وراء النهر، فأنفذ إلى نوح ابن أسد بن سامان فكتب إليه أن ثم ثلاثمائة ألف قرية، إذا خرج من كل قرية فارس وراجل لم يتبن أهلها فقدهم.
قلت: ولقد حدثني الصدر مجد الملك يوسف بن زاذان البخاري أنه يوجد عند آحاد العامة من عشرين دابة إلى خمسمائة دابة، لا كلفة عليه في اقتنائها لكثرة الماء والمرعى.
قال: وهم أهل طاعة لسلطينهم، وانقياد لأمرائهم حتى أن المتولى لأموارهم يتصرف في أموالهم وأموارهم وسائر أحوالهم تصرف المالك في ملكه، والمستحق في حقه، متبسطاً في ذلك، ماداً يده لا هو يتحشى، ولا صاحب المال وال الحال يتشكى، كلاهما طيب القلب، قدير العين، راض بصاحبه.
وحدثني الشريف السمرقندي أن أهل هذه البلاد في الغالب، لهم بواعث هم على طلب العلم، والمظاهرة على الحق والمضاهاة في الخلال الحميدة، إلا من قل وقليل ما هم.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وقد ذكر علي بن مشرف في كتاب ألفه باسم الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ذكر فيه ما وراء النهر فقال: وهي في الدنيا أنموذج الجنة في الآخرة، لا يحمل المسافر فيها ماءً ولا زاداً، ولا يحتاج رفيقاً، ولا يستشكل طريقاً مكان فاتك وناسك، ورد إليها قفل تجار مات منهم واحد، له بضائع جليلة، وأموال كثر، ولم يكن ثم له وارث، فاحتاط نواب الديوان على ماله، وبلغ هذا سلطان الناحية، فانكر غاية الإنكار، فقال: مالنا نحن ولأموال التجار، ومعه رفاق هم أعلم بحاله، فإن كان له وارث بلغوه أمانتهم من ميراثهم، وإلا فهم أحق برفيقهم، وأولى بماله، ثم طلب التجار، وأمرهم بتسليمه، فامتنعوا، وقالوا: هذا رجل لا وارث له منا، ولا في بلده، ولا نعرف له وارثاً بالجملة، ولا نعلم (من) يرثه إلا بيت المال، وتجارته تقارب ثمانمائة ألف درهم، وقد مات منا، وأنتم أحق به، فغضب، وقال: لا والله نحن ما نأخذ إلا ميراث من مات من بلادنا، ولا وارث له، وأما هذا فملك بلاده، وأحق بميراثه، خذوا المال، فاحملوه إليه، قال: فأخذوه معهم إلى توريز، وأعطوه لصاحبها، لأن الرجل كان منها. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ورأيت في كتاب آخر سماه مؤلفه تفضيل الرحلة ألفه لبدر الدين لؤلؤ أيضاً، ولم يسم مؤلفه نفسه، قال: ، وعبرنا في طريقنا إلى خان بالق ببلاد كثيرة، أجلها ما وراء النهر، وهي مما تنفذ العبارة دونها ما شئت من حسن وإحسان وحوار وولدان وفاكهة صنوان وغير صنوان وماء — كما قال — عن برد إحسان ملك كبير، وخير كثير، وأقوام لهم يلذ العيش ويليق عند ثباتهم الطيش، قوم كرام لا يخف لهم أطواد أحلام، ومن بلادهم معادن أشرفها الرجال، ومنها اللعل الأحمر واللازورد الأزرق، وما هو من هذه الأمثال.

قلت: وبالغ في وصفها وهي كذلك، وأما ما أشار إليه من المعادن فيها فهو بدخشان، وهي مع مملكة ما وراء النهر، وليس حقيقة منه، ولا من تركستان، بل هو إقليم قائم بذاته معدود للمحاورة مع أخواته، قد حوى كل بديع من حيواته، ومعدته، ونباته.

قلت: وبلغني ممن أثق به منهم أن من يسبق ملوكهم أنه إذا راح من عساكرهم ألف فارس إلى مكان وقتل منهم تسعمائة تسعة وتسعون فارساً، وسلم ذلك الفارس الواحد، قتل ذلك الواحد لكونه لم يُقتل مع البقية، اللهم إلا أن حصل النصر لمن سلم.

وملوك هذه المملكة من بني جنكيزخان، وقد قدمنا القول أن أحوال بني جنكيزخان متقاربة في ممالكهم، لمشبههم على ياسة جنكيزخان، ولا تكاد تمتاز أهل مملكة من ممالكهم عن الآخرين إلا فيما قل.

ومعاملة ممالك قسمي إيران هؤلاء، وأهل خوارزم، والقبجاق ومعظم إيران بالدينار الرائج وهو ستة دراهم، وفي بعض هذه بالخراساني وهو أربعة دراهم، ودرهم أهل هذه المملكة خاصة من فصة خالصة غير مغشوشة، فهي وإن قل وزنها عن الدرهم معاملة مصر والشام فإنها تجوز مثل جوازها لخلوص هذه الدراهم وغش تلك، لأن ثم أن تلك الدراهم نوعان؛ درهم بثمانية فلوس ودرهم بأربعة فلوس، ويوجد بهذه المملكة من الحبوب القمح والشعير، والحمص والأرز والدخن وسائر الحبوب خلا الفول.

وأسعارها جميعاً رخيصة فإذا غلت فيها الأسعار أغلى الغلو، كانت مثل أرخص الرخص بمصر والشام.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وبها من الفواكه المنوعة الثمار العنب والتين والرمان والتفاح والكمثري
والسفرجل والخوخ والعين والمشمش والتوت والبطيخ الأصفر والأخضر
والبطيخ الأصفر بهذه البلاد نهاية، والبخاري والسمرقندي أحسن أنواعه، وإن
كان الخوارزمي يزيد عليه في الحسن واللذاعة على ما ذكره في مكانه.

وبها الخبار والقثاء واللقف والجزر والكرنب والبادنجان والقرع وسائر أنواع
البقول وأنواع الرياحين من الورد والنرجس والآس والنيلوفر والحبق والبنفسج
وإن قل، ولا يوجد بها الأترج والتاريخ والليمون والليم ولا الموز ولا قصب
السكر ولا القلقاس ولا الملوخيا، فإنها من ذلك عارية الحدائق، خالية الدوح، إلا
ما يأتي من المحمضات إليها مجلوباً.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
فأما الدواب والخيول والبغال والحمير والإبل والبخت والبقر والغنم، وأقلها البغال
والحمر وأكثرها الأغنام فإنها في هذه البلاد كما يقال أعورتها الزرائب بالمالق،
وما يليها بملأ الفضاء، ويسد عين الشمس، وهي بلاد قريبة من الاعتدال، لا
تفرط في حر ولا برد، ذات عيون دافقة، وأنهار سارحة، ومراع متسعة مربعة،
وخصب مفرط، يزكو حيوانها ونباتها ومعادنها.

قال لي الشيخان صدر الدين محمد ومحمد الخجنديان الصوفيان بالخانقاه
الفوهية أنه لولا موتان يقع في خيل المالق وأغنامها في بعض السنوات، لما
أبتعت، ولا يوجد من يشتريها، لكثرتها وبركات نتاجها.

قالا: ومدينة بدخشان بها معدل اللعن البدخشاني لم يمكننا أن نتكلم بشيء
قبله، فقال له: كم قيمة هذه القطعة يا نجم الدين؟ فقال ما يعرف قيمة هذه
إلا من ملك مثلها، أو رأى مثلها، وأنا وأنت والسلطان وجميع من حضر ما رأى
مثلها، ولا قريباً منها، فكيف نعرف قيمتها؟ فاستحسن هو وكل من حضر قوله
وصالحو صاحبها.

وسنذكر جملة مما هي عليه قواعد هذه البلاد، وأول ما نبدأ بفريقي قاعدة
الملك بها، وإن لم تكن شيئاً مذكوراً، ولها شيء على اختلاف حالات الزمان
شهرة تذكر، ولكن لما شملتها به في دولة ملوكها الآن من نظرات السعادة
لنسبتها إلا أنها سكن لهم، وإن كانوا ليسوا بسكان جدار ولا متدبرين في ديار،
ولكن لاسم وسمت به.

وأما بخاري فأم أقاليم، ويم تقاسيم، وقد كانت للدولة السامانية قطب نجومهم
السائرة، ومركز أفلاكهم الدائرة، وكانت تلك الممالك كلها تبعاً له، وكان آل
سامان بها، وإن لم يتسموا بالسلطنة، ولا سمووا بغير الإمرة كالخلفاء لا
يباشروا الأمور إلا نوابهم، ولا يخرج إلى الحروب إلا قوادهم، ودست قواعد
دولتهم، وأذعنت لهم ملوك الأقطار، ولم تكن ملوك بين بويه على عظمة
سلطانهم إلا كالأتباع لهم، يحملون إليهم الحمول والقماش المطرز بأسمائهم
وأسماء أرباب دولتهم كالوزير والحاجب.

وحكى أبو نصر العتبي: (المخطو ص 37) وكتب نوح بن إلي ابن بويه
كتاباً يهدده فيه، فكتب جوابه: يا نوح قد جادلنا فأكثرت جدالنا، فأتنا بما تعدنا
إن كنت من الصادقين، ثم لم يرسل هذا الجواب، خوفاً لما وقر في صدورهم

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

من مهابة آل سامان إلى أن قضى الله فيهم بأمرة، وولى زمانهم، وجاء زمان سبكتكين على إثره، قال العتبي: وخمدت تلك الشعلة. قال صاحب كتاب أشكال الأرض ومقدارها: لم أر، ولم أسمع بظاهر بلد أحسن من بخاري، لأنك إذا علوت ولم يقع نظرك من جميع النواحي إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء فكان السماء مكبة زرقاء على بساط أخضر، تلوح القصور فيما بين ذلك كالتراس الشتية والحجب الملطية وكالكواكب العلوية بياضاً ونوراً بين أراض وضياح مقسومة بالاستواء، مهذمة كوجه المرأة بغاية الهندسة، وليس بما وراء النهر ولا غيرها من البلاد أحسن قياماً بالعمارة للضياح منهم، مع كثرة متزهات في سعة المسافة وفسحة المساحة، متصلة بعض سمرقند.

قال: ويحيط ببخاري وقراها ومزارعها سور، قطره اثنا عشر فرسخاً في مثلها، كلها عامرة ناضرة زاهرة، ولبخاري سبعة أبواب حديد وهي: باب المدينة، وباب بوت، وباب جفهر، وباب الحديد، وباب قهندز وباب بني أسد، وباب بني سعد، ولقهندز هنا بابان أحدهما يعرف الريكستان، والأخرى باب الجامع، يشرع إلى المسجد الجامع، وعلي الرض دروب، فمنها درب يخرج إلى خراسان، يعرف بدرب الميدان، ودرب يلي المشرق، ويعرف بدرب إبراهيم، يليه درب يعرف بالربعة، يليه درب المردكسان، يليه درب كلاباد، يليه درب الوفهار، يليه درب سمرقند، يليه درب بغاشلوز، يليه درب الرامينيه، يليه درب حدس، يليه درس غشج.

وليس في مدينة بخاري ولا قهندزها، ماء جار لارتفاعها، ومياها من النهر الأعظم الجاري من سمرقند، ويتشعب من هذا النهر الأعظم في مدينة بخاري نهر يعرف بنهر فتيرديز فيأخذ من نهر بخاري، ويجري في درب المردكشان على حد باب إبراهيم حتى ينتهي إلى باب البلعمي ويقع في نهر ميركیده، وعلى هذا النهر نحو ألفي بستان وقصور وأراض كثيرة، وشهرتها منه.

ومن فم هذا النهر إلى مغيضه نحو فرسخ ونهر يعرف بحور باد يكاد يأخذ من المذكور آنفاً في وسط المدينة بموضع يعرف بمسجد أحمد وبغيض بني كنده، وعلى هذا النهر مشرب بعض الرض ونحو ألف بستان ونهر يعرف بحومار القواديرمين يأخذ من النهر المذكور بموضع يعرف بمسجد العارض، فيسقى بعض الرض، وهو أغزر وأعمر الأراضي من نهر بكار ونهر نوكنده يأخذ من النهر المذكور ومن المدينة عند رأس سكة ختع، فيسقى بعض الرض وبغيض في المفازة، يليه نهر الطاحونة يأخذ من النهر المذكور في المدينة بموضع يعرف بالنوبهار، وعليه بيوت أهل الرض ويدير أرجية كثيرة حتى ينتهي إلى بيكند، ومنه شرب أهل بيكند، ونهر يعرف بنهر كشنه، يأخذ من النهر في المدينة عند النوبهار، عليه شرب أهل النوبهار، فيفضي إلى حصون وضياح وبساتين حتى يجاور كشنه، ونهر يعرف بنهر تاج يأخذ من النهر المعروف بالريكستان، ويسقى بعض الرض، وينتهي إلى قصر رباح، فيسقى نحو ألف بستان وقصور هناك وأراضي كثيرة دون البساتين.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

ونهر الريكستان يأخذ من النهر المذكور بقرب إلى الريكستان ومنه يشرب الريكستان وأهل القهندز ودار الإمارة حتى ينتهي إلى قصور جلال ديزه. ونهر يأخذ من النهر المذكور بقرب قنطرة جمدونه تحت الأرض إلى حياض باب بني أسد، ويقع فضله في فارقين القهندز. اسم الكتاب: مسالك الأبصار وهذه الأنهار طائفة ببخاري وجنانها ولها رساتق كثيرة، ونواح نفيسة وأعمال جليلة وضياح ليس مثلها لأهل بلد، وإن كان لأهل ناحية أو إقليم ما يضاهاى بعضها، فليس كهي، على وفورها وكثرتها.

وجميع أبنية بخاري على استماك البناء والتقدير في المساكن وارتفاع أراضي الأبنية، فهي محصنة بالقهندزات وليس في داخل هذا الحائط جبل ولا مغارة ولأرض عامرة، وأقرب الجبال إليها جبل وزكر، ومنه حجارة أبنيتهم، وفرش أرضهم، ومنه طين الأواني والكلس والجص، ولهم خارج المدينة ملاحات، ومحتطبهم من بساتينهم، وما يحمل إليهم من المفاوز من الفضاء والطرق. وأراضي بخاري كلها قريبة من الماء لأنها مغيض ماء السفد، ولذلك لا تنبت الأشجار العالية بها مثل المركب والجوز وما أشبهها، وإذا كان من هذا الشجر شيء فهو قصير غير تام. ومن عمارة بخاري أن الرجل ربما أقام على الجريب الواحد من الأرض، فيكون فيه معاشه وكفافه، هو وجماعة أهله. ولبخاري مدن في داخل حائطها وخارجها، فأما داخله فالطواويس ومخلصب ومغركلن وزبيده وحجاره، وهي كلها في داخل الحائط، وكلها ذوات منابر، ومن خارجها بيكند وفرير وكرمينيه وجدمكن وجزعامكت ومديامجكت، وجميع المدن التي داخل الحائط متقاربة في القدر والعمارة ولجميعها قهندزات عامرة، وأسواق جادة، وبساتين كثيرة، سيما ما كان ببيكند فإن بها من الرباطات ما ليس بيلدان ما وراء النهر كرباط هوا، وما يقاربه، ويقال أنه كان بها ألف رباط، ولها سور عظيم حصين، ولها مسجد جامع تونق فيه، وفي بناءه، وزخرف محرابه، وليس بما ما وراء النهر أحسن زخرفة منه. وقرب مدينة قريبة من جيحون ولها قرى عامرة، وهي في نفسها حصينة، مقصودة بفاخر المطاعم والمأكول الطيبة اللذيذة، وهي مدينة بقية الحفاظ قدوة أهل المشرق والمغرب أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري وكفى به فخراً باقياً، وذكرنا دائماً، وأهل بخاري يرجعون إلى أدب وعلم وفقد وديانة وأمانة وحسن سيرة وجميل معاملة وإفاضة خير وبذل معروف وسلامة نية ونقاء طويلة.

ويتحدث أهل بخاري على قديم الأيام بطريف من أحاديثهم، وهو أنهم يتفاوضون من غير خلاف، أن من بركة طلعمهم وقدرهم أنه ما خرج منها جنازة وال قط، ولا عقد فيه لواء، ولا راية خرجت منه، وكان أول من اتخذها داراً، وجعلها قراراً من آل سامان أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد، فإنه جاءته ولاية خراسان وهو مقيم بها، فنزل بساحتها، واتخذها قاعدة له، ثم توالى عليها بنوه إلى آخر أيامهم، وانقضاء أحكامهم على ما قدمنا.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وأما سمرقند فإنها مدينة مرتفعة، ولها قهندز وريض يشرف الناظر بها على شجر أخضر وقصور تزهو وأنهار تطرد وعمارة تتقد، لا يقع الطرف بها على مكان إلا ملاء ولا بستان إلا ستحسنه.
قال صاحب كتاب أشكال الأرض: وقد قصصت أشكال السرو، فشئت بطرائف الحيوان من الأفيلة والإبل والبقر والوحوش المقبلة بعضها على بعض كالمناجاة، هذا إلى أنهار تطرد وبرك منجورة ظريفة المعاني وقصور مستشرفات.

قال مسلم بن قتيبة: لما أشرفت على سمرقند، شبهوها، فلم يأتوا بشيء، فقال: كأنها السماء في الخضرة، وكأن قصورها النجوم الزاهرة، وكان جداولها أنهار المجرة، فاستحسنوا هذا التشبيه.
وبسمرقند حصن ولها أربعة أبواب، باب مما يلي المشرق، ويعرف بباب الصين، مرتفع عن وجه الأرض ينزل إليه بدرج كثيرة، مطل على وادي السفد، وباب مما يلي المغرب يعرف بباب النوبهار، وهو على نشز من الأرض، وباب مما يلي الشمال، يعرف بباب بخاري، وباب مما يلي الجنوب، يعرف بباب كش.

وفي سمرقند ما في المدن العظام من الأسواق الحسان والحمامات والخانات والمساكن، ولها مياه جارية، تدخل إليها في نهر، وفد بني عليه مسناة عالية من الأرض (في بعض المواضع، بل) في وسط المشرق من حجاره يجري عليها الماء من موضع يعرف بالصفارين، إلى أن مدخل باب المدينة خندق عظيم مستقل فاحتيج إلى مسناه في هذا الخندق حتى يجري الماء إلى المدينة، وهو نهر قديم جاهلي في وسط أسواقها بموضع يعرف برأس الطاق، من أعظم موضع بسمرقند، ولهذا النهر على حاشيته مستغلات موقوفة على ممراته ومصالحه، وعليه الحفظة صيفاً وشتاءً، وليس لسور الريض بها أبواب تغلق، ويزعم بعض الناس أن تبعاً المسمى أسعد أبا كرب ابتنى مدينة سمرقند، وأن هذا القرنين أتم بعض بنائها.

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: وأخبرني أبو بكر الدمشقي قال: رأيت على بابها الكبير صفيحة حديد، وعليها كتابة زعم أهلها أنها بالحميرية وأنهم يتوارثون ذلك، إنها من صنعة تبع، وبعض الكتابة أن من صنعاء إلى سمرقند ألف فرسخ. قال: ثم وقعت القنعة بسمرقند، وأحرق الباب الذي كانت عليه هذه الصفيحة، وأعاد أبو المظفر محمد بن لقمان ابن نصر بن أحمد بن أسد، حديداً، كما كان من حديد وتغيرت الصفيحة.

قال بعض الأطباء: تربة سمرقند صحيحة يابسة، ولولا كثرة البخارات من المياه الجارية في سكنهم ودورهم، وكثرة أشجار الخلاف عنده لا ضرر بهم فرط يبسها، وبنائها من طين وخشب.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وكان أهلها من إظهار المروءات أكثر من سواهم والبلد كله طرقه وسككه وأسواقه وأزقته مفروشة بالحجارة، ومياههم من وادي السفد، وهذا الوادي من بلاد المتم على ظهر الصاغانيات، وله مجمع ماء يعرف بمجىء مثل بحيرة، حواليها القرى، ومن مبدأ هذا الوادي إلى أن ينتهي إلى سمرقند أزيد من عشرين فرسخاً، فإذا جاور سمرقند بنحو مرحلتين، انشعب منه نحصر يعرف بقى، وليس بالصفد نهر أوفر عمارة منه، ولا أعظم قصوراً وقرى وماشية.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ونهر في وهو ثلث السفد، ويتشعب من وادي السفد أنهار كثيرة إلى حد بخاري حيث تأخذ منه أنهار بخاري المذكورة ستة مشتبكة القرى والبساتين والأنهار. ولو اطلع مطلع من الجبل على وادي السفد لرأي خصرة متصلة لا يرى من أضعافها غير قهندز أبيض أو قصر سامق مشيد، فأما فرجة مقطعة عن الخصرة أو أرض باثرة أو غابرة فقلما ترى.

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: ومن حد بخاري إلى وادي السفد يميناً وشمالاً ضياع تتصل إلى جبال اليتم لا ينقطع خضرتها، ومقدارها في المسافة ثمانية أيام، مشتبكة البساتين الخصرة، والرياض محفوفة بالأنهار الجارية والأحواض في صدور رياضها، ومبانيها مخصرة، الأشجار والزروع ممتدة على جانبي واديهما من وراء الخصرة، ومن وراء الخصرة على جانبي النهر مزارعها وقصورها، والقهندزات من كل مدينة ومدينة تبصر في أضعاف خضرتها كأنها ثوب ديباج أخضر، قد سُير بمجاري مياهها، وزينت بين صيف قصورها في أبهى بلاد الله وأحسنها أشجاراً وأطيبها ثماراً.

وعامة مساكن سمرقند بالبساتين والحياض والمياه الجارية، فما تخلو سكة ولا محلة ولا ناحية ولا سوق ولا دار ولا قصبة من نهر جار أو بركة واقفة... وبساتير ما وراء النهر من الأنهار المتخرقة والرياض المتصلة، والأشجار الملتفة، والثمار الكثيرة ما لا يوجد مثله في سائر الأمصار، ولا دمشق ولا غيرها، وإن قيل أن متنزهات الدنيا أربعة غوطة دمشق أحدها، وقال بعضهم أنها أفضلها، ولكن سفد سمرقند أطول وأعرض وأفسح وأكثر ماء، وأمد مدى تجول العين في فضائه.

حدثني السيد الشريف جلال الدين حسن بن أبي المجاهد الحسيني السمرقندي عن طول مدى السفد فقال: بقدر عشرة أيام بالسير المعتاد.

قلت: وقد قال صاحب أشكال الأرض أنه يكون ثمانية أيام، فقال: لا لا يكاد يقصر من عشرة أيام، فأين غوطة دمشق من هذا أو كلها من منبع الماء من واديهما إلى تناهيه، لا يبلغ نصف يوم مع كون السفد مكشوفاً، تسافر العين من أوله إلى آخره في فرد مدى نظر، وما غوطة دمشق هكذا، لاكتناف الجبلين لواديهما، ولأن أنهار السفد واضحة في خلال خمائلها، ممتدة في بسيط الخصرة، لا يحتجب ولا يخفى عن العين، وليست الأنهار بدمشق مكشوفة إلا في مجرى الوادي بها، فأما إذا أشرف المستشرف عليها، فإنه لا يرى إلا ما يليه، ولا تقع عينه إلا على ما يحاذيه، ولقد بقى من سمرقند متعة الأبصار على ما نابها من النوائب، وأعترت أنهارها من الشوائب، ولبيت به أغصانها مما تشيب له الذوائب أيام جنكيزخان وأبنائه، وما رميت به من حوادث الحدثان في تلك المدد، وإذا حصل الإتياف قيل أن غوطة دمشق قطعة من سفد سمرقند.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وأما اليتم فهو جبال شاهقة سامقة منيفة، والغالب عليها الترهة والخصرة والبقلة المعروفة بالطرخون، وهي قرى أهلة بالناس.

وباليتم حصون منيعة جداً، وفيها معادن ذهب وفضة وزاج ونوشادر، وفي كل جبل من جبال اليتم كالغار، وقد بني عليه، وأستوثق من أبوابه وكواه.

وفيها عين يرتفع منها بخار يشبه الدخان بالنهار والنار بالليل، فإذا تلبد هذا

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

الدخان في حائط ذلك البيت وسقفه قلع منه النوشادر، وداخل هذا البيت من شدة الحرب ما لا يتهيأ لأحد أن يدخله إلا احترق، إلا أن يلبس اللبود المبلولة، ويدخل كالمختلس، وبأخذ ما يقدر عليه من ذلك. قال: وهذا البخار ينتقل من مكان إلى مكان فيحضر عليه حتى يظهر، فإذا خفى في مكان حضر عليه في آخر إلى أن يوجد، وإذا لم يكن عليه مبنياً يمنع البخار من التفرق، لم يضر من قاربه، حتى إذا اختنق من بيت، احترق من يدخله لشدة الحر.

وإما غزنة فكانت مستقر سبكتكين والد السلطان يمين الدولة وأمين الملة محمود، فلما انقرضت الدولة السامانية بابتداء أيامه، وتبدلت ملاهيهم بحد حسامه، وكانت غزنة دارهم ومثواهم، استمروا بها، ونقلوا عن بخاري قاعدة الملك إليها، ثم تناوب بنو الجلوس على سريرها، ثم استقرت ملوك الغورية، وقاعدة سلطانهم ومنيع أعوانهم. وغزنة مخصوصة بصحة الهواء وعذوبة الماء، والأغراض بها قليلة، وأرضها لا تولد الحيات والعقارب والحشرات المؤذية، ومنها خرج الرجال الأنجاد، وتأمل مواقف ملوكها في غزو الهند والترك، وذبحهم عن بيضة الإسلام والملك ما أبقيت الغورية رحمهم الله على قصور عددهم، وقصر مددهم. لقد كملوا ما بدأ به السلطان محمود بن سبكتكين في غزوات الهند، وسنوابها الفتوح حتى دخل الإسلام تلك الممالك العظمى، وعلي الحقيقة ما فتحوا الهند بل فتحوا الدنيا، وبذلك على هذا ما تقدم ذكره. وأما غزنة فهي مدينة مضايقة للسند، وقيل أنها منها، وقال صاحب كتاب صفة الأرض أن غزنة من بلاد السند وهي واقعة في الثالث. قال أبو سعيد منصور زعيم جرجان، ولم أر بلدة في الصيف أطيب، وفي الربيع أشبه، وفي الخيرات أنظف من غزنة، وهي قليلة الأشجار، ولهذا صح هواؤها، وسلم من مرورها على النقائع الوخمة، وأصول الشجر العفنة. وأما تركستان فمملكة لو انفردت لكانت ملكاً كبيراً، وسلطنة جليلة، زهرة الدنيا، وطراز الأرض، بلاد الترك حقيقة، من كناسها رفعت غزلانها، ومن غاباتها سرحت ليوثهم، وهي إقليم فسيح المدى قديمة الذكر، منشأ حماة، ومشب كماه، وهي المرادة بقولهم بلاد الأتراك، ولم تزل الملوك تلحظها لإتقاء بوادرها، والتقاء زواجرها، فأشد ما نكرت الأيام معالمها، وغيّرت أحوالها، ولقد صادفت حدة التتار في أول التيار، فجاءت قدامهم في سورة غضبهم، ولفحة نارهم، وأمالت السيوف حصائد آجالهم، ولم يبق إلا من قل عديده.

حكي لي من رجال في رساتيقها وراز في قراها أنه لم يبق من نعالها إلا رسوم دائرة، وأطلاق بالية على البعد القرية مشيدة البناء مخضرة الأكتاف فيأنس لعله يجد بها أنيساً ساكناً، فإذا جاءها، وجدها عالية البنيان خالية من الأهل والسكان، إلا أهل العمدة، وأصحاب السائمة، ليست بذات حرث ولا زرع، وإنما خضرتها مروج أطلقها باربيها، وبها من النباتات البرية لا يذررها باذر، ولا زرعها زارع، ويوجد بها خلف من بقايا العلماء، ويجري التيمم بالترب لعدم الماء.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وأما الشاش فمقدار عرضها مسيرة يومين في ثلاثة أيام، وليس بخراسان ولا ما وراء النهر أقليم صغير على قدرها في صغر المساحة، أكثر منها منابر وقرى عامرة، وقوة شوكة، وهي في أرض سهلة ليس بها جبل ولا أرض مرتفعة حزقة هي أكثر نفر، وأبنيتهم من طين، وعامة دورهم تجري فيها المياه، وكلها مستترة بالخضرة، ولها مدن كثيرة تتداني وتتقارب مسافتها. وأما استيجاب فمدينة لها قهندز وربض، أما القهندز فخراب. والمدينة والربض عامران، وعلى المدينة سور ويحيط بها مقدار فرسخ، وفي ربضها مياه وبساتين، وبنائها بطين، وهي مستوى من الأرض، ولها أربعة أبواب، وهي مدينة ذات خصب وسعة، ولا خراج عليها، ومن مدنها الطراز وتوجكرت وكجفده.

وإما باراب فهو اسم الناحية، ومقدارها في الطول والعرض أقل من يوم، وبها منعة وبأس، وهي في سبخة، ولها غياض ومزارع، وقصبتها تسمى كندر، ومنها فيلسوف الإسلام أبو نصر البارابي مفسر كتب القدماء، (المتقدم في العلوم العقلية على كل متقدم ومتأخر، والناس يقولون الفارابي) والصحيح الباربي بالباء الموحدة لأن هذه تسمية تركية، وليس في اللغة التركية فاء.

وأما خجندة فإنها متاخمة لفرغانة، وهي في جملتها، وهي منفردة بأعمال خاصة، وهي على نهر الشاش في غربيه، وطولها أكثر من عرضها، وبساتينها ودورها متفرقة، ولها قرى يسيره، وهي مدينة نزهة، وفواكهها حسنة ولكنها تنبثق بها من ذراعتها فتجلب الغلات من فرغاته وأشروسنه إليها، وينحدر إليهم بها السنن من نهر الشاش، وهو نهر عظيم، ويعظم بأنهار تجتمع إليه في حدود الترك، وعموده نهر يخرج من بلاد الترك في حدود دوازكند، ثم يجتمع إليه أنهار فيغزر، ويمتد على خجندة، يمر على ساكت، فيجری إلى باراب، وإذا جاوز حد صيران جرى في بركة يكون في حاشية بلد الأتراك الغربية، فيمتد حتى يقع في بحيرة خوارزم.

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: وهو نهر إذا امتد يكون نحو ثلثي نهر جيحون. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وأما فرغانة فهو اسم الإقليم وهو عمل عريض موضوع على سعة مدنها وقراها، وقاعدتها مدينة اخشيلب، وهي على شط نهر الشاش، على أرض مسنوية، ولها قهندز وربض، ومقدارها نحو ثلث فرسخ، وبنائها من طين، وعلى ربضها سور وعليه أبواب من المدينة، وفي الربض مياه جارية وحياض كثيرة، وكل باب من أبواب ربضها يفضى إلى بساتين ملتفة، وأنهارها لا تنقطع مقدار فرسخين، وبخاذهما إذا عبر الشاش مروج ومزارع كثيرة، رمال مقدار مرحلة، ويليهما مدينة قنا وهي من فرغانة، من أتره مدنها لها قهندز وربض القهندز خراب والجامع من القهندز، وأسواقها من ربضها، ودار الإمارة في الربض، وعليه سور محيط به، ولها بساتين كثيرة، ومياه غزيرة ويليهما في الكبر أوش من فرغانة، ملاصقة للجبل، وهي مدينة عامرة ذات قهندز عامر، ولها ربض، وعليه سور ولها ثلاثة أبواب وأوزكند وهي آخر مدن فرغانة لها قهندز وربض، وأسواقها في الربض مطرزة بالبساتين والمياه الجارية.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: وليس بما وراء النهر أكثر قرى من فرغانة، وربما بلغ حد القرية مرحلة لكثرة أهلها، وانتشار مواشيهم في المرعى، وسألت عن هذا العميد أبا المكارم حميد بن محمد الفرغاني فقال: كانت أكثر مما قال، والبلاد باقية على هذه الحال في الاتساع ولكن قد قل ناسها. وأما أشروسنه فهو اسم لإقليم كالسغد، وقاعدتها مدينة تومجكت، وبها من المدن ارسبانيكت وعرق وفنكت وساباط ورامين.

قال صاحب الروض المعطار في أخبار الأقطار: أشروشنه أرض يحيط بها من إقليم ما وراء النهر من شرقيها بعض فرغانة، ومن غربيها بلاد الصفد والصغانيان، وشمالها بلاد الشاش، ولأشروسنه مدن كثيرة، ومملكتها واسعة جليلة، ويقال أن فيها أربعمئة حصن ولها واد عظيم يأتي من نهر سمرقند، ويوجد في ذلك الوادي سبانك الذهب.

وقال صاحب كتاب أشكال الأرض: أما مدينة تومجكت فهي مسكن الولاة، تحزر رجالها نحو عشرة آلاف رجل، وبنائها بطين وخشب، وعليها سور، ولها ربض وعلى ربضها سور، ولها سور ثالث من وراء ذلك.

وللمدينة الداخلة بابان؛ وداخل المدينة المسجد الجامع والقهندز ودار الإمارة في الربض في مربعة الأمير.

ويجري بالمدينة نهر كبير عليه رحي وأسواقها في المدينة الداخلة، وبها بساتين وكروم وزروع، وذلك كله دون السغد، ولها أربعة أبواب، ولها ستة أنهار، جميعها من عين واحدة، ومنبع واحد، مقدار ما بها يزيد على عشرة أرحية ومن المدينة إلى منبع الماء مقدار نصف فرسخ، ويليها في الكبر مدينة زامين، وهي على طريق فرغانة إلى السغد، وباقي بلادها متقاربة في الكبر والنزهة والبساتين والمياه.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

الفرقة الثانية في خوارزم والقبجاق

حدثني الشيخ نجم الدين بن الشحام الموصلي أن هذه المملكة متسعة الجوانب طولاً وعرضاً، كثيرة الصحراء، قليلة المدن، وبها عالم كثير، لا يدخل تحت حدٍ، وليس لهم كبير نفع لقلة السلاح ورداءه الخيل.

وأرضهم سهلة قليلة الحجر لا تطيق خيل، ربيت فيها الأوعار، فلهذا يقل غناء أهل هذه المملكة في الحروب، وليس لملوكهم عظيم عناية بالأوضاع، وترتيب سلطان هذه البلاد في أمور جيشه وسلطانه ترتيب مملكة العراق والعجم، في عدة الأمراء والأحكام والخدم، ولكن ليس لأمر الألووس والوزير بها تصرف أمير الألووس والوزير بتلك المملكة، ولا لسلطان هذه المملكة نظير ما لذلك السلطان من الدخل والمجاني وعدد المدن والقرى، ولا مشى أهل هذه المملكة على قواعد الخلفاء مثل أولئك.

ولخواتين هؤلاء مشاركة في الحكم معهم، وإصدار الأمور عنهم مثل أولئك وأكثر إلا ما كانت عليه بغداد بنت جوبان امرأة أبي سعيد بهادر بن خداينده، فإننا ما رأينا في زماننا، ولا سمعنا عن قارب زماننا أن امرأة تحكمت تحكمها، وقد وقفت علي كثير من الكتب الصادرة عن ملوك هذه البلاد من عهد بركة وما بعده، وفيها وانفقت آراء الخواتين والأمراء على كذا أو ما يجري هذا المجرى.

وقاعدة الملك بها السراي، وهي مدينة صغيرة بين رمل ونهر، وقد بنى بها

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

سلطانها القائم بها الآن ازبك خان مدرسة للعلم، وهو معظم لجانب العلم وأهله.

وحدثني الصدر زين الدين عمر بن مسافر أن هذا السلطان أزبك غير ملتفت من أمور مملكته إلا إلى جمليات الأمور دون تفصيل الأحوال، يقنع بما جمل إليه، ولا يفحص عن وجوهه في القبض والصرف، وإن لكل امرأة من خواتينه جانباً من الجمل، وهو يركب كل يوم إلى امرأة منهن يقيم ذلك اليوم عندها، يأكل في بيتها، ويشرب، وتلبسه بذلة قماش كاملة، ويخلع التي كانت عليه، على من يتفق ممن حوله، وقماشه ليس بفائق الجنس، ولا غالي الثمن، وهو مسلم، حسن الإسلام، متظاهر بالديانة، والتمسك بالشرعية، محافظ على إقامة الصلاة، ومداومة الصيام مع قربه من الرعايا والقاصدين إليه.

وليست يده بمبسوطة بالعتاء، ولو أراد هذا لما وفى له به دخل بلاده، وغالب رعاياها أصحاب عمد في الصحراء، أقواتهم من مواشيهم من الخيل والبقر والغنم، والزرع عندهم قليل، وأقله القمح والشعير، وأما الفول فلا يكاد يوجد، وأكثر الموجود عندهم من الزروع، والدخن منه أكلهم، وعليه فيما يخرج الأرض كلهم، والأسعار في جميع هذه المملكة رضية إلى غاية.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
الأكركانج أم إقليم خوارزم، وهي المعبر عنها بخوارزم، فإنها متماسكة فيها أسعار الغلات، قل أن ترخص، بل هي إما مغلية أو متوسطة، لا تعرف الرخص أبداً، وأما اللحوم فإنها رخيصة، وكثيراً ما تذبح الخيل بهذه البلاد. وأما سكان البر منهم فإنه لا يباع ولا يشتري بينهم اللحم، وغالب أكلهم من لحوم الصيد واللبن والسمن والدخن، فإن تلفت لأحد منهم دابة مثل فرس أو بقرة أو شاة، ذبحها، (وأكل هو، وأهله منها)، وأهدى إلى جيرانه، فإذا تلفت لهم أيضاً شاة أو بقرة أو فرس، ذبحها، وأهدى إلي من أهدى إليه، فلا تكاد تخلوا بيتهم من اللحم بهذا السبب لأن هذا معروف بينهم كأن هدية اللحم بينهم قرض يؤتى.

وفي سلطان هذه المملكة طوائف الجركس والروس والآص وهم أهل مدن عامرة وأهله، وجمال مشجرة مثمرة، ينبت عندهم الزرع، ويدر الضرع، وتجري الأنهار، وتجنى الثمار، ولا طاقة لهم بسلطان هذه البلاد، وهم معه، وإن كانت لهم ملوك كالرعايا فإن داروه بالطاعة والتحف والطرف، كف عنهم، وإلا شن عليهم الغارات، وضايقهم بالحصار، وكم مرة قتل رجالهم، وسبى نساءهم وذرائعهم، وجلب رقيقهم إلى أقطار الأرض.

ومما ينظم إلى جناح هذا السلطان قوم من الترك في نهاية الشمال من حدوده، وهم في جهد من قشف العيش، لأنهم ليسوا أهل حاضرة لهم زرع، وشدة البرد تهلك مواشيهم، وهم همج رعا لا لهم مسكة بدين ولا رزاة في عقل، وهم لشدة ما بهم من سوء الحال إذا وجد أحدهم لحماً سلقه ولم ينضجه، وشرب مرقه، وترك اللحم ليأكله مرة أخرى، ثم يجمع العظام، ويعاود سلقها مرة أخرى، ويشرب مرقها، وقس على هذا بقية عيشهم. وأخبرني الصدر جمال الدين عبد الله الحصني التاجر؛ أن ليس كثير من أهل

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

بادية هذه المملكة الجلود، سواء أن كانت مذكاة أو ميتة، مدبوغة أو غير مدبوغة، من الحيوان الطاهر أو غير الحيوان الطاهر، ولا يعرفون في المأكّل ما يعاف مما لا يعاف ولا التحريم من التحليل، وأنهم في الأزمات يبيعون أولادهم ليتقوتوا بأثمانهم إذا ضاقت بهم الأحوال في بعض السنين، ويقولون عمن يبيعونه من أولادهم: نعيش نحن (ولا) وهو خير مما نموت نحن وهو. وجاريت الصدر زين الدين عمر بن مسافر في حديث هذه البلاد، وسألته عما قاله عبد الله الحصني، فقال: كل ما أخبرك به صحيح.

قلت: وترك هذه البلاد هم خيار الترك أجناساً، لوفائهم وشجاعتهم، وتجنّبهم الغدر مع تمام قاماتهم، وحسن صورهم، وطرافة شمائلهم، ومنهم معظم جيش مصر لأن سلاطينها وأمراءها منهم منذ رغب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل في مشترى الممالك القباقي، ثم انتقل الملك إليهم، مالت ملوكهم إلى الحبشية، ورغبت في الاستكثار منهم، حتى أصبحت مصر بهم أهلة المعالم، محمية الجوانب، منهم أقمار مواكبيها، وصدور مجالسها وزعماء جيوشها وعظماء أرضها، وحمد الإسلام مواقفهم في حماية الدين، وجهادهم أقاربهم، وأهل جنسهم، من الله، (لا تميل لهم جنة)، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، وكفى بالخيرة الأولى نوبة عين جالوت لما خرج الملك المظفر قطز، صاحب مصر، إذ ذاك في سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكسر عساكر هولاكو أعلى عين جالوت، ورحل هولاكو عن حلب، عائداً، ونهض الجيش المصري بما عجزت عنه ملك أقطار الأرض مع اجتهد السلطان جلال الدين محمد بن خوارزمشاه رحمه الله، حتى قتل.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ولم يكن الجيش المصري بالنسبة إلى الجيوش الجلالية إلا كالنقطة في الدائرة، (والنغمة من البحر)، والله يؤيد بنصره من يشاء، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين.

، وهذا من المعجزات النبوية وهو قوله صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على من عاداهم إلى يوم القيامة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ألا وهم الجند الغربي.

وقوله ألا وهم الجند الغربي زيادة في الروايات، وهذه الرواية إن لم تصح روايتها، صحت بالمعنى، لأن هذه الطائفة وهي كانت الطائفة الظاهرة التي أرادها النبي صلى الله عليه وسلم في قولهم وعناهم بها، لأنه لم يظهر على التتار سواهم، وبهذه النصرة، دامت النصرة على التتار، وكانت بهم لا بغيرهم مع كثرة من كان من ملوك الإسلام، واجتهادهم في الجهاد، فتماسك بهذه المرة رفق الإسلام، وبقيت بقية الدين، ولولاهم لا نصدع شعب الأمة، ووهي عمود الملة، ووصلت خيل عبدة الشمس إلى أقصى المغرب، ودكت جميع رعان الأرض.

وهذه جملة معترضة ساقها الاستطراد بذكر أهل تلك البلاد، ونعود الآن إلى ذكر ما كنا فيه من ذكر بلادهم وأحوالهم فيها.

هذه البلاد أكثر الأرض ماءً ومرعى وأخصبها زرعاً إذا زرع بها، ولكنهم أهل حل

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وترحال، أصحاب ماشية، ليس لهم مبالاة بالزرع والغراس، ولقد كانت قبل استيلاء التتار عليها، معمورة الجوانب، وهي الآن في بقايا تلك العمارة فيها الأشجار المختلفة الأنواع، من الفواكه العنب والرمان والسفرجل والتفاح والكمثري والمشمش والخوخ والجوز، وبها فاكهة تسمى بلغة القبقاق بآبيك شبيهة بالتين، والفواكه الموجودة عندهم الآن من بقايا ما باد من غراس من كان قبل هؤلاء ممن كان لهم عناية بالزرع والنصب، وهي كثيرة الوجود في جبالهم، وما يحدث إلى المدن مع كثرة ما بادوا. وأما البطيخ فسحت عندهم سحابه، وشحت على غيرها خاصة الأصغر، فإنه ما يبقى عندهم طول السنة، ويقدد منه وهو في غاية صدق الحلاوة، وطيب الطعم مع ما يحكى من كثرة وجوده ورخصه، ومنهم من يستخرج ماءه ويعقد منه الحلوى. وبمدنهم كثير من الخضراوات كاللفت والجزر والكريب وغير ذلك، فأما في مدن الجركس والروس واللاص فإنه كثير عندهم جداً، وبها العسل الكثير الأبيض اللون اللذيذ الطعم الخالي من الحدة، وقد نشأ الآن فيهم الإسلام، وأشرق على أقطارهم نور الإيمان.

وكان أول من دان بالدين الحنيف من ملوكهم بركة بن جوجي بن جنكيزخان ومنه لمعت في آفاقهم الشوارق إلى أن صدع الآن الضحى، وتقلصت في جمهورهم المعظم جلايب الدجى، إلا في النادر القليل، ومع استعلائهم على جيوش الجركس والروس والماجار والأرمن تختلس تلك الطوائف أولاد هؤلاء وتبيعهم من التجار، ومع ظهور الإسلام في هذه الطائفة، وإقرارهم بالشهادتين فهم مخالفون لأحكامها في كثير من الأمور، وأول هذه الطائفة وآخرها لا يقفون مع يأسه جنكيزخان وقوف غيرهم مع مؤاخذه بضهم لبعض أشد المؤاخذه في الكذب والزنى ونبد المواثيق والعهود.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ومن شأن ملوكهم إذا غضبوا على أحد من أتباعهم أخذوا ماله، وباعوا أولاده، وكذلك إذا سرق سرقة استحق المسروق له مال السارق وأولاده، وباعهم، ومن خطب إلي أحد بنته، وأعطاه القليل، زوجه لها ثم لا يعود يسأله عنها كما ذكرنا في مملكة ما وراء النهر.

وقال لي المولى الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم، أن لسلطان هذه المملكة على جميعهم خراج، يتأدى منهم ورعاً، طولبوا بالخراج في سنة ممهلة لوقوع الموتان بدوابهم أو سقوط الثلج (وجماد الجمد)، فباعوا أولادهم لأداء ما عليهم.

وحدثني الشريف شمس الدين محمد الحسيني الكربلائي التاجر في شهر رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة حالة عوده من هذه البلاد، وكان قد تجول فيها في سفره وتغرب فيها، ووصل إلى أقجاكرمان وبلاد البلغار، وقال لي: أنه اشترى في سفرته هذه ممالك وجواري من آبائهم وأمهاتهم لإحتياجهم لخروج يسق ملكهم إليهم بالركوب إلى بلاد إيران، واحتاجوا إلى بيع أولادهم وجلب منهم رقيقاً عالياً غالياً.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وهذه المملكة قديماً هي بلاد القبجاق فلما فاضت عليها التتار صارت القبجاق لهم رعايا، ثم خالطوهم وناسبوهم، وغلبت الأرض على الجبلية والأصل، فصار الكل كالقبجاق كأنهم جنس واحد لسكن المغل بأرض القبجاق ومصاهرتهم لهم، وبلادهم في أرضهم، وهكذا طول المكث في كل بلد وأرض تجوز التجاوز إليها، ويحول الغرائز إلى طباعها كما قدمنا ذكره، (وقد يقل اختلاف الألوان ويزيد لسبب آخر غير البلدية).

قلت: ولقد كان في السرب والبلغار من قديم دار إسلام ومستقر إيمان، ذكر هذا المسعدوي في مروج الذهب. فأما الآن فقد تبدلت بإيماتها كفرةً وتداولتها طائفة من عبّاد الصليب، ووصلت منهم رسل إلى حضرة سلطان مصر سنة إحدى وثلاثين بكتاب إلى سلطانها من صاحب السرب والبلغار، يعرض نفسه على مودته، ويسأل منه سيفاً يقلده، وسنجقاً يُقهر أعداؤه به، فأكرم رسوله، وأعد نزل له وجهاز له معه خلعة كاملة، طرد وحش مقصب بسنجاب مقدس على مفترح اسكندري، وكلوته زركش وشاش بطرزين رقم ومنطقة ذهب وكلاليب ذهب وسيف محلي، وسنجق سلطاني أصفر مذهب، وهم يدارون سلطان القبجاق لعظمة سلطانه عليهم وأخذة بخناقهم لقربهم منه.

قلت: والقسطنطينية مجاورة لأطراف ملك القبجاق، وملك الروم معه في طلب دائم، واقتراحات متعددة في كل وقت وملك الروم على توقد جممرته وكثرة حماته وأنصاره يخاف عادية شره، ويتقرب إليه بالمدارة، ويدافع معه الأيام من وقت إلى وقت، وما زالت الأيام هكذا وما زالت تلك حالهم مع ملوك هذه من أبناء جنكيزخان، منذ تدبروا هذه الأرض، وما تخلو منهم مدة من تجديد عهود، ومسالمة إلى مدد تؤجل بينهم، وأشياء تحمل من جهة ملوك الروم إلى القان بمملكة القبجاق.

ذكر العز الحسن الأربيلي أن بدر الدين حسن الروس التاجر السقّار، حدثه أن حدود هذه المملكة من جهة جيحون خوارزم وصقناق وسوداق وباركند. وجند وسراي ومدينة ماجروازاق والجاكرمان وكفه سوداق وسقسين والكل وبلغار، وأعمال سبروابو (وباشغرد، وجولمان ثم بصر جولمان يتصل حدود أعمال سبر باوائل) حدود بلاد الخطا.

قال: ومدينة باكو هي أحد مدن أقليم شروان، وعندها الباب الحديد الذي يسميه الترك دمرقبو ومن الباب الحديد الذي هو عبارة عن مدينة باكو إلى حدود بلاد الخطا من جهة سبروابر يكون مسير القفل مسيرة خمسة أشهر، هذا هو طول هذه المملكة وفي هذه المملكة من الأنهار الكثيرة المشهورة، سيحون، وجيخون، وطونا، وايتل، وباين، وتن، وطرلو، فمن سيحون إلى طونا مسيرة أربعة أشهر، وبين سيحون وجيخون خمسة عشر يوماً، ومن جيخون إلى باين خمسة عشر يوماً، ومن باين إلى أيتل عشرة أيام، ومن أيتل إلى تن شهر واحد، ومن تن إلى طرلو عشرة أيام، ومن طرلو إلى طونا شهر واحد، ويقلب جيحون وأيتل إلى بحر القلزم وسيحون منهي إلى مقصبة، ورمل تحت مدينة جند بثلاثة أيام فيقلب هناك، وتأتي الأنهر المذكورة تقلب إلى بحر عمان، وهذه السبعة أنهر في هذه المملكة، ويتصل منها إلى أقليم ما وراء النهر سيحون وجيخون.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

قلت: الذي يصح أن جيحون يقلب في بحيرة ملح نحو مائة فرسخ، ويقع بها نهر الشاش أيضاً، وأما من زعم أن جيحون يرمى في القلزم فغلط منه، وإنما اشتبه ذلك لعظم هذه البحيرة، وبين مرمى جيحون ونهر الشاش نحو من عشرة أيام، وتعرف هذه ببحيرة خوارزم، وعلى وسطها جبل يسمى جفر يجمد عنده الماء حتى يبقى إلى الصيف.

قال الأربيلي: ومن مشاهير مدنها بلغار، وأقصر ليلها أربع ساعات ونصف.

قال حسن الرومي: ثم سألت مسعود الموقت بالبلغار عن هذا فقال جربناها بالآلات الرصدية، فوجدناه أربع ساعات ونصف تحريراً، وهو غاية نقصان الليل بها. وأما قصبة افتكون فحررناها فوجدنا أقصر ليلها ثلاث ساعات ونصف أقصر من ليل البلغار بساعة واحدة.

قال: وبين بلغار وافتكون مسافة عشرين يوماً بالسير المعتاد، والقصبة في مصطلح العجم المدينة الصغيرة.

قال: وبعد افتكون بلاد سبر، وأبر، ثم بعدها بلاد جولمان فإذا سافر المسافر من جولمان على شريقها يصل إلى مدينة قراقرم ثم إلى بلاد الخطا وبها القان الكبير، وهي من بلاد الصين، قال وإن سافر المسافر على غربيها وصل إلى بلاد الروس، ثم إلى بلاد الفرنج وسكان البحر الغربي، (قلت: أما الآن فمقر القان خان بالق)، قال وبلاد السبر وجولمان مضافة إلى باشغرد وفي بلاد باشغرد قاضي مسلم معتبر، وبلاد السبر وجولمان شديدة البرودة لا يفارقهم الثلج مدة ستة أشهر، لا يزال يسقط على جبالهم وبيوتهم وبلادهم ولهذا تقل مواشيهم عندهم، وهم سكان قلب الشمال، والواصل عندهم وإليهم من الناس قليل، والأقوات عندهم قليلة، ويحكي عنهم أن الإنسان منهم يجمع عظام أي حيوان كان، ثم أنه يغلي عليها بقدر كفايته ثم يتركها وبعد سبع مرات لا يبقى فيها شيء من الدهن.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال: وهم مع ضيق العيش ليس في أجناس الرقيق أنعم من أجسامهم ولا أحسن من بياضهم، صورهم تامة الخلقة في حسن وبياض ونعومة عجيبة زرق العيون.

وقال العز حسن الأربيلي: وحسن الرومي سافر في هذه البلاد وذكر أكثرها، وقال: قال لي الشيخ علاء الدين بن النعمان الخوارزمي أن طول هذه المملكة من بحر اسطنبول إلى نهر أرلين ستة أشهر، وعرضها من بلغار إلى بلاد بلغار إلى باب الحديد أربعة أشهر تقريباً، وأما الشبهة في دعوى ملوك القبجاق أن توريز، ومراغة لهم على ما أخبرني به المولى نظام الدين أبو الفضائل يحيى الطياري أن القان الكبير، لما جرد هولوكو لقتل الإسماعيلية، ومن كان يتعص بالجبال، سأله هولوكو في تكثير الجيوش معه، فجرد معه من عسكر كل واحد من ملوك بني جنكيزخان عسكراً.

فلما فتح بهم ما فتح من البلاد بقيت تلك العساكر معه فرتب لكل فرقة منهم علوقه على قطر من الأقطار، فكان ما رتب للعسكر المجرد معه من جهة صاحب بلاد القبجاق وخوارزم على توريز ومراغة، فبقوا يأخذوا علوفتهم منها،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ثم لما مات هولوكو، وملك ولده ابغا خادعوه بطريق أن سلطانهم بركة يريد أن يبنى جامعاً بتوريز فمكنهم منه، فبنوه، وكتبوا عليه اسم السلطان بركة؛ ثم سألوا أن يعملوا لهم كرخاتاه لاستعمال أقمشة لهم بها فمكنهم منها، وبقوا يستعملون بها القماش للسلطان بركة، ودام الحال على هذا إلى أن وقع بينهما، وتلاقيا، وكسر بركة لابغا فحنق أبغا وأبطل الكرخانه.

ثم لما نُسيت تلك الواقعة الكائنة وهُدىء ما بين مُلكي الملكين، أُعيدت الكرخانه، على أنهم هم يحضرون من بلادهم أموالاً لاستعمال ما شاءوا فيها، فلما تمادت المدد، وجعلوا الجامع والكرخانه المبين باسم السلطان بركة سبباً لهذه الدعوى، ولقد جاءت رسلمهم إلى محمود غازان يطلب توريز ومراغه، وقالوا له هذه جيوش أبينا، فتحها بشيؤفهم، وهي لنا وحقنا بالإرث عنهم، فأعطينا حقنا، فقال لهم قازان: أنا ما أخذت الملك إلا بالسيف لا بالميراث، وما أخذته وحزته بسيفي توريز ومراغه، وبينني وبينكم السيف فيها، ثم لم يزل السلطان أربك القائم الآن بمملكة القبجاق يتعلق بحبال هذه الشبهة ويطالب بدعوى هذه الوراثة، وسئل الشيخ علاء الدين بن النعمان عن جيشوه فقال كثيرة تفوق الحصر، فقال كم هم بالتقريب؟ فقال لا أعلم، لكن خرج مرة عليه وعلى القان الكبير أسنيغا سلطان ما وراء النهر، وتغلب، وقطع الطريق، وقال: أنا أحق بالملك منهما، ونهب السيارة، وأخرج يداً عن طاعة القان فكتب القان إلي تقنقا بأن يقاتله، فجرد إليه من كل عشرة واحد، فبلغ عدد المجردين مائتا وخمسين ألفاً، قال: النعمان وهذا الذي دخل تحت العدد والإحصاء سوى المجتمعة والطماغة.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال: وألزم كل فارس بگرامين، وثلاثين رأساً من الغنم وخمسة رءوس من الخيل وقدرين نحاساً، وعجلة يرسم حمل السلاح، وغزا استنبغا، وكسره، وانتصر عليه نصرة ظاهرة، ثم عاد مؤيداً منصوراً. قال: النعمان مبدأ عرض هذه المملكة من دمر قبو وهي مدينة من بناء الإسكندر كان عليها باب من الحديد، وليس هو الآن، إلى بلاد بوغرة، وطولها من ماء لمرنس، وهو أعظم من نيل مصر بكثير من ناحية بلاد الخطا إلى اصطنبول وتجاوز هذا الطول قليلاً إلى بلاد تسمى نمج.

قال: وبلاد نمج مشتركة بين بلاد الروس والفرنج.

قال النعمان: والتجار لا يتعدون مدينة بلغار يسافرون إلى بلاد جولمان، وتجار جولمان يسافرون إلى بلاد بوغرة لأنها في أقصى الشمال وليس بعدها عمارة غير برج عظيم من بناء الإسكندر على هيئة المنارة العالية وليس بعده مذهب إلا الظلمات، فسئل: أي شيء عندك الظلمات؟ قال: صحار وجبال لا يفارقها الثلج والبرد، ولا تطلع عليها الشمس ولا ينبت فيها نبات، ولا يعيش فيها حيوان أصلاً، متصلة ببحر أسود لا يزال يمطر، والغيم منعقد عليها، ولا تطلع عليه الشمس أصلاً أبداً. قال: النعمان: إن الإسكندر مر بأطراف أوائل جبال الظلمات القريبة من

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

العمارة فرأى فيها إنساناً من جنس الأتراك أشبه الناس بالوحوش، لا يعرف أحد بلغتهم، وإذا مسكهم أحد فروا من يده، يأكلون من نبات الجبال المجاورة لهم، فإذا قحطوا أكل بعضهم بعضاً فمر بهم ولم يعترضهم. قال: النعمان وقد ذكر صاحب مملكة القبجاق، وأكثر رعية هذا الملك سكان غربي الشمال، وهم أمم لا يحصون، وأكثرهم روس، ثم من بعدهم أتراك دشت القبجاق، وهم قبائل كثيرة، فيهم مسلمون، وفيهم كفار، ويبيعون أولادهم وقت الغلاء والقحط، وأما في الرخص فيسمحون ببيع البنات دون البنين، ولا يبيعون الولد الذكر إلا عن غلبة.

وحدثني الفاضل شجاع الدين عبد الرحمن الخوارزمي الترجمان أن مدينة السراي بناها بركة قان على شط نهر توران، وهي في أرض سبخة بغير سور، ودار الملك بها قصر عظيم، على عليائه هلال ذهب قنطاران بالمصري، ويحيط بالقصر سور به أبراج مساكن لأمرائه، وبهذا القصر مشتاهاهم. قال: وهذا النهر يكون قدر النيل ثلاث مرات أو أكثر، وتجري به السفن الكبار تسافر إلى الروس والصقل، وأصل هذا النهر أيضاً من بلاد الصقل.

قال: وهي يعني السراي مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ووجوه مقصودة بالأجلاّب في وسطها بركة ماءؤها من هذا النهر، يستعمل ماءؤها للاستعمال، وأما شربهم فمن النهر، يستقى لهم في جرار فخار، ويصف على العجلات، وتجري إلى المدينة، وتباع بها، وتُعدّها عن خوارزم نحو شهر ونصف، وبينها وبين السراي مدينة وحق ومدينة قطلوكت، ودينارهم رائج عنه ستة دراهم. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال: والأسعار في خوارزم والسراي لا يكاد تباين ما بينهما، والرطل الخوارزمي وزنه ثلاثمائة وثلاثون درهماً، وأقواتها فيما يذكر من القمح والشعير والدخن ويسمى عندهم الأزرن والماش والجاورس وهو شبيه بحب البرسيم وليس يباع عندهم هذه الحبوب إلا بالرطل يقال كل حمل حمار بكذا، وحمل الحمار عندهم مائة رطل، بهذا الرطل، والسعر المتوسط للقمح بدينارين ونصف، وكذلك الماش والشعير بدينارين، وكذلك الدخن وكذلك الجاورس أو أزيد، والغالب أن يكون سعره قياس سعر القمح، وسعر الشعير واللحم الضاني على السعر المتوسط في كل ثلاثة أرطال بدرهم. وبها من أنواع الفواكه إلا النخل والزيتون وقصب السكر والموز والأترج والليمون والنارنج، وفيها من أنواع الطير والوحش، وبها الغزلان كباراً جداً، يكون الغزال قد يقر الوحش.

وبها معدن يخرج منه أحجار يعمل منها قدور، تقيم القدرة نحو ستين سنة، ولا يتغير، وبها جبل يقال له جبل الخيل من خوارزم، به عين تعرف به ذوو الأمراض المزمنة، يقيمون عندها سبعة أيام في كل يوم يغتسلون بمائها بكرة وعشية، ويشربون عقيب كل اغتسال إلى أن يتضلعوا فيحصل له البرء، ويجيحون سمكة لا يوجد بها عظم إلا الميل الذي في سلسلة الظهر بشعب وإلا فكلها لحم ورأسها غضروف.

وخوارزم على جيحون بين شعبتين منه مثل السراويل، وبخوارزم مائة بيت يهود، ومائة بيت نصارى لا غير، ولا يسمح لهم في الزيادة على ذلك.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وبلي خوارزم أرض مدورة وتسمى هذه الأرض المدورة منقشلاغ، طولها خمسة أشهر، وعرضها كذلك، وكلها صحراء، وسكانها أمم كثيرة من البرجان، ويفصل بين هذه الأرض وبين جيحون جبل اسمه آق بلقان شمالي خراسان، وخوارزم إقليم منقطع عن خراسان وعماء وراء النهر، وبحيط فيها المفاوز من كل جانب، وحده متصل بحد الغربية مما يلي الشمال، والغرب وجنوبه وشرقيه خراسان، وهي على جانبي جيحون، وقصبتها في الجنوبي الشمالي منه، ويسمى كات باللغة الخوارزمية، وفي الجانب الجنوبي الجرجانية. وفي هذا الإقليم عدة مدن، وأول مدن خوارزم بلد يسمى الظاهرية مما يلي أمل، وتمتد العمارة في جانبي جيحون معاً، وملوك هذه المملكة مشتاهم السراي كما ذكرنا، ويصيفهم بم. وجميع ملوك توران وتتاها بجبل اسمه آراق طاغ طولها من أقصى الصين إلى أقصى الغرب، ينقطع بالبحر المحيط عند منتهى سبته، ويقع البحر الرومي، وكلما أشتق منه وسائر بلاد توران في جنوبه. اسم الكتاب: مسالك الأبصار وحدود مجموع مملكة أزيك طولاً من درغان خوارزم من المشرق إلى كاشغر وعرضاً من خوارزم إلى أقصى بلاد سبر التي يجلب منها السمرور والسنباب، وهي من بلاد الصقالبة، قال: وليس بعدهم في العمارة شيء. وقال: وقد جاء بجدي فتى من بعض أهلها كيف تكون صلاة أهل بلد لا يغيب عندهم الشفق حتى يطلع الصبح لسرعة انقضاء الليل؟ قال: فلما صارت هذه المملكة بعد ملوك الخوارزمية إلى بني جنكيزخان استمروا بعساكر خوارزم على حالهم على إقطاعاتهم، وكل من كان بيد آبائه شيء، هو الآن بيد ابنائه. قال: والأمراء لهم بلاد منهم من يغل بلاده في السنة مائتي ألف دينار رائجاً وما دون ذلك إلى مائة ألف دينار رائجاً.

وأما الجند فليس لأحد منهم إلا نقود تؤخذ من علي النطع، وكلهم سواء، لكل واحد منهم في السنة مائتا دينار رائجاً، وقد كان زيهام زي عسكر مصر والشام في الدولة الإسلامية، وما يناسب ذلك فأما الآن فزيهم زي التتار إلا أنهم بعمائم صغار مدورة.

الفصل الرابع

في مملكة الإيرانيين

وهي العراق والعجم وخراسان، هذه المملكة طولاً من نهر جيحون المحيط بأخر حد خراسان إلى الفرات القاطع بينها وبين الشام، وعرضاً من كرمان المتصل بالبحر الفارس المنقسم من البحر الهندي إلى نهاية ما كان بيد بقايا الملوك السلجوقية بالروم، على نهاية حدود العلایا وإنطاكية من البحر الرومي، ويفصل في الجانب الشمالي بين هذه المملكة وبين بلاد القبجاق النهر المجاور لباب الحديد، وهو المسمى باللغة التركية دمرتايو، وبحر طبرستان وهو المسمى ببحر الخزر وبالقلزم.

أخبرني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم الطياري أن هذه المملكة تكاد تكون تربية، فيكون طولها بالسير المعتاد أربعة أشهر، وعرضها أربعة أشهر، وهذه هي المملكة الصائرة إلى بيت هولكو بن تولي بن جنكيزخان، وتداولها السلاطين من أبنائها إلى الآن. وهي متوسطة في المعمور؛ من أجل ممالك الأرض وأوسطها في الطول

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

والعرض، وبها تخت الأكاسرة إلى أن تسلمه الإسلام، ثم استقرت بها قاعدة الخلافة العباسية إلى آخر الأيام، ذات أقاليم كثيرة. ومدن كثيرة، مشتملة على رساتيق وأعمال وخطط وجهات. وقاعدة الملك بها الآن توريز ثم السلطانية وبيت هولكو يرون أن الملك من قعد على التخت باوجان وأوجان في ظواهر توريز. وفيها من الممالك العظيمة العراق؛ عراق العرب، وعراق العجم وخراسان وكرمان وفارس وأذربيجان وآران والري والجلال وديار بكر وربيعة والجزيرة وأرمينية وكرجستان والروم، وإذا أنصفت هذه المملكة كانت قلب الدنيا على الحقيقة.

وهذه المملكة تدرج في مطاويها عدة ملوك كلهم عبيد سلطانها، كصاحب هري، وأصل اسمها هراة، وصاحب كرمان وصاحب كيلان، وصاحب سمنان وصاحب مالان وصاحب أرزن، ونحن نتكلم على قواعد الملك بها. أما توريز فواقعة في أذربيجان، وهي مدينة قديمة، أغرقت في السعادة أنسابها، وثبتت في النعمة قواعدها. وأما السلطانية فواقعة في عراق العجم بناها السلطان محمد خدابنده أو بخاتوين أرغوت بن أبغا بن هولكو، بناءها، ووسع قناتها، وأتقنت قسمتها في الخطط والأسواق وجلب إليها الناس (من أقطار الأرض)، ومن أقطار مملكته، واستجلبهم إليها بما بسط لسكانها من العدل والإحسان، وهي الآن عامرة أهلة، كأنما مرت عليها مئتين سنين، لكثرة من استوطنها، وتأهل بها وأولد من الولد فيها، وقد مضت عليها مدة بلغ بنوها مبالغ الرجال، ومنهم من جاز إلى رتبة الإكتهال. وأما أوجان فهي بظاهر توريز ذات مروج ممتدة وماء جم، وبها قصر اتخذهُ أواخر ملوكهم صار معداً لمنزل السلطان، وبنى أكابر الأمراء قصوراً ل منازلهم حوله، فأما عامة الخواتين والأمراء والكراء، فإنهم يتخذون زرواً من القصب كالخطائر، ينزلون بها أيام نزولهم بأوجان في مشاتهم، وينصبون مع حظائرهم الحزكاوات والخيم، وتمتد الأسواق، وتبقى مدة مشتهاهم بها، مدينة متسعة الجوانب، فسيحة المذهب، حتى إذا رجعوا (عنها) إلى مصيفهم راحلين عنها، أحرقوا تلك الخطائر، لكثرة ما يتولد فيها إلا يحرق من الأفاعي والحيات.

أخبرني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم أنه يُغرم على تلك الخطائر خزائن أموال ثم يحرقونها لا يبالون؛ وملوك هذه المملكة مشتهاهم باوجان، وفي بعض السنين ببغداد، وأما مصيفهم فيقرا باغ باللغة التركية وحتى البستان الأسود، وترتبه سوداء، ثم قرى ممتدة، وهو صحيح الهواء والماء، كثير المرعى، وإذا نزل به الأردو، والأردو هو محلة السلطان، وأحدث الأمراء به والخواتين منازلهم ينصب به مساجد جامعة وأسواق متنوعة، يوجد بها من كل ما في أمهات المدن الكبار، (حتى يكون للخياطات أسواق ومحلات) ولا ينكر على أحد بل كل امرئ وما استحس، وإنما الموجودات على كثرتها من (الملابس) والمأكّل والمشارب والماعون، وأجر الصنائع غالية جداً، لكلفة

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

المحمل، ومؤنة الأسفار، حتى يبلغ الشيء ثمن مثله مرتين وأكثر. وأما الكلام في توريث فإنها مدينة غير كبيرة المقدار والماء مساق إليها، وبها أنواع الفواكه، ولكنها ليست بغاية في الكثرة. اسم الكتاب: مسالك الأبصار. وأما أهلها فمن أظهر الناس حشمة، وأكثرهم تطاهراً بالنعمة، ولهم الأموال المديدة والنعم الوافرة والنفوس الأبية للدنيا، ولهم التجميل في زيهم جميعه من المأكول والمشروب، والملبوس والمركوب، وما منهم إلا من يأنف أن يذكر الدرهم في معاملته بل لا معاملة بينهم إلا بالدينار وهو مسمى عندهم بالرائج، عندهم ستة دراهم، هو معاملة تلك المملكة إلا بغداد وبلادها وخراسان. فأما معاملات بغداد فستأتي في مكانها، وأما خراسان فدينارها أربعة دراهم، كما تقدم ذكره في مملكة ما وراء النهر، وفي بعضها هذا الرائج.

ولنرجع إلى ما كنا في ذكره من أمور توريث، فذكرنا أنها مدينة ليست بخارقة في الكبر، ولا لها حواضر في خارجها، وهي اليوم أم إيران جميعاً لتوجه القاصد من كل جهة إليها، وبها محط رجال التجار والسفار، وبها دور أكثر الأمراء الكبراء المصاحبين لسلطاتها، لقربها من أوجان، وهي مستقر أكثر أوقاتهم، ويشد البرد بتوريث كثيراً، وتتوالى الثلوج بها حتى أنه ليتخذ سروات أهلها في أدرهم أدر مستوية لا انفراج وفي سقوفها ولا في دوائرها ولا ضوء لها إلا ما تؤديه طاقات حيطاتها من وراء الزجاج المركب عليها. وأما السلطانية فأوسع بقعة وقضاء وأكثر فاكهة وماء، وهي مع كون بعض سلاطين هذا البيت أنشأها، إمامهم بها أقل من توريث، وبها قلعة مبنية مرحلة على بسيطها، فأما الموجود بتوريث وبالسلطانية من الفواكه فمن أنواعها خلا ما لا يطلع في البلاد المفرطة البرد كالأنج والنارنج والليم والليمون والرطب والقصب والموز، وما يجري هذا المجرى، فإنه لا يجيء إليها إلا محمولاً من العراق، هي بلاد ما للزيتون بها نبات، فأما ما عدا هذا من الثمار والرياحين وغالب الخضروات، فإنها لا تعدم، وأنواعها من كثير ومتوسط وقليل على اختلاف الشجر والنبات والقمح والشعير والحمص والعدس، والفول متوسط الوجود بها، ولو توفرت الدواعي على الفلاحة والزرع لكثرت مغلاتها، وعظمت جباياها لكن ملوكها لا القفات لهم إلى ذلك.

فأما الأسعار بتوريث والسلطانية فمتى نزل السلطان على جهة، غلت أسعارها لكثرة أتباعه والنازليين معه، مع قلة الزرع في الأصل، وأما ما لا ينزل عليه السلطان، فأسعاره زخية، ولا إلى غاية، ولا يباع بتوريث والسلطانية وبلادهم (يعني أهل هذه المملكة غالباً)، في الغالب قمح ولا شعير ولا شيء مما سوى هذا إلا بالميزان، وليس لهم إلا المن وهو بتوريث رطلان بالبغدادي فيكون زنته مائتين وستين درهماً، وبالسلطانية المن زنته ستمائة درهم وأما معاملتهم فكما تقدم بالدينار الرائج.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار. سألت الفاضل نظام الدين أبا الفضل يحيى بن الحكيم عن السعر المتوسط في توريث والسلطانية، فقال: أما مع نزول السلطان فغلاء حيث كان، وأما مع

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

عدم نزوله فلا يكاد يتفاوت، يباع الخبز كل منين بسدس دينار، وهو درهم واحد، وهكذا الشعير إذا رخص قليلاً، وأما في السلطانية فعلى نسبة هذا السعر، وأما ما يباع بالأردو، فأعلى لتكليفه حمولته، وأما اللحم في الكل فكثير جداً. ومما لا بد من ذكره في هذه المملكة مدينة بغداد دار السلام ومدار الإسلام لأنه مما لا يجوز إهمال ذكرها وإخلاء هذا الكتاب من شيء عن حالها، فإنها، وإن لم تكن اليوم كرسي مُلك، فإنها كرسي ملك الوجود، وقد تقدم القول أن المنصور أبا جعفر بناها، وهي جنبان على ضفتي دجلة، شرقي وغربي كل منهما مدينة كبيرة عظيمة غنية بنفسها عن الأخرى، إحداهما بناء المنصور، والأخرى بناها المهدي موضع معسكره، وبينهما جسران منصويان، أحدهما يعرف بالعتيق والثاني بالجديد، وهما منصوبان على دجلة شرقاً وغرباً على سفن وزواريق أوقفت في الماء، ومدت بينها السلاسل الحديد المكعبة بالكعاب الثقال، وفوقها الخشب الممدد وعليهما التراب مغدق بالقير يمر عليها أهل كل جانب إلى الآخر بالجمال والخيول والحمول، وعلى ضفتي دجلة قصور الخلافة والمدارس والأبنية العلية، بالشبابيك والطاقت المظلة على دجلة.

وبناؤها بالآجر وهو المسمى بمصر الطوب، ومن بيوتها ما هو مفروش بالطوب وما هو مفروش بالقير، ولهم الصنائع العجيبة في التزويق بالطوب، وبها تتلاقى دجلة والفرات، وبها البساتين المونقة، والحدائق المحدقة. وأما النخيل فلثمراتها فضل على ما سواها من أنواع متنوعة من التمر والرطب وبها أنواع الرياحين والخضروات والغلال، وسعرها متوسط في الغالب، لا يكاد يرخس، بها ديناران أحدهما يسمى العوان عنه اثنا عشر درهماً، الدرهم بقيراط وحبتين، وذلك الدينار عشرون قيراطاً، كل قيراط ثلاث حبات، كل حبة أربع فلوس نقرة عن كل فلسان أحمران. والثاني الدينار المرسل به أكثر ومبايعاتهم ومعاملات تجارهم عنه عشرة دراهم.

فأما الرطل البغدادي فوزنه مائة وثلاثون درهماً، والمن بها مثله من توريز، وهو رطلان بالتوراني، وأما كيل الغلال بها فأكثرها الكز، وهو ثلاثون كاره وكل كاره قفيزان فيكون الكز ستون قفيز، والقفيز مكوكان والمكوك خمس عشر آق. وتختلف الكاره في الغلال والقمح والهرطبان، وهو كاره كل منهما مائتان وأربعون رطلاً، وكاره الأرز ثلثمائة رطل، وكاره كل من الشعير والحمص والعدس (والهرطبان) مائتا رطل، وكاره الحبة السوداء المسماه بالشونيز مائة رطل.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
قال الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم إن القانون ببغداد أن كز القمح تسعة وثلاثون ديناراً ونصف دينار، والشعير خمسة عشر ديناراً، كلاهما من العوان.

قال: ولعل هذا السعر المتوسط، لا يكاد يميل فيه القانون عن معدله، وأما إذا كان المشتى ببغداد، فناهيك بقلّة الأقوات والغلاء الزائد، وإذا شتى السلطان ببغداد (ناهيك بقلّة الأقوات)، نزل بدار تعرف بالجاتليق من أدّر الخلافة، وهي الآن باقية البناء تامة البهجة صالحة لمنازل الملوك.

قال قاضي القضاة أبو محمد الحسن الغوري أنها ليست من ديار الخلفاء، بل هي دار الدوادار الكبير وكان قد نزلها الجاثليق في زمان هولوكو، وكان معظماً عنده لمكانته من قطر خاتون زوجة هولوكو.

ولقد سألت الصدر مجد الدين بن الدوري عن السبب في قلة الغلال ببلاد العراق مع امتداد سوادها وقبول أرضها للنبات، فقال: لهذا سببان قلة الزّراع لما استهلكه القتل زمان هولوكو، وميرة العراق لما جاوره من البلاد. وبغداد خاصة وهذه المملكة عامة الآثار الجميلة والآثار الباقية من الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والربط والبيمار ستانات والصدقات الجارية ووجوه البر المتعددة.

ومن يوفى صفات محاسن العراق، وقد كانت قبلة ملوك الآفاق، وما بالعهد من قدم، ومنها قلائد الأعناق، وتراها لى القبل وإثم الأحداق.

وسألت الفاضل نظام الدين أبا الفضائل يحيى بن الحكيم إن كانت الأوقاف باقية في نواحي هذه المملكة عليها الآن أم تناولتها أيدي العدوان، فأخبرني بأنها جميعها جارية من مجاريها، لم يتعرض إليها متعرض لا في دولة هولوكو ولا فيما بعدها بل كل وقف بيد متوليّه ومن له الولاية عليه وكل ما يقال من نقص أحوال الأوقاف بإيران جميعاً هو من سوء ولاة أمورها لا من سواهم.

وحدثني هذا الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيى بن الحكيم الطياري بكثير من أحوال هذه المملكة وقواعد ملوكها وترتيب جنودها وجيوشها، فمما حدثني أن السلاطين بها لا التفات لهم إلى أمر ولا نهى في البلاد، ولا في متحصلات الدخل والخرج فيها بل الوزير هو حامل هذه الأعباء، وله التصرف المطلق في الولاية والعزل والعطاء والمنع، لا يشاور السلطان إلا على ما جل من المهمات، وفيما قل من الأمور، بل هو السلطان حقيقة، وصاحب البلاد معنى، وإليه ترجع الأمور كلها، وبيده عقدها وحلها.

فأما أمر الجيوش والعساكر فإلى كبير أمراء الألوس وهو المسمى بكلاري يك، أي أمير الأمراء، كما كان قطلوشاه مع السلطانين محمود غازان وأخيه محمد خدابنده وجوان مع محمد خدابنده ثم بعده مع ولده السلطان بوسعيد بهادرخان، وهذا القائم الآن الشيخ حسن بن حسين بن آقبا مع أنه السلطان محمد بن طشتمر بن استمر بن عبرجى وأمراء الألوس أربعة بكلاري بك، وثلاثة آخر، ويسمى هؤلاء الأربعة أمراء القول، ويشترط أن يكون هؤلاء هم الذين تُكتب أسماؤهم في اليراليغ والفرمانات بعد اسم السلطان، ثم اسم الوزير بعدهم ولا يتوقف في كتابة اسم من الأسماء ممن هو غائب منهم عن الأردن، بل تُكتب أسماؤهم كلهم، حضر منهم من حضر وغاب منهم من غاب، وكل ذي سيف لا يخرج أمره عن القائم بهذه الوظيفة التي هي إمرة أمراء الألوس، وكل ذي قلم ومنصب شرعي لا يخرج عن الوزير، وطبقات الأمراء أعلاها والنوين وهو أمير عشرة آلاف، ثم أمير ألف، ثم أمير مائة، ثم أمير عشرة، هذه طبقات رتبهم لا نقص فيها ولا مزيد عليها وعامة العسكر لا تزال أسماؤهم في دواوينهم على الأفراد بل كل طائفة عليهم في الديوان فارس معين، إذا رسم له بالركوب، رعبوا منهم العدة المطلوبة.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وسألت الفاضل أبا الفضائل يحيى بن الحكيم عن مقدار عدة الجيش فقال: أما المنزل في دواوينهم فما يبلغ عشرين تومانا، وأما إذا أرادوا ركبوا بثلاثين تومانا، وما يزيد عليها وهم اليوم في انتبات شمل، وشتات آراء، لا يلتم لهم جمع، ولا يضمهم وفاق، قلت له: فكم مقدار ما لهؤلاء من الأرزاق؟ فقال: أما ما هو مستقر لهم في دواوينهم من زمان هولاكو فلا يرضى أحدهم من كبارهم به ولا بأضعافه مرات، وأما الصغار فما يتجاوز واحد منهم المستقر له.

قلت: فكم هو المستقر في الديوان؟ وبكم يقنع كبارهم الآن؟ فقال لي: المقر من قديم لكل نوين أمير تومان، تومان وهو عشرة آلاف دينار رائج عنها ستون ألف درهم، وأما اليوم فما يقنع النوين منهم إلا بخمسين تومان وهي خمسمائة ألف دينار رائج، عنها ثلاثة آلاف ألف درهم، ومن خمسين تومان إلى أربعين تومان، وأما كبيرهم بكلازي بك فالذي استقر لجويان ثم لمن بعده ثلاثمائة تومان، وهي ثلاثة آلاف ألف دينار عنها ثمانية عشر ألف ألف درهم، مع ما يحصل لكل من أمراء الألويس الأربعة من الحزم الكثيرة في البلاد جميعها عند تقديرات الضمان لها على ضمانها، على ما تنبه عليه في موضعه. قال: وأما أمير الألف ومن دونه فلا يتجاوز أحد منهم مقرره القديم في الديوان لأمر الألف ألف دينار رائج عنها ستة آلاف درهم، وأما أمير المائة والعشرة، وكل واحد من العسكرية أي الجند، فمائة دينار رائج، عنها ستمائة درهم لا تفاوت بينهم، هذا هو المقرر الجاري من قديم، وإنما تبقى مزية أمير المائة أو العشرة أنه يأخذ لنفسه شيئا مما هو للعسكرية. ولكل طائفة أرض لنزولهم توارثها الخلف عن السلف منذ ملك هولاكو هذه البلاد، فيها منازلهم، ولهم بها مزدراع لأقواتهم، لكنهم لا يعيشون بالحرث والزرع.

هذه جملة ما هو لعساكر إيران مما ازداد، وما هو مستقر في الديوان، وأما الخواتين فالذي لهن الآن منه ما يبلغ للختون الواحدة، مائتا تومان، وهو ألف ألف دينار، عنها اثنا عشر ألف ألف درهم، وما دون ذلك إلى عشرين تومان، وهو مائتا ألف دينار عنها ألفان ألف ومائتان ألف درهم. وقال لي الفاضل أبو الفضائل يحيى بن الحكيم: وهذا قد يزيد وينقص. وأما الوزير فله مائة وخمسون تومانا، هو ألف ألف وخمسمائة ألف دينار رائج، عنها تسعة آلاف ألف درهم، قال: ولا يقنع بعشرة أضعاف هذا في تقارير البلاد.

وأما الخواجية من أرباب الأقلام فمنهم من يبلغ في السنة ثلاثين تومانا، وهي ثلاثمائة ألف دينار عنها ألف ألف. وثمانمائة ألف درهم، قال: وبهذه المملكة ما لا يحصى من الإدارات والمعيشات والمرسومات، حتى أن بعض الرواتب تبلغ عشرين ألف دينار، وأما الإدارات من المبلغ أو القرى فإنها تبقى لصاحبها كلك يتصرف فيه كيف شاء، من بيع وهبة ووقف لمن أرادوا المعاييش لمدة الحياة غير المرسومات والإنعامات، قال: وهي ما لا يحصى. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال: ومن هؤلاء من المستوفيين من له الضبط على اتساع أقطار الممالك. قال: وأما وظيفة القضاة فعادة هذه المملكة أن يكون بها في صحبة السلطان

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

قاضي قضاة الممالك وهو يولى في جميع المملكة على تنائي أقطارها إلا العراق، فإن لبغداد قاضي قضاة مستقل بها، يولى بها، وفي بلادها جميع عراق الغرب.

وقال لي قاضي القضاة أبو محمد الحسن الغوري، أن آخر ما استقر له ست قرى وتومان عشرة آلاف دينار في السنة.

قال الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحنى بن الحكيم: أن ملوك هذه المملكة وأمرائها لهم ميل كلي إلى الشراب، فملوكها اشتغالهم كله بلبذاتهم، وأمور دولتهم منقسمة بين أمراء الألوس والوزير على ما تقدم، ولاشتغال سلاطينهم باللبذات وانعكافهم على منى نفوسهم، ومنتهى شهواتهم أعرضوا عن تدبير البلاد وأحوالهم، ولم يفكروا في مالها أن كثر أو قل، وبمملكتهم كبش ونعمان، وهما مغامس اللؤلؤ، وبالدامغان في جبلها معدن ذهب.

قال لي شيخنا الإمام العلامة فريد الدهر شمس الدين أبو الثناء محمود الأصفهاني: إن هذا المعدن قليل المتحصل لكثرة ما يحتاج من الكلف حتى يستخرج، وبشتكاره شرقي العجم البازهر الحيواني، يوجد بمعاليق الأيائل وهو الذي لا يباريه شيء في مقاومة السموم.

قال ابن البيطار وأجوده الأصغر ثم الأغبر وخاصته النفع من السموم الحيوانية والنباتية، ومن عض الهوام ولدغها، وإذا شرب منه مسحوقاً أو مسحوقاً وزن أثنى عشر شعيرة، خلص من الموت، وإذا امتصه تبادر للسم نفعه، وإن نثر على موضع لسع الهوام خين يلسع اجتذب السم، وبها الإئتمد على مسافة يوم من أصبهان في حفر بالأرض، وهو الذي لا يقوم شيء مقامه، وإنما قل النوع الجيد الآن.

سألت شيخنا شمس الدين محمود الأصفهاني عن سبب قلته، فقال: لانقطاع عرقه، فما بقى منه يوجد إلا ما لا يرى منه.

وبهذه المملكة مستعملات القماش الفاخر من النخ والمخمل والكمخا والعنابي والتصافي والصوف الأبيض المارديني، وهو في النهاية في بابه، ويعمل البسط الفاخرة في مواضع بها مثل شيراز وأقصرا وتوريز.

وحدثني شيخنا فريد الدهر شمس الدين أبو الثناء محمود الأصفهاني أن بمدينة قمشمير مسرة ثلاثة أيام عين أصفهان عن ماء سارحة نزره، يسمى ماؤها بماء الجرادلة، خاصيته أن يحمل من مائها في إناء إلى الأرض التي أتاها الجراد، فيعلق ذلك الإناء في تلك الأرض، فيقصدها ما لا يحصى من طير، يقال له سار يأكل ما فيها من الجراد حتى يفنى.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال شيخنا شمي الدين: وتعلق هذه الإناء شرط في خاصيته، بحيث لا يمس الأرض من طريقه ولا في مكان تعليق.

وحكى لي الأمير السيد المجيد في كتابه محمد بن حيدر الشيرازي أنه بين الدامغان واستراباذ من خراسان عيناً ظاهرة إذا ألقى فيها نجاسة، فار ماؤها وأزيدت وتكرر جوها.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وحدثني شيخنا فريد الدهر شمس الدين الأصفهاني أن بماز نذران، وهي المسماة طبرستان عين ماء، من حمل من مائها، تبعته دودة طول أنملة الإنسان، فلو حمل الماء تسعة، وكان معهم عاشر لم يحمل الماء، تبع كل واحد ممن حمل دودة، ولم يتبع العاشر الذي لم يحمل شيئاً، فإن قتل واحد منهم تلك الدودة استحال الماء مُراً لوقتته، واستحال ماء كل من هو وراءه مرّاً، وأما من هو على جانبه فلا يستحيل ماؤه.

ومن عادة هذا السلطان أن يصحبه في الأردو في كل حل ومرتلح أعيان من العلماء والمدرسين برواتب جاريات على السلطان، ومع كل منهم فقهاء وطلبة، وهؤلاء هم المسمون بمدرس السيارة، ومعهم أعيان الحوافية الرؤساء، وطوائف الدواوين والكتاب ومن جميع أرباب الصنائع والمهن، حتى يكون الأردو كالمدينة العظيمة، ينزل ويرحل معه، وأخبرني الصدر مجد الدين إسماعيل السلامي أنه يوجد بالأردو خيم وخركاوات منصوبة تكثر للناس لمن يصحب الأردو وماله مأوى أو من يجيء غريباً إليه، يكثر بها، وينزل فيها، وبها الكبار والمتوسطات والصغار وأسواقهم، وهي المسماة بالبازار، مشتملة على ما يكون في المدن العظام من الملبوس والمطعوم والمشروب وغير ذلك بما لا حاجة بنا إلى ذكره، وليس يعترض ناسكهم على فاتكهم، ولا قاتلهم من باسلهم.

ومن قاعدة هذا السلطان أنه إذا نزل منزلاً وهو المسمي عنده البيرق، ينصبه بالبعد منه علماً لا يتجاوزهم راكبه، وأمرأؤه يلتزم معه أعظم الآداب، فما منهم أحد إذا قارب خركاه القان على نحو عشرين علوة نشاب أو أكثر إلا ينزل عن فرسه ويمشي.

قال لي الصدر مجد الدين إسماعيل أنه رأى جوبان على ما كان بلغ من العظمة، وبو سعيد معه اسم بلا معنى، وهو متى وقعت عينه على الأردو، نزل، ومشي، فيتعب لبعد المسافة، فيقعد على كرسي صندلي ليسترخ، ثم يمشي، ثم يقعد ليسترخ مرات حتى يصل إلى باب الكرباس وهو باب الخان.

قال: ولكل من الخواتين، وكل من الأمراء الأكابر يرق بذاته، ينزل فيه، وكل يرق من هذه كاهل بالأسواق، وكل ما يحتاج إليه من عادة هذا السلطان أن لا يعمل مراكب ولا يجلس لخدمة، ولا لقراءة قصص عليه، وإبلاغ مظالم إليه بل له من أبناء الأمراء خاصة له، يقال لهم الأبناء، فيه هؤلاء هم، لا يكاد منهم من يفارقه.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

فأما الأمراء فإنهم يركبون في غالب الأيام إلى باب الكرباس، وينصب لهم هناك كراسي صندليه، يجلس كل أمير على كرسي بحسب مراتبهم الأعلى ثم الأدنى، ويدخل الوزير في بكرة كل يوم على القان، ويبقى الأمراء على باب الكرباس، إما يخرج القان أو يأذن لهم أو لا هذا ولا هذا، فإذا حضر طعام القان، بعث إلى كل أمير منهم شيئاً للأكل بمفرده، يأكل هو ومن انتظم معه، لم يتفرقون كل واحد إلى بركة من أنفق يحضون من الأمراء من حضر ومن لم يحضر لم يطلب بحضور إلا أن دعت الحاجة إلى طلب أحد منهم طلب. ول هؤلاء شغل شاغل بالركوب إلى الصيد في غالب أيامهم فهم يجتمعون بعضهم ببعض، ولهذا ما لهم يوم مخصوص بموكب ولا خدمة، فأما من له ظلامة، فشكواه إن كانت متعلقة بالعسكرية إلى أمير الألوس، وإن كانت

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

متعلقة بالبلاد والأموال والرعايا فشكواها إلى الوزير، وفي الغالب ما يكون أمير الألوس بالأردو، ولانفراد في المصيف أو في المشتى أو الصيد أو قصد ثغر من الثغور، فغالب الشكاوى على إطلاقها مردودة إلى الوزير. وليست في هذه للبلاد قاعدة محفوظة تمشي على نظامها، بل كل من انضوى إلى خاتون من الخواتين أو أمير من الأمراء أو كبير من الخواصكية، قام بأمره إما في قضاء حاجة يطلبها أو إزالة ظلامة يشكوها حتى من الخواتين والأمراء، من يقتل ويوسط بيده بغير أمر القان ولا أمير الألوس.

وأما البرالغ والأحكام الصادرة عنهم فالمتعلق بالأموال يسمى الطرطمغا، وهذه صادرة عن رأي الوزارة، وأمره والمتعلق بالألجية وهو البريد يسمى... وهي أيضاً صادرة عن الوزير، قد أقام لها أناساً بذاتهم، ومرجوعهم إليه، والمتعلق بالعسكر يسمى...، وهو صادر عن أمير الألوس. وليس لأحد على الجميع خط إلا الوزير، وإنما العادة أن يأمر الوزير بكتابة ما يرى، ثم تؤخذ خطوط المحدثين في ذلك الذي يكتب، ثم تحرر مسودة، وتعرض على الوزير، فيأمر بتبيضها، فإذا بيضت كتب — كما نبهنا عليه فيما قبل — اسم السلطان، ثم تحته اسم الأمراء الأربعة ويخلى تحته مكان، هو موضع خط الوزير، ثم يكمل البرلغ أو الحكم، ويختمه بالتاريخ شخص معد لذلك، غير من يكتب، ثم يأتي الوزير ويكتب في المكان الخالي فلان سوري، أي هذا كلام فلان، يسمى نفسه، ثم إن كان متعلقاً بالمال، أثبت حيث يثبت مثله، وإلا فلا، وأما المتعلق بالعسكر فممنشأ الأمر فيه عن أمير الألوس، يأمر به ثم على بقية الترتيب، ولا خط لأمر الألوس بيده.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وقاعدة أصحاب الولايم من الدواوين عندهم كما هو بمصر والشام، لا يعلم صاحب علامة حتى يرى خط نائبه عليه أولاً، ليعلم أنه قد نزل عنده. وأخبرني الفاضل أبو الفضائل يحيى بن الحكيم أن الذي للأمراء والعسكرية لا يكتب مرسوم، لأن كل طائفة ورثت مالها في ذلك عن آبائها، وهم على الجهات التي قررها لهم هولاكو لا يتغير بزيادة ولا نقص، إلا أكابر الأمراء الذين حصلت لهم الزيادات، فإن ذلك الوقت كتب لهم بها بأمر القان، أصدر بها الوزراء عنه. قال: ومن الخواتين والأمراء من أخذ بماله أو بعضه بلاداً مما له، وكثير من أخذ بلداً عن مبلغ متحصل ذلك الملك أضعافه.

وأهل هذه المملكة قد داخلهم العجم، وزوجوهم وتزوجوا منهم، وخلطوهم بالنفوس في الأمور فلهذا تفخمت قواعدهم، وجرت على عوائد الخلقاء والملوك في غالب الأمور قوانينهم، ولقد كان هولاكو من أول ما أخذ بغداد على نية إجراء الأمور في مجاريها، وإبقاء الأحوال على ما كانت، ولكنه ما تهيأ له لشدة من كان معه على المغولية، وإفراط تخوف الناس منهم، فإنهم لكثرة خوفهم منه تجنبوا لقاءه، فزالت عنهم رتبهم، وتغيرت عليهم أحوالهم، ولقد كان يقنع منهم بالطاعة والإنقياد والمداواة بالمال عن استئصال البلاء، ولكن المقادير لا ترد سهامها، ولا تصد أحكامها.

وفي هذه المملكة عدة ملوك مثل صاحب هري، وهي هري من خراسان في

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

أخريات البلاد، مجاورة لكرمان، وبها ملك من بقايا ملوك السبكتكينية يتوارثون ملكها، ذات بلاد وأعمال وجباية وأموال ولسطانها عسكر يقال أنها عشرون ألفاً، وهم لا يبلغون ذلك، وكان قد آل ملكها إلى غياث الدين محمد السبكتكيني، وإليه لجأ جوبان بن جلو أمير ألوس إيران في واقعته مع السلطان بو سعيد، فإن لصحة كانت بينهما، وكان مع جوبان ولده خلوقان وهو ابن السلطان محمد اولجابتو خدابنده وهي أخت السلطان أبو سعيد، فتلقاهما وأنزلهما في القلعة عنده، ثم خنقهما، تقريباً إلى السلطان بو سعيد، وبعث بإيهام جوبان، وكان بها أصبغ زائدة، إلى حضرة بو سعيد، إعلماً بتحقيق قتله. وكان بو سعيد قد تزوج ببغداد خاتون بنت جوبان بعد تبحيره منه، فأمر بإقامة العزاء عليهما، ثم نقل جثتيهما إلى حضرته، وجدد العزاء عليهما، ثم حملا إلى مكة المعظمة، فطيف بهما، ثم حملا إلى المدينة الشريفة النبوية، فدفنا بالبقيع منها، ومات غياث الزين المذكور، وانتقل الملك بعده لولده.

وهذه هري مدينة جليلة من أجل مدن خراسان، مشهورة موصوفة بالحسن والنعمة، وبها الماء السارح والشجر الكثير، رخية الأسعار، حكمها حكم ما سواها من خراسان، إلا أنها مملكة تتداولها ملوك، وكلهم في طاعة صاحب إيران، وتحت أمره، وعسكر هري من الفرس، وفيهم البهالوين ذوو البأس والقوة.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وأخبرني شيخنا فريد الدهر شمس الدين أبو الثناء محمود الأصفهاني، أن بالقرب من هري شيخ موجود اسمه شهاب الدين أحمد الجامي، جليل القدر، واسع الخُرمة والمال، له خمسة آلاف مملوك يصرفهم في أرزاقه، ومكاسبهم كثيرة ومستغلات أملاكه وزروعه وتربية دودة القز واستخراج الحرير له وعمله بما يجيء منه الجمل الكثيرة التي لا تكاد تحصر. قال: وهذا الجامي مرعى الجانب عند سلاطين إيران، كان يفرش سجاده إلى جانب السلطان خدابنده، فقليل لخدابنده: كيف بلغ هذا منك هذه الرتبة؟ قال: كنت مُجرباً في زمان أخي محمود غازان بستين ألف فارس، فضايق بنا الوقت لقلة ما نأكل نحن ودوابنا، فأقام بنا جميعنا هذا الشيخ أربعة أشهر من ماله. وحكى لي من أثق بقوله أنه رآه على منى وهو حاج ومعه ألف جمل وأثقل عليها أمواله وأثقاله.

قال: ورأيت غياث الدين صاحب هري واقفاً في خدمة الجامي، والجامي قاعد لا يكثرث بوقوف صاحب هري بين يديه.

وبهذه المملكة أبله البصرة وشعب بوان، وهما نصف متنزهات الدنيا الأربعة ذات المحاسن المتنوعة.

فأما الأبله فمدينة قديمة دثرت الآن، وبقي متنزهها على ما كان، والأبله نهر مشتق من دجلة، مرفوع إلى البصرة يسقى بساتينها، والبصرة أشهر من أن توصف حدائقها الملتفة، وجداولها المحتفة، وما تفتري به رياضها من بدائع الزهرات، وتفردت به حدائقها من يانع الثمرات.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

قال الجاحظ، ونهر الأبله سعة زيادة مقابلة نهر معقل، وبينهما البساتين والقصور العالية والمباني البديعة، يتسلسل مجراه، وتتهلل بكرة وعشاية، وتظله الشجر، وتغنى به زمر الطير، وهي من الحسن حيث يشهد، العيان، ويظهر فنون الأفنان، والأبله هي المدينة القديمة، وإنما اختطت البصرة، عوضها، وفيه يقول القاضي التنوخي.

«أحببت إليّ بنهر معقل الذي فيه التسلى عن همومي مَعْقِلُ»
«عَذْبُ إذا ما حل فيه ناهلُ»
«فكأنه في ريق حب ينهلُ»
«متسلسل وكأنه لصفائه دمع نجدى كاعب يتسللُ»
«وكانه ياقوتة أو أعين زرق تلام فيها وتفصلُ»
«عذب فما تدري أماء ماء وهاند المذاقة أم رحيق سلسلُ»

«وله بمد بعد جزر ذاهب جيشان يذهب ذا وهذا يقبلُ»
«وإذا نظرت إلى الأبله خلتها من جنة الفردوس حين تخيلُ»
«كم منزل من نهرها إلى الشرو ر فأنه في غيرها لا يتزلُ»
«وكانما تلك القصور عرائس اسم الكتاب: مسالك الأبصار والروض خلبي وهي فيه ترفلُ»
«غنت قيان الطير في أرجائها هزجاً يقل لها الثقيل الأولُ»
«وتعانقت تلك الغصون فاذا كرت يوم الوداع وغيرهم يترحلُ»
«ربع الربيع بها فحاكت كفه حلا بها عقد الهموم تحللُ»

«فمديح وموشح ومدثر ومعمد ومحبر ومهللُ»
«فتخال دأعينا وذا خداً وذا ثغراً يعرض مرةً ويقبلُ»

ويحيط بالأبله نهرها المشتق لها، ونهر معقل فلهذا صارت بين سلكيهما في أبهى منظر وأحرز معقل، وبها النخيل المايسات، القدود المائلات في خضر البرود، لا يفوق شيء رطبها الجنية، وثمراتها الهنية كأنها السكر المذاب بل شفاه لعمر معسولة الرضاب.

وأما شعب بوان فهو بظاهر همدان، يشرف عليها من جبل يقال له بالفارسية الرند، والشعب في سفحه تضاحك الأفق ثغر صبحه، والأنهار تنحدر عليه من أعلى الجبل، ويناجيه حبها برقة الغزل يتيه على أنديتها مقبلاً، ويطرامى على

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

شفاها الخو مقبلاً، قد تكسرت على رباها، فأوهمت الغواني في حُلاها، بقاة
عواضها المخضرة كالعدار، والتفتت جذائقها إليها كأنها اعتذار، وهو من أبدع
بقاع الأرض منظرًا، وأندى دوحاً نصرًا.
قال المبرد: أشرفت على شعب بوان، فنظرت فإذا بماء منحدر كأنه سلاسل
فضة، وتربة كالكاפור، وروضة كالثوب الموشي، وأشجار متهادلة، وأطيّار
متجاوبة.

ولقد حدثني من رآها، وطيب مفارقة بثراها، إنها تذهب بالألباب ويذهب بها
عصر الشباب، لا تكاد الشمس تسقط من أردائها، ولا الكواكب تغيب من
فرجات أغصانها.

ولقد مر أبو الطيب المتنبي بشعب بوان لما توجه إلى عضد الدولة بن بويه
واستطابة واستطال نزولاً به، واستطار إعجاباً بما هزه فيه هذه الحمام من
طريه، فلما سمع لغة أهل العجم، وقاس إلى فصاحة قومه البكم، استغرب
بينهم نفسه، فقال:

«مغاني الشَّعْب طَبَّيًّا فِي الْمَغَانِي
بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ»
«وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا
غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ»
«مَلَاعِبُ جَنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا
سُلَيْمَانُ لَسَارَ، بِتَرْجَمَانٍ

«طَبْتُ فُرْسَاتِنَا وَالْخَيْلَ حَتَّى
خَشِيتُ وَإِنْ كَرُمِينَ مِنَ الْجِرَانِ
«عَدُونَا تُفْقِضُ الْأَغْصَانُ فِيهَا إِلَى أَعْرَافِهَا مِثْلَ الْجُمَانِ»
«فَسِيرْتُ وَقَدْ حَجَّيْتُ الشَّمْسَ عَنِّي
وَجِئْتُ مِنَ الصَّيَاءِ بِمَا كَفَانِي»
اسم الكتاب: مسالك الأبصار
«وَأَلْقَى الشَّرْقَ مِنْهَا فِي ثِيَابِي
دَنَانِيرًا تَفُزُّ مِنَ التَّنَانِ»
«لَهَا تَمَرٌ تَشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهُ
بِأَشْرِيَةٍ وَقَفْنَ يَلَا أَوَانَ»
يقول بشعب بوان حصاني
أعن هذا يسائر عن الطعان

وقد ذكرنا ما اشتملت عليه هذه المملكة الجليّة من الأقاليم، وجمل من
محاسن هذه المملكة، ترتيبها، وسنذكر الآن ما لا بد منه فمن ذلك بلاد الجبال
وهي تشمل على المياه التي تجري على البصرة والكوفة، وحدها الشرقي
مفازة خراسان وفارس وأصبهان، والغربي أذربيجان، والشمالى الديلم والري
وقزوين، والجنوبي العراق وخوزستان وتشتمل على مدن مشهورة ذكرناها
فيما تقدم من الكتاب، وبلاد الديلم، وهي سهل وجبلان، فأما السهل فهو بلاد
الجيل وما معها، وهي الآن بمجموعها تسمى كيلان، والجبل ممتد عليها من
الجنوب إلى الشمال، وطبرستان هي كيلان أو في حكمها وكذلك ما زندران
وكيلان، وإن كان من هذه المملكة فإنها مقررة لملوك سيأتي ذكرهم،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

وسجستان، ومنها هرمز بلاد تحيط بها مما يلي الشرق مفازة بين أرض بكران وأرض السند وبين سجستان وفارس، ومن ناحية الغرب خراسان وشيء من أرض الهند، وما يلي الشمال أرض الهند، ومما يلي الجنوب المفازة التي بين سجستان وفارس وكرمان وخراسان، ويشتمل على كور ويحيط به من شرقيه نواحي سجستان وبلاد الهند، وجمال الغور، وغربية مفازة القرية وناحية جرجان، وشماليه ما وراء النهر وشيء من بلاد الترك، وجنوبيه مفازة فارس وريفه، ومن الغرب من حبر قوس إلى الغرب، وفيها من حد جرجان وبحر الخزر إلى خوارزم تقويساً على العمارة.

ومن الناس من بعد هراة من خراسان ومنهم من بعدها بذاتها وأقدم مدنها بناءً مروالشاهجمان، يقال أنها من بناء ذي القرنين وهي أرض مستوية بعيدة عن الجبال، لا يرى فيها جبل، وهي كثيرة الرمال وفيها ظهرت دولة بني العباس في دار آل أبي النجم المعيطي، وأحصن مدنها مدينة نسا، وهي في غاية الحصانة كثيرة المياه والبساتين ومن خراسان قوهستان وأهلها كلهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأرمينية واران وأذربيجان حدودها مما يلي الشرق الجبال وبلاد الديلم، وشرقي بحر الخزر ومما يلي الغرب حدود بلاد الأرمن، ومن جهة الشمال اللان وجمال القبق، ومن الجنوب العراق وبعض الجزيرة، وأجل هذه النواحي أذربيجان وأجل مدنها قديماً أردبيل. قال: الزواوي: تكون أعمالها ثلاثين فرسخاً، وبها كانت كبار الأبارة في صدر الإسلام ثم كانت تليها مراغة، وكانت قديماً مقراً للجند وتليها أرمينية، وبينها وبين مراغة بحيرة كبودان وهي مالحة وليس بها سمك ولا دابة، وتختلف فيها المراكب بين أرمينية ومراغة وطولها نحو عشرين فرسخاً، فأما قد بُنيت توريث لم تبق بذكره معها سواها، وفي أران باب الأبواب وهي مدينة على بحر الخزر وهي ميناء ذلك البحر وإليها مرس السفن.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

«وَأَلْقَى الشَّرْقَ مِنْهَا فِي ثِيَابِي

دَانِيراً تَفَرُّ مِنَ الْبَنَانِ»

«لَهَا تَمَرٌ تَشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهُ

بِأَشْرِيَةٍ وَقَفْنَ يَلَا أَوَانَ»

يقول بشعب بوان حصاني

أَعْنِ هَذَا يَسْتَأْزِعُ الطَّعَانَ

وقد ذكرنا ما اشتملت عليه هذه المملكة الجليّة من الأقاليم، وجمل من محاسن هذه المملكة، ترتيبها، وسنذكر الآن ما لا بد منه فمّن ذلك بلاد الجبال وهي تشمل على المياه التي تجري على البصرة والكوفة، وحدها الشرقي مفازة خراسان وفارس وأصبهان، والغربي أذربيجان، والشمال الديلم والري وقزوين، والجنوبي العراق وخوزستان وتشتمل على مدن مشهورة ذكرناها فيما تقدم من الكتاب، وبلاد الديلم، وهي سهل وجبلان، فأما السهل فهو بلاد الجبل وما معها، وهي الآن بمجموعها تسمى كيلان، والجبل ممتد عليها من

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

الجنوب إلى الشمال، وطبرستان هي كيلان أو في حكمها وكذلك ما زندران وكيلان، وإن كان من هذه المملكة فإنها مقررة لملوك سيأتي ذكرهم، وسجستان.

ومنها هرمز بلاد تحيط بها مما يلي الشرق مفازة بين أرض بكران وأرض السند وبين سجستان وفارس، ومن ناحية الغرب خراسان وشيء من أرض الهند، وما يلي الشمال أرض الهند، ومما يلي الجنوب المفازة التي بين سجستان وفارس وكرمان وخراسان، ويشتمل على كور ويحيط به من شرقيه نواحي سجستان وبلاد الهند، وجمال الغور، وغربية مفازة القرية وناحية جرجان، وشماليه ما وراء النهر وشيء من بلاد الترك، وجنوبيه مفازة فارس وريفه، ومن الغرب من حبر قوس إلى الغرب، وفيها من حد جرجان وبحر الخزر إلى خوارزم تقويساً على العمارة.

ومن الناس من بعد هراة من خراسان ومنهم من بعدها بذاتها وأقدم مدنها بناءً مروالشاهاجمان، يقال أنها من بناء ذي القرنين وهي أرض مستوية بعيدة عن الجبال، لا يرى فيها جبل، وهي كثيرة الرمال وفيها ظهرت دولة بني العباس في دار آل أبي النجم المعيطي، وأحصن مدنها مدينة نسا، وهي في غاية الحصانة كثيرة المياه والبساتين ومن خراسان قوهستان وأهلها كلهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأرمينية واران وأذربيجان حدودها مما يلي الشرق الجبال وبلاد الديلم، وشرقي بحر الخزر ومما يلي الغرب حدود بلاد الأرمن، ومن جهة الشمال اللان وجبال القبق، ومن الجنوب العراق وبعض الجزيرة، وأجل هذه النواحي أذربيجان وأجل مدنها قديماً أردبيل. قال: الزواوي: تكون أعمالها ثلاثين فرسخاً، وبها كانت كبار الأبارة في صدر الإسلام ثم كانت تليها مراغة، وكانت قديماً مقراً للجنود وتليها أرمينية، وبينها وبين مراغة بحيرة كبودان وهي مالحة وليس بها سمك ولا دابة، وتختلف فيها المراكب بين أرمينية ومراغة وطولها نحو عشرين فرسخاً، فأما قد بُنيت توريز لم تبق بذكره معها سواها، وفي أران باب الأبواب وهي مدينة على بحر الخزر وهي ميناء ذلك البحر وإليها مرس السفن.

وكرجستان هي داخله في حدود ما ذكرنا مع أرمينية ومدينتها تفليس على نهر الكر، وقد تقدم ذكر الحال مفصلاً فيما تقدم، والجزيرة وديار بكر وربيعة ومضر وهي ملاحقة لبلاد العراق وجزيرة العرب، والجزيرة بين الفرات ودجلة وقد كانت هذه بمجموعها مملكة جليلة قائمة بذاتها في الدولة الأتابكية وخوزستان وشرقيها جد فارس وأصبهان، وغربها رستاق واسط، وشمالها حد الصيمرة والكرج، كرج أبي دلف، وهو قصور مفرقة، والكر حتى يتصل على غربي الجبال أي إلى أصبهان، والجنوبي ينتهي بعضه إلى بحر فارس وبعضه إلى رستاق واسط والبحر دائر عليها من آخر الشرقي إلى أول الغربي وجبال القفص والبلوص في حدها الجنوبي مما يلي الجنوب، قريبة من البحر وقربها جبال الفضة، قريب مدينة جيرفت من كرمان وكلها جبال عامرة. وأما البلوص ففي سفح الجبال القفص، ولا يخاف أهل القفص من أحد إلا منهم

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وهم بادية يسكنون بيوت الشعر ولا يؤذون أحداً، وجبال بادن خصبة منيعة ذات أشجار، وكان أهلها مجوساً زمان بني أمية ثم أسلموا في أوائل الدولة العباسية وبقوا في منعة حتى وليَّ يعقوب وعمر ابنا الصغار فملكوا جبالهم وكرمات، ومدينتهم السيرجان ثم جيرفت، وهي بلد فتجر خراسان، والأختان التوأمان، وقد رخص فيهما الجمع بين الأختين والفريدتان اليتيمتان، ولا يوصف باليتم إلا الواحدة إلا إذا كانت اثنتين السمع والبصر، والبحر والمطر، وأفضل ما جهز له أبو بكر الجيوش، وفتح عمر الفرقدان المعنقان والنيران المتألقان، مركز الأعلام، والأعلام والسيوف والأقلام، قطبا تلك الدائرة وأفتا نجومها الزاهرة عراق العرب، وعراق العجم، وعراق العرب، والأول أكبر، والثاني أشهر لمكان الخلفاء منها، وكور عراق العجم عظمة جليلة. ذكرنا فيها تقدم عنه ذكر الأقاليم ما نبني عليه، وأما عراق العرب فهو دونه، وإن كان غاية من الفخامة ونهاية في الضخامة، وكان ملوك الفرس دليان إيران ومعناه..... وهو اثنا عشر كورة.

وقال الفاضل أبو الفضائل يحيى بن الحكيم الطياري البوسعيدي أن كل كورة منها استان وطلساسجه ستون طلסوجاً وترجمة إجازة، وترجمة الطسوج ناحية، فالكورة الأولى كورة ستارسان فيروز وهو خمسة طلساسيج وطلسوج خانقين، ومن الجانب الشرقي سقى تامرا.

والكورة الثانية كورة سار شاد مهر وهي ثمانية طلساسيج طسوج بشابور وطلسوج نهر بوق وطلسوج كلواذا وبها كلواذا، وهي مدينة قديمة، وبها يسمى الكلدانيون الطائفة المشهورة المعداد منها كيومرث وطهمورث وجمشيد والضحاك وطلسوج نهر بين طلسوج جازر وطلسوج المدينة العتيقة، وطلسوج زاذان الأعلى، وطلسوج زاذان الأسفل.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
والكورة الثالثة كورة سار شادقناد، وهي ثمانية طلساسيج، طسوج رستاقياد، وطلسوج مهرود، وطلسوج ستسل، وطلسوج جلولا، وطلسوج الدسكرة والرساتيق.

والكورة الرابعة كورة بارنجان خسره، وهي خمسة طلساسيج، طسوج النهروان الأعلى، وطلسوج النهروان الأوسط، وطلسوج النهروان الأسفل، وطلسوج بادريا، وطلسوج باكسايا والكورة الخامسة كورة سار شاد سابور وهي خمسة طلساسيج، طسوج دجلة والفرات، وطلسوج الزندورة، وطلسوج الثرثور، وطلسوج الآسان، وطلسوج الخوارج.

والكورة السادسة، كورة ساشاد بهمن، وهو أربعة طلساسيج، طسوج بهمن أردشير، وطلسوج ميسان، وطلسوج دست ميسان وهو الأبله، وطلسوج أثرقتادة.

والكورة السابعة كورة ستان العليا وهي أربعة طلساسيج، طسوج فيروز سابور وهي الأتيار، وطلسوج مسكن وهو دجيل، وطلسوج قطريل، وطلسوج بادروبا. والكورة الثامنة وهي كورة سان سيربايكان وهي خمسة طلساسيج طسوج نهر سير وطلسوج الرومتان، وطلسوج كومي، وطلسوج درفيط، وطلسوج نهر جوير. والكورة التاسعة وهي كورة بدروبرشان وهي الروابي وهي ثلاثة طلساسيج، وطلسوج الزاب الأعلى، وطلسوج الزاب الأوسط، وطلسوج الزاب الأسفل.

والكورة العاشرة وهي كورة سنان تهقياد الأعلى وهي ستة طلساسيج، طلسوج بابل، وطلسوج خطر وبه، وطلسوج الفلوجة العليا، وطلسوج الفلوجة السفلى، وطلسوج النهريين، وطلسوج عين التمر.

والكورة الحادية عشر هي كورة سنان تهقياد الأوسط وهي أربعة طلساسيج، طلسوج الحبة والدواه، وطلسوج سوار وباروسما، وطلسوج باروسما، وطلسوج نهر الملك.

والكورة الثانية عشرة وهي تمام وهي كورة سنان تهقياد الأسفل، وهي خمسة طلساسيج، طلسوج فرات وبادفلى، وطلسوج النسالحين، وطلسوج تستر، وطلسوج رومستان، وطلسوج هرمز دخره.

قلت: ولم أذكر مدن هذه المملكة هنا لكثرتها ولأنها قد تقدم عند ذكر الأقاليم بالاحتياج معه إلى إعادة، ولأقيه نقص يفتقر إلى زيادة، والذي ذكرناه الآن من كور العراق هو عمل بغداد الداخل حسابه فيما يختص بها من السواد دون ما هو مفرد لبقية ما معها من المدن والبلاد، والذ أعدنا ذكره هنا مما تقدم ذكره إنما هو للإعلام بمقدار هذه المملكة، وما جمعت أطرافها من الأقاليم والأمصار والممالك العظيمة والمدن الكبار، مما اجتمعت في جمعة الأكاسرة، ودأبت الدولة العباسية في تحصيله، وقد صارت كلها بيد ملوك بيت هولاكو.

وهي واسطة الأرض وخالصة المعمور وسرة الدنيا وأسرة العلواء، فسبحان الله العظيم الوهاب الكريم برزق من يشاء بغير حساب، ويعطى بلا احتساب لاراء لما قضى ولا مانع لما أعطى، يؤتى الملك لمن يشاء، ويترع الملك ممن يشاء.

على أن هذا البيت في وقتنا هذا قد وهي نظمه، وهوى نجمه، وهوان على الفاس أمره، وخمدت تحت الرماد جمرة منذ مات بو سعيد بهادرخان آخر ملوكهم، المجمع على طاعته، ثم هم بعده في دهياء مظلمة، وعمياء معتمة، لا يقضي ليلتهم إلى الصباح، ولا جملتهم المفرقة إلى اجتماع، ولا فساد ذات بينهم إلى صلاح، في كل ناحية هاتف يدعى باسمه وخائف، أخذاً جانباً إلى قسمه، وكل طائفة تتغلب وتقيم قائماً، يقول هو من أبناء القان، وتنسبه إلى فلان بن فلان، ثم يضمحل أمره عن قريب، ولا تلحق دعوته تبلغ حتى يدعى فلا يجيب، وما ذلك من الدهر بعجيب، وملوك هذا البيت، وإن كانوا ملوكاً من قديم الزمان، وبينهم ما يكون بين الملوك من الشنآن، وكان متآلفهم على ما وجدوا عليه آباءهم، لا ينيبون للإسلام ولا يتركون آباءهم، فإنهم أهل هم تذل لها الجبال، وكرم تذهب به الأموال، فأما نجدتهم وبأسهم فأول دليل على مبلغهم منه ما ملكوه بسيفهم من المشرق إلى الشام والي الآن ما تقادمت الأيام، وأما كرمهم قد ذكرنا منه ما يدل عليه.

حدثني شيخنا فريد الدهر أبو الثناء محمود بن أبي القسم الأصفهاني أطال الله بقاءه أن خواجا رشيد الدولة. وله ألف كتاباً (سماه....) وقدمه للسلطان خدابنده، وقال له أن أرسطو عمل كتاباً (المسمى....) وقدمه للاسكندر، فأجازه عليه ألف ألف دينار، وما أنت ممن يرضى أن يكون دون الإسكندر، فقبل خدابنده الكتاب، وأمر له بنظير ما أمر به الاسكندر لأرسطو، فأخذ به

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

خواجة رشيد الدولة أملاكاً وعقاراً قيمتها قدر المبلغ ثلاث مرات، قال: والأملك إلى الآن ف يد أولاده وذريته. قلت: وأحب السلطان المذكور على ما بلغنا امرأة مغنية من بغداد، فأطلق لها ما لا يحصى وما لا يدخل في حساب.

وحدثني من أثق به أن أباغبين هولاًكو كان بأنس برجل، فاتفق أن صحبه في سفر إلى جهة ما، وكانت يوم ذاك خزانة أموالهم، فأمر به أن يدخل إليها ويأخذ ما أراد منها، فلما دخل إليها لم يأخذ سوى دينار واحد عمله في فيه، فلما حضر بين يديه سأله عما أخذ، فألقى الدينار من فيه، وقال: يا قان شبعنت وامتلت حتى خرج من فمي، فضحك، وأعجبه منه ما قاله، وأمر له بعشرة توأمين؛ عنها مائة ألف رائج، بستمائة ألف درهم، فأخذها.

وحدثني قاضي القضاة أبو محمد الحسن الغوري أن فقيراً وقف بكيخيتو في أيام سلطنته، وشكا إليه ضرره، فأمر له بثلاثة توأمين، وهي ثلاثون ألف رائج بمائة وثمانين ألف درهم، فاستكثر هذا طاجار وزيره، (وما تجاسر أن يشاوره)، فسكبها على نطع في طريق كيخيتو ليبصرها، فيستكثر المبلغ، فلما عبر عليها كيخيتو رآها، سأل عنها. فقيل له هذا الذي رسمت به لذلك الفقير، فقال هذا هو يس؟ قالوا: نعم قال: والله مسكين أنا، والله كنت (*2*) أعتقد أنا أعطيناه شيئاً، وهذا ما هو شيء، أعطوه مثله مرة أخرى، فأعطوه.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

الباب الثالث

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

في مملكة الجبل

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: في بومن.

الفصل الثاني: في توليم.

الفصل الثالث: في كسكر.

الفصل الرابع: في رسفت.

ونحن نذكر في هذا الباب في رسفت من مملكة الجبل ما تيسر لنا ذكره جملة. حدثني الشريف محمد بن أحمد بن عبد الواحد الحبلي أن بلاد كيلان في وطاة يحيط بها أربعة حدود، من الشرق إقليم مازندران، ومن الغرب موقان، ومن الغرب عراق العجم، يفصل بينهما جبل يعرف مازندران يعرف بأشناده في سفحه الجنوبي قرى ممتدة تسمى بلاد التارم داخله في مملكة كيلان، وبأيدي ملوكها، وهو جبل عال لا يرقى إلا من طلوع الشمس إلى العصر، وهو جبل مشجر.

فيها عيون كثيرة، وبه سكان من الأكراد، ومن الشمال بحر القلزم، وبأخذ على توريذ فيه، وكيلان مشتمل على أربعة مدن كبار، لكل مدينة منها في الغالب ملك ينفرد بذاته بها، وأعمالها المضافة إليه وهي بومن قريبة من الجبل إلى وسطه، وتوليم تليها إلى البحر بشرق، وكسكر تليها إلى جهة موقان مصابة للبحر، وطول مجموع كيلان مما في أيدي هؤلاء الملوك الأربعة وهو شرق

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

غرب نحو عشرة أيام، وعرضها، وهو جنوب بشمال نحو ثلاثة أيام تزيد وتنقص، وجميع أهلها حنابلة.

قال: وهي شديدة الأمطار والأنهار كثيرة، والفواكه خلا النخل والموز وقصب السكر والمشمش، ويجلب إليها المحمضات من مازندران، ومدن كيلان غير مسورة، ولملوكهم قصور عليّة، وجميع مباني كيلان بالطوب المشوي، مفرشة بالطوب مثل بغداد، مسقفة بالخشب، وبعضها معقودة أقباء، وعليها قش مضفور، وفي غالب ديارها آبار قريبة المستقى نحو ذراعين أو ثلاثة أو أقل، والأنهار تحكم كل مدينة.

وغالب أقوات كيلان الأرز، يعمل منه خبز مليح، ورقاق مع تيسر القمح والشعير، والغنم، والبقر كثيرة عندهم، وأسعارها متوسطة إلى أرخص. وبها المساجد الجليلة ومدارس تسمى عندهم الخوانق، وزوايا وحمامات لطاف، يجري إليها الماء من الأنهار، وبها الحرير الكثير، ولها حصون في نواحي مازندران وجزائر في القلزم، وبها رمان وبلوط وفواكه، ولا يجري بها ماء، وبها تحصنهم عند مغالبة العدو لهم.

ولملوكهم زئي جَمِيلٌ على قدر دخل بلادهم، فإنه ليس بالكثير لضيق بلادهم، ولأنها لا مكس بها ولا مؤذي فيها، لهم أمراء الطبلخانات وبركب الملك بالرقبة السلطانية، والحجاب والسلاح داريه والجمدارية، والجنائب المجرورة، وبركب الأمير ووراءه صاحب أربعة وخمسة وأكثر، ولباسهم أقبية إسلامية ضيقة الأكمام وتخافيف صغار، ويشدون المناطق والبنود، وخيلهم براذين جيد مشكورة، وسروج منها المحلى بالفضة، وزيهم كلهم قريب من الزي العسكري الخوارزمي، ويتخذ بطواهر قصور ملوكهم ميادين خضراء يعمل في أوساطها قصورا صغارا من الخشب، فيها جلوسهم للخدم والمظالم.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وجميع جنود هؤلاء الملوك الأربعة نحو عشرين ألف (فارس ما بين ميدونه ومطووعه ممن يضمهم الجموع والحشود من الفارس والراجل)، وهؤلاء الملوك الأربعة لا يزال بينهم الخلق حتى إذا قصدهم عدو (خارجي عنهم)، تألفت قلوبهم، واجتمعت كلمتهم، وصاروا حزبا واحداً على عدوهم، ولقد قصدوا أيام هولاكو فما قدر عليهم، ثم قتلوا شاه في سبعين ألف فارس، وانتصر على صاحب تومن وكسكر، وامتنع صاحب توليم، وضرب معه مصافاً بالفارس والراجل، وحمل بنفسه قتلوشاه على أنه مقفل إليه، فلما قاز به أحسن قتلوشاه بالعدر منه، فولى منهزماً، فطعنه، فألقاه عن فرسه قتيلاً، فنزل إليه، وقطع أذنيه بالحلقتين اللتين فيهما، ثم ركب وساقى إلى التتار، وقطع عليهما المياه، وسد عليهما الطرق بالأخشاب العظيمة، فأفناهم إلا الشريد، وراحوا كلهم بين قتل وغريق متوحد في الطين، وضال بالجمال وهم بحصانة بلادهم بالبحر من جانب وتوغير المسالك إليهم، لا يدينون لملوك إيران ولا يطمع أحد في ملكهم.

وطبرستان ومازندران والجبل كما قال الله تعالى وفي الأرض قطع متجاورات، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

قلت: وبما ذكر من شدة بأس أهلها ذكرت قول صاحب شاه اغا في تاريخ
الفرس. وقد ذكر قازندران وعصيان أهلها قال: وهم مرده.
قال الشريف: وبلاد الجبل مقسومة بين ثمانى ملوك ملك باللاهجان وملك
سخام وملك برشب وملك تسفت وملك بومن وملك توليم وملك كسكر وملك
بنفس، منهم أربعة كبار وهم ملك بومن وملك توليم وملك كسكر وملك رست،
والملوك الأربعة الآخرون دون هؤلاء، ومع هذا فلا ينقاد منهم ملك لملك ولا
يذعن أحد لآخر:

قال: وجملة بلاد الجبل بلاد خصبة ورخاء ولحم وحب وفاكهة، أقطارها سخية،
وأسعارها رخيصة، ولا يخطب بها للتتار، وإنما تضرب السكة باسم ملوك التتار،
لأنه لو ضرب واحد من ملوك الجبل السكة باسمه، لم تخرج دراهمه في بلد
جاره الآخر لشدة ما بينهم من الحقد، والجفوة.
قال: ولا يدخل بلاد الجبل مملوك ولا جارية بل كل أهلها أحرار، ولا يتعدى واحد
منهم شأن أبيه، وما كان عليه حتى أن الفلاح منم ليقضى العدد الكثير
(المخطوط 321) من الخيل لبييعها، ويربح بأثمانها، ومع هذا لا يتجاسر على
ركوبها، ولو ركبها قتل، وبالجبلى ربح وخوانيق وغالب ما يجري بها من أحكام
مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ونحن لا نذكر ملوكها إلا أربعة
المشاهير المترجم لهم في هذا الكتاب على ما ذكرناه.
اسم الكتاب: مسالك الأبصار
الفصل الأول

في بومن
صاحب بومن شافعي المذهب، دون من معه من بلاد الجبل، مذهب نشأ عليه
ملوكها، وعسكره يزيد على الألف فارس، وهو صاحب اللاهيجان، بلادهم قليلة،
وإنما غالب دخلها من التجار والحريير بهما كثير، ولهذا بينهما وبين التتار مكارمة
ومهاداة، لدخول التجار لبلاد لجلب الحريير منهما، واحتياجهما إلى ما عندهما
من الحريير، علي من يدخل إليهما، وبقية بلاد الجبل محتاجة أيضاً إلى بومن،
واللاهيجان من أجل هذا، وحاجتهما إلى بومن أكثر، لما يوجد بها من القماش
والمعمولات، وبها فيما يحاذيها من الجبل معدن حديد.

قال: وصاحب بومن يدعى النسب إلى بيت الشرف، وله اعتناء بأهل العلم
والفضل، ولباس الملك والجند، والملك بها نوع من لباس التتار، ولباس علمائها
قريب من زي التجار، ولهم عذبات كالصوفية إلى قدامهم، وعامة أهلها كعامة
من جاورهم.

الفصل الثالث
في صاحب توليم
صاحبها أمره قيب من صاحب بومن، ولكن لا حريير ببلاده، وهو حنبلي المذهب،
وعدة عسكره نحو ألف فارس وهم أفرس إخوانهم، ولصاحبها في وقتنا هذا
على ملوك الجبل سيما استظهار، لأن عسكر توليم كان لهم في واقعة
قطلو شاه اليد الطولى، والبطش الغالب، فثبت لهم في قلوب جيرانهم ما هو
ظاهر عليهم إلى الآن، وزبها كزي أخواتها.

الفصل الثالث
في كسكر
وصاحبهما له حولة في ملوك توليم، وجيشه أكثر عدداً من بقية ملوك الجبل،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وبلاده أوسع وأرضه أخصب وأكثر حباً وفاكهة وأغناماً وأبقاراً مما حولها، ولها رفق زائد ممن يجاورها من الأكراد، وما يجلبه إليها من الأجلاب، وأسعارها أرخص وأرخص مما سواها، وزيتها كزي أخواتها.

الفصل الرابع

في رسقت

وهي أميل إلى الجبل، وأبعد عن البحر، وإنما رسقت أوني إلى الجبل منها، وهي مناسبة لأخواتها في غالب أحوالها، وهي كثيرة السمك والطير، ومنها الشيخ العارف السيد عبد القادر الكيلاني قدس الله روحه ونور ضريحه، وهو القليل مثلاً، العديم مثلاً، الواحد علماً وعملاً، (وستأتي إن شاء الله ترجمته في مكانها).

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

الباب الرابع

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

في مملكة الجبال

وهي أربعة فصول:

الفصل الأول: في الأكراد وفيه فصل جامع لأحوال سكان الجبال.

الفصل الثاني: في اللر.

الفصل الثالث: في الشول.

الفصل الرابع: في شنكاره.

وبلادهم جميعاً بلاد خصب زائد ومزارع وموارد وزروع وفواكه، وثمر متشابه وغير متشابه، وكلهم أهل غناء ودفاع وحصانة وامتناع.

الفصل الأول

في الأكراد

الذي نقول وبالله التوفيق، أن الأكراد، وإن دخل في نوعهم (كل جنس أتى ذكره في هذه الفصول، فإنهم جنس خاص من نوع) عام وهم ما قارب العراق وبلاد العرب دون من توغل في بلاد العجم، ومنهم طوائف بالشام واليمن، ومنهم فرق مفترقة في الأقطار، وحول العراق وديار العرب جمهرتهم، وغلب في زماننا بما يقارب ماردين، منهم إبراهيم بن علي المسمى بالعزیز مالو، واستفحل أمره، وقويت شوكته، واجتمعت عليه جموع وبرقت بها سنة ودروع، دنوه باسمه الداعي، وتقيدت دون غايته المساعي، ثم مات، وقام ابنه بعده، ولكنه ما حكى الوالد الولد ولا سد الشبل موضع الأسد.

وأما الفصل الجامع لأحوال سكان الجبال (هؤلاء) وغيرهم فإننا نقول وبالله التوفيق، أن المراد بالجبال على المصطلح هي الجبال الحاجزة بين ديار العرب وديار العجم، وابتدأها جبال همذان وشهرزور، وانتهأها صياصي الكفرة من بلاد التكفور، وهي مملكة سبیس وما هو مضاف إليها بأيدي بيت لادن. ولم أذكر من عشائريهم إلا من كنت به خبيراً، ولم أسم فيها منهم إلا بيت ملكٍ أو إمارة ابتداءً بجبال همذان وشهرزور وأربل، وتنتهي إلى دجلة الجزيرة من كوار إلى الموصل، ونترك ما وراء النهر دجلة إلى نهر الفرات لقلة الاحتفال به على أن الذي ذكرته هو خلاصة المقصود إذ لم يبق إلا أكراد الجزيرة وقرى ماردين، وهم لكل من جاورهم من الأعداء الماردين، مع أن أماكنهم ليست منيعة ومساكنهم للعصيان غير مستطبعة، فمنهم طائفة بجبال همذان

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وشهرزور يقال لهم الكورانية منهم جند ودعية، وكلهم أولوا شوكة وحمية، مقيمون، بموضع يقال له رباوست الأمير محمد، ومكان ثان يقال له درتنك (أميرهم الأمير محمد).

وعدة القوم تزيد على خمسة آلاف، لابين بينهم ولا خلاف، ومن بعدهم الكلالية وهم قوم لهم مقدار وكمية، تعرف بجماعة سيف الدين صبور، ومقامهم داترك ونهاوند إلى قرب شهرزور، وعدتهم ألف رجل مقاتلة وقوية وأميرهم يحكم على من جاورهم من العصاة الكردية حكم الملك على جنده ويقدر على جمع عدد أصناف عشيرته، لأنهم واقفون بصدق كلمته، وحسن سيرته. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ومن الكلالية سوى هؤلاء طائفتان؛ إحداهما مقيمة بنواحي دقوق وعددهم ألف أو دونها، والأخرى باشنة من نواحي أذربيجان عدة رجالها مائتان، وكانوا أكثر من ذلك عدداً، وأوفر مدداً، لما كان الملك شرف الدين بن سلاص صاحب أربل من جهة التتر قتله رجل من الكفار فعصى قومه على الكفار، وهاجر بعضهم إلى مصر والشام، وبقي ولده الأمير محمد حاكماً على باشنة من قبيلته وولده الأمير عثمان أميراً لمن أقام بوطنه من عشيرته، فلما توفي ولده توفاهم سواهم.

ويلى الكلالية بجمال همذان قوم يقال لهم رنكلي، أصحاب شجاعة وحيلة وعدتهم ألفان، يقال لهم جماعة جمال الدين بالان، يحكم على بلاد كنكور وما جاورها من البقاع والكور.

وأما بلاد شهرزور فكان يسكنها طوائف من الأكراد قبل خراب البلاد، أكثرهم رجالاً وأوفرهم أموالاً إلا طائفتان؛ إحداهما يقال أنها اللوسة، والأخرى تعرف بالبايرية، رجال حرب وإقبال وطعمة وضرب، ترحوا عنها بعد واقعة بغداد في عدد كثير من أهل السواد بالنساء والأولاد، وأخلوا ديارهم، ووفدوا إلى مصر والشام، وتفرقت منهم الأحزاب، وأصابتهم الأوصاب، وعظم فيهم المصاب، ولكل أجل كتاب، وقد بقى في أماكنهم، وسكن في مساكنهم قوم يقال لهم الخريسة، ليسوا من صميم الأكراد وبلاد شهرزور قوم آخر بينها وبين باشنة، يبلغ عددهم ألفي نفر، يقال لهم السيولية، ذوو شجاعة، وحمية لهم، وهم قسمان قسم تورك بن عز الدين محمود، والآخر قسم يعرف بالأمير داود، ويعرف بداوود بدران ثم يليهم الفرماوية وهم يسكنون بعض بلاد بستان، ويبددهم من بلاد أربل أماكن آخر، يزيد عددهم على أربعة آلاف نفر، كان أميرهم أبو بكر يلقب بسيف الدين، وتولاهم بعدهم ولده شهاب الدين. ثم يليهم قبيلة يقال لهم الحسنائية، ذوو أنفس قوية، ينقسمون على ثلاثة بطون وهم نحو الألف، أكبر بطونهم طائفة عيسى بن شهاب الدين كراتي، ولهم الجفر لقلعة بري والحامي. وثاني بطونهم نفران نفر يقال لهم البلية والآخر يعرف بالجاكية، وكان الأمير عبد الله بن شهاب الدين زنكي أمير النقرين، وثالث بطونهم كان لفخر الدين أمير قيم، والآن أخوه إختيار الدين عمر بن أبي بكر.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

وتختص الحسائية ببلاد الكركار، وتشاركهم الفريابوية في الخضارة المأخوذة بدريند قرايلي مشاركة الآخرين.

ثم يليهم بلاد الكرجين ودقموق الساقية، عدتهم يزيد علي سبعمائة، وكان أميرهم شجاع الدين بابكر، رمامي، ذاباً عن دينه، محارباً عن حربه، ومن ذلك موضع يقال له بين الجبلين من أعمال إربل، قوم يتخدمون للدولتين، ويدارون الفتتين، فهم في الشتاء يعاملون التتر بالمجاملة، وفي الصيف يعينون سرايا الشام في المجاملة، وعددهم كعدد الكلالية، وكان أميرهم تاج الدين الخضرين سليمان كاتباً ذاباناً ولسان وفد إلى الباب الملكي المنصوري السيفي قلاوون بمصر ثم اخترمته المنية، وعاد أولاده الأربعة إلى أوطانهم في الأيام العادلة الزينية مع عز الدين سنقر من الشهرزورية والمبارز بن شجاع الدين من الأرخية، وبهاء الدين ابن جمال الدين خوش من الحميدية، إذا لم يجدوا لهم في الدولة الزينية حرمة مرعية ولا أخباراً مرضية.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
ثم يلي هؤلاء من أربل المازنجانية، وهم طائفة ينسبون إلى الحميدية، لم يبق لهم أمير غير أمرائهم، وعدتهم قضاف إليهم في شدتهم، ورخائهم، ولا تنقص عدة الحميدية عن ألف مقاتل، وهؤلاء هم المازنجانية، يتعاونون الصلافة، ويتشبهون بالناس في الآلات واللباس، لأن أميرهم كان من أمراء الخلافة من الدولة العباسية، لقب من ديون الخلافة بمبارز الدين واسمه كنك، وكان يدعى الصلاح وتندر له النذور، فإذا حملت إليه قبلها، ثم أضاف إليها مثلها من عنده وصدق بهما معاً.
قال الحكيم الفاضل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ساعد الأنصاري، وقد ذكره كان ذا شجاعة وصبر وتحيل ومكر وعقل وفكر وتدير وسياسية وثبت ورياسة لا يهمل عدواً لصغره وحقارته، ولا يهاب من أراد به سوءاً لعظمته وجسارته.

نقل عن ابن الصلايا رحمه الله أنه قال حين أعطاه خبر أبيه سيف الدين محمد، وحياءه، لقد توسمت في هذا الشاب سعادة لم أتوسمها في أحد سواه، فكان كما توسمه صاحب رحمه الله، فرآه كذلك، إذ أقام في التتر في ذلك المقام، وتمكن ابن يافث من ابن سام، وتشئت أهل الإسلام، وأنحل ما عهد من النظام، ولم يبق من الرجال القادرين على القتال الإسكان الجبال فما أعجز الكفار استئصالهم، وتحققوا أن سهامهم لا تنالهم، عاملوهم بالمكر والخديعة، وهادنوهم على تخلية الخراج، سداً للذريعة، وقدموا منهم اثنتين، وحكموهما عليهم من الوجهين.

فما كان من وجه بلاد العجم كان مبارز الدين كنك، متحدثاً فيه، وما كان من مدن العجم كان الأسدين منكاكين الجائر لنواحيه، وجعلوهما ملكين، وأعطوهما بائزتين، ثم استنابوا لمبارز كنك في أربل وأعمالها، وصرفوه في سيفها ومالها، وأقطعوه عقر سوس بكمالها، وأضافوا إليه هراوتل هفتون، وقدموه على خمسمائة فارس أو يزيدون.

وسعد بسعادته قومه، وأناف على أمسه يومه، وكثر في عشيرته الأمراء

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

لاشتباكهم معه في النسب، وغلب على أقرانه بعناية الدولة والدنيا لمن غلب، وكان ترى همته همة الشبان، وهو ابن تسعين، وتولى هذه المملكة وهو ابن نحو عشرين، ما قصده عدو إلا مكنه الله منه، ولا رسم ملك من ملوك التتر يقتله إلا هلك قبل نقاذ أمره وامتناله، ولم يبلغ ما بلغ من ملكه، وكثرة رجاله، ولا تمنعه جباله، لكن سعادته وإقباله، ثم مات وخلقه ولده عز الدين وكان يكنى به فيما ألف منه وعرف عنه، ثم أخوه نجم الدين خضر.

وكان من الرفاهية على سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، ونعم مما ترك أبوه موروثه إلي حاشية وغاشية، وعقار وماشية، وسعادات قديمة وناشئة، ومكانة في الدولتين الإسلامية والتتارية لا تطاول، ورتبته عالية في الجهتين لا تحاول، وإنبساط في اللذات، وشرف بالعرض والذات، ويد لا تقصر في أدب، ولا تبالي بلاغتها بما تنفق من كنوز الفضة والذهب.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وكانت ترد على الأبواب السلطانية بمصر ونواب الشام منه كتب، تنهل بماء الفصاحة كالسحب، وتسرح من إحيائها الأبقار العرب، ثم مات رحمه الله، وخلفه ولده، وجرى على سنته، وتمت به في أهل بيته منيته.

وبلي يسار وأعمالها وتل حفتون وبلادها، وبلاد السهرية المشهورين بالخصوصية، وهي من بلاد شقلاباد إلى خفتيان أبي على، ويعرف بخفتيان الصغير، وما بين ذلك من الدست والدريند الكبير، وهم قوم لا يبلغ عددهم ألفاً، وحبالهم عاصية، ودريندهم بين جبلين شاهقين، يشقهما الزاب الكبير، ويتقلب على صخورهما بصوت مفرغ وهدير قوي، عليه ثلاث قناطر إثنان منهما بالحجر والجير، والوسطى مضافور من الخشب كالحصير علوها عن جهة الماء مائة ذراع في الهواء، وطولها بين الجبلين خمسون ذراعاً، في عرض ذراعين، وقد ينقل تارة من أرضه فينقص من طوله أو يزداد في عرضه، ثم تمر عليه الدواب بأحمالها، والخيول برجالها وهي ترتفع وتنخفض، وتبسط وتنقبض، يخاطر المجتاز عليها بنفسه، ويضامر بعقله، وهم يأخذون الخضارة عندها يخيلون ما شاءوا بعدها.

فإن الدريند مضيق على نهر عميق، وهم أهل غدر وخديعة، وقبائح شنيعة، لا يستطيع المسافر مدافعتهم فيه، بل ترضيه سلامته بنفسه.

قال الحكيم شمس الدين محمد بن ساعد أن يُنسب أحد من الأكراد إلى الجن فهم هؤلاء حقاً، وإن صعب مسلك دريند، فهذا أصعب المسالك، وأشقى، كان أميرهم الحسام بن عم قميان، أنقى ما ترك ولا أبقى، ومجاورهم قوم يقال لهم الزرزارية وهي كلمة أعجمية معناها ولد الذئب. .

ويقال أنهم ممن تكرد من العجم المنسوبين إلى ملوكهم، ذكره بعض أهل التاريخ، ولهم عدد جم، منهم زراع وأمراء وأغنياء وفقراء، تبلغ عدة رجالهم خمسة آلاف، قليل بينهم الخلاف، ومنهم زهاد يشار إليهم، وفقهاء يعتمد في الفتوى عليهم.

مساكنهم من مرت إلى جبل جنجرين المشرف على أسنة من ذات اليمين،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وهو جبل عال، مشرف بمكانه على جميع الجهات، كان هواه الزمهرير وكأنه للسحب مغناطيس، يجذبها بالخاصة، قد نصب عليه للتخدير ثلاثة أحجار، طول كل حجر عشرة أشبار، وعرضه ربع هذا المقدار، وخصائصه تزيد على ذراع في التخدير، على كل من الثلاثة كتابة قديمة، لم يبق منها سوى المعالم، وهي من الحجر المانع الأخضر الذي لا يغيره البرد ولا الحر، ولا يتأثر إلا في ألوف سنين، تأثير لا يكاد يبين، فالوسط منها على بسطة رأس الجبل، والآخرا في ثلث عقبتيه لمن صعد أو نزل، يقال أنها نصبت لمعني الإنذار، وأن المكتوب عليها أخبار من أهلكه الثلج والبرد في الصيف، وهم يأخذون الخسارة تحته، ويدركون أو يوارون من هلك ببرده.

وبيد الزرزاريه أيضاً بلاد ملازكرد والريستاق بقلاعها ومزارعها وضياعها، ولا يحملون لأحد شيئاً من ارتفاعها، وكان لهم أمير جامع لكلمتهم، مانع لشوكتهم يسمى نجم الدين بن باساك ثم توفى، وتولاهم من بعده ولده المسمى جيه، ولما أدركه الأجل وتوفى، تولاهم ولده عبد الله، وكان لهم أيضاً أمير شجاع عفيف له رأي وتدير يقال له الحسام شير الصغير، حوله من عشيرته عصبة تسير بسيرته، وكذلك كان لهم أمير آخر جيداً يسمى باساك. ابن الحسام شير الكبير، وآخر منهم له بأس قوى يدعى بهاء الدين بن جمال الدين أبي علي، وأمراء غير هؤلاء ممن ينطوى في طاعتهم ويدخل في جماعتهم، إذ لا يبلغ قدر استطاعتهم يستغنى عن ذكر اسمه بمن تقدم.

وينضم إلى الزرزارية شردمة قليلة العدد هي لهم كالمدد تسمى باسم قرينتها بالكان، منفردة بمكان، مشرف على عقبة الخان، يأخذون عليها الخسارة باليد القوية، ويجولون بين الحسائية، قُتل أميرهم توبك مع نجم الدين، وعاد قومه لهم بالرعية، يبلغ عدتهم ثلاثمائة رجل.

ومنهم الجولمركية، وهم قوم نسبوا إلى الوطن، لا إلى النفر، بل هم طائفة من بني أمية، يقال أنها حكمية، اعتصموا بالجبال، عند غلبة الرجال عليهم، واستغنوا بمنعتها عند استعمال البأس، ومخالطة الناس، طلباً للسلامة من أعدائهم، وفراراً من اعتدائهم، فانخرطوا في سلك الأكراد، فسلموا، وهم الآن في عدد كثير، يزيدون على ثلاثة آلاف، كان ملكهم عماد الدين بن الأسد بن متكلان، ثم خلفه ولده الملك أسد الدين، وتحت يده المعادن ما ينقل من الزرينجين، إلى سائر الأماكن، وكان ظهر له معدن اللازورد، فأخفى، لئلا يسمع به ملوك التتر، فيطلبونه.

ومعقله الذي يعتمد عليه من أمنع المعاقل على جبل عال، مقطوع بذاته، قرين الجبال قائم في وسطها مع الانفصال شامخ في الهواء راسخ فيما حوله من الماء، والزاب الكبير محقق به، فاصل بينه وبينها بإذن ربه، لا محط للجيش عليه، ولا وصول للسهام إليه، سطحه للزراعة متسع، وفي كل ضلع من جوانبه كهف مرتفع، يأوى إليه من شاء للامتناع، فيمتنع، والماء محيط بأساسه، والثلج لا يزال يشتغل، سببه برأسه، والصعود إليه في بعض الطريق يستدعى العبور على أوتاد مضروبة مصلحة لمن يطيق، ومن لا يستطيع التسليق، جر بالحبال

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

(يعلق بها) وكذلك ترفع البغال للطواحين والذخائر التي يحتاج إليها في كل حين.

والملك عليهم معتبر عند الأكراد، ولهم على كلمته اعتماد، يدعى بهاء الدين بن قطب الدين، وولده في الملك يجرى محراه، ويخلف في سيرته أباه، وكان له ابن عم آخر يدعى بشمس الدين داود، عصا على دولة الأعداء مدة، وعجزوا عنه، وقد اجتهدوا في غيلته بكل حيلة، فلم يقدرُوا عليه، فبالغوا في الإحسان إليه، وأمره بالانتقال عن الجبل ليأمنوا اعتصامه، فاحتصن التوصل في التوسل، حتى سكن ببعض المدن فلما قر في دار كانت بنيت للسلطان، وغرس في ما حولها بستاناً جامعاً لأشجار ذات أفتان، مختلفة الثمار، ومحفوفة بالارتفاع ارتفاع مغلة من دنائيرهم عشرون ألف دينار، والدار أعظم. ما يكون من دار السلطنة لما فيها من البسط والآلات المثمينة، فخولوه في سكنها، وسمحوا له بالفاكهة وثمرتها، إلى أن اخترمه ريب المنون، فترك ولده الحركة، وعاد إلى حربهم، يؤدي إليه خراج بلاده، ويقطع منها ما شاء من أقاربه وأجناده، ويأخذ الخفارة من جميع الطرقات، من أذربيجان من تبريز إلى خوى ونقشوان، وكل وظائف مستخدميه بضمان من الكتاب والمنتدين والنواب والمتصرفين والوكلاء، ولا يقدم طعامهم ضيفانه إلى ثلث الليل المعلوم إلى نصف النهار أي غذاء كان، ولا يطعم ضيفانه إلى ثلث الليل عشاءً، ولا يجعل في خبزه ملحاً ليأكل منه من كان حرباً وصلحاً.

ويجاور الجولمركية من الأكراد قوم يسكنون الجبال من بلاد تدعى مركوان، كثيرة الثلوج والأمطار مخصبة ربيعها زاهر بأنواع النبات والأزهار، وصيفها منوط بالبحان الطياري، وشتاؤها وافر الأسمان والألبان غزير اللحوم المنوعة، وهي مترخمة لأرمية من بلاد أذربيجان، وكان لهم بها أميران بدر الدين والأمير حسن، أخوان شقيقان، وبالرعايا رفيقان، تبلغ عدتهم ثلاثة آلاف، وهم لمن جاورهم من الزرزارية والجولمركية أخلاف، ويعاملونهم بالرأفة والإحسان.

ويجاور الجولمركية من قبل بلاد الروم جبال وبلاد يقال لها كواره، ذات سعة وإمكان، ومرعى للحيوان، وخصب مستمر في سائر الأحيان، وإليها ينسب من بها من السكان، فيحسبانه من قبيله.

وكان الأمير شمس الدين هو المداري عنهم، وعدة قومه ثلاثة آلاف، وبلي الجولمركية وجه عقر شوشن وبلاد العمادية، وبلاد الزيار وبلاد الهكلر. أما الزيارية فيبلغون خمسمائة عدداً، أصحاب بازاريه، لهم سوق وبلد، وكان حروب بينهم وبين المازنجانية مُدداً، ثم قر قرارهم، (واتحدوا)، وكان ملكهم أحدهما الأمير إبراهيم بن الأمير محمد الزابي، وكان موقراً في زمن الخلافة، معروفاً بالحشمة، وبقي ولده بعده صغيراً، فاحتاج إلى الاعتصام بالمبارزكنك، ليكون له ظهيراً، والثاني الشهاب بن بدر الدين برش، توفي أبوه، وخلفه كبيراً، ولولا المازنجانية لم يدع لهم سواه أميراً، فاستولى علي الرعية استيلاءً كبيراً.

وأما الهكارية فإنهم مقيمون في بلاد العمادية، تزيد عدتهم على أربعة آلاف حربية، وكانت إمارتهم إلى أميرين أخوين، أحدهما الأمير أبو بكر، والآخر الأمير علي، يعرف والدهما بالطوراشي، فأما أبو بكر فإنه كان ممتنعاً برجاله، وكثرة احتياله وقوة جباله ونوابه وجيوشه وأحزابه، وبقي مدة لا يعبأ بهم ولا به، مع أنه سير له العساكر، واستعان عليه بكل ماكر، إلى أن حكم بالموصل نصراني يقال له مسعود البرقوطي، وعزل عنها الأمير رضى الدين بابا القزويني البكري رحمه الله، فاحتال النصراني على الأمير أبي بكر بكل حيلة، وأغانه عليه في المكيدة بعض القبيلة، فحسنوا له الوفوق إليه، والنزول في الطاعة على يديه، وسير له الرهائن أربعة من الصبيان إلى السلطان، أحدهما مياركشاه والثاني سيف الدين بن المبارزكنك، الذي استنابه في العقد أبوه، والآخرا أحمد وجركتم والدهما، فبلغ بكر الدين، كان باربل نائباً في ذلك الزمان، فاعتر ونزل البابا، وبقي عند السلطان معظم المقدار، إلى عدت فيه ذوو الاعتراض، وقالوا أن أحضر ولده وأهله، فما عليه اعتراض، ولما طلبوا معه سييراليهم بالنزول، فلم يأخذوا أمره بالقبول، وعاد مؤكداً لطلبهم برسول، وتأخر حضورهم، فاشتبهت على السلطان أمورهم، فأمر بالاحتياط عليه وعلى من معه من أصحابه، وكان إذ ذاك متوجهاً إلى حمص في أحزابه فلما وصلوا إلى مراغة آذربيجان، توجه حسان، أجابة داعي السلطان؛ وكان موثقاً عنده في المكان فانتهر الفرصة في الخروج من الوثاق، وخلص من معه من الرفاق، وركب ما وجد من الخيل عرباً وساق، بناءً على أن الجبل قريب، وطمعاً في أن يدركه الليل، فيستتر، فلما أحسن القوم بفراره، خافوا صولة سلطانهم، ونادوا: أولام أولام على أثاره، فتنبه عليه قوم من الإختاجية، وهو رعاة الخيل، (وهو يحث فرسه) بكزلك، وهي مذبة، فرماه أحدهم بسهم، أصابه به، وتواثبوا عليه أصحابه، فلم ينج منهم أحد إلا رجل كان، لما انهزموا قد دخل

البلد.
وأما أكثر الرهائن فإن البارزشير سير من سرق ولده، وهرب كل منهم، فلحق ولده، وبقي الأمير علي، أخوه مستقلاً بالهكارية وحده إلى أن أتاه اليقين، فخلف فيهم ولده غرس الدين صاحب قلعة هروز، ونشأ الأمير محمد بن الأمير أبي بكر شجاعاً، فقصده قلعة الجبال، فأخذها، وأحرق ما بها من الدور، وأراد أن يقيم بها، إن ساعده القدر المقدور.
والهكارية يأخذون الخفارة في أماكن كثيرة من بخاري إلى جبل الجزيرة، ويلبهم من قبل المرج جبال القمرانية وكهف داود، وهذه الأماكن أوطان البستكية وقليل ما هم، لكنهم حماة رماة وطعامهم مبدور على خصاصة، وعدتهم لا تزيد على خمسمائة، وأميرهم مقيم بالقمرانية يقال له..... ويقابل الجولمركيه من قبل الموصل البختية، وهم قوم كانوا يضاهون الحميدية، لكنهم شعبهم أكثر، وقبيلهم أكثر، فكان لهم كبراء وأعيان فهلك أمراؤهم، وتشتت كبراؤهم، وتفرق جمعهم المعهود، ولم يبق منهم إلا مشرزمة قليلة، تفرقت بين القبائل والشعوب، وكان من بقايا أمرائهم فخر الدين خدم صاحب ماردين فأبعده لأقوال قيلت.
اسم الكتاب: مسالك الأبصار

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وشعبهم كثيرة، وقبائلهم متفرقة منهم السندية وهو أكثر شعبهم عدداً، وأوفرهم مدداً، يبلغون ثلاثين ألف مقاتل مختال مختال والمحمدية، وكان أميرهم شروين، لا تزيد على ستمائة رجل، والراستية كانوا أولى عددٍ وعُدٍ وجمع ومدد إلى أن نزح أميرهم البدر بن كيايك من ذلك البلد، بالأهل والولد، إلى متعة وقد تشنت شملهم، وتفرق جمعهم وعاشاه، عدتهم لا تزيد في بلد الموصل، لا تزيد على ألف رجل، وأميرهم علاء الدين كورك بن إبراهيم، ولا ينقص من بلد القعر في خمسمائة وأميرهم عمر بن أبي علي وموسى بن بهاء الدين، والدينلية وهم يسكنون الجبال المقلوب، والمختار مطلوبون بالخضارة أميرهم كلتي، ولا تزيد عدتهم على ألف متفرقين في البلاد، متمزقين في كل

واد.
الفصل الثاني
في اللر

وهؤلاء طائفة؛ كثيرة العدد، ومنهم فرق مفرقة في البلاد، وفيهم ملك وإمارة، وإقدام وشطارة، ولهم خفة في الحركات، وصدق في القول، يقف الرجل منهم إلى جانب البناء المرتفع، ويلصق بطنه بأحد الزوايا القائمة به، ثم يصعد فيه إلى أن يرتقى صهوته، العليا، ومنهم من يخالس الرجل ماله، ويأخذه منه، وهو لا يدري. وربما أمسك الرجل منهم، وضرب بالسياط، وغُوب أشد العقاب، فلا يقر أنه أخذه، ولا يعرفه، فإذا حلف بستر الله، وأقسم عليه به، أقر واعترف.

وفي بلاد مصر والشام منهم طوائف، وفي بلاد الشامية معظمهم، ولهم في هذا وقائع مشهورة، وأحوال مشهودة. وما يحكى أن السلطان صلاح الدين أبا المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله، حضر إليه رجل منهم، وأظهر له أشياء من أفعاله اللطيفة، وحركاته الخفيفة، حتى أنه وقف إلى جانب بناء مرتفع، وارتفع والتصق به، وارتفع حتى استوى على أعلاه، وصلاح الدين رحمه الله يظهر العجب من شطارته، وخفة حركته، وقدرته على ما لا يقدر عليه مثله، فلما نزل ضلع عليه، وأكرمه، وحمله على فرس وأقطعه أقطاعاً جليلاً، وقال له: اشتهى أن يكون عندنا جماعة منكم، فإننا ما نستغنى عنكم لتتوصل بكم إلى حصون الأعداء.

فبقى هذا اللرى يجلب له واحداً بعد واحد ممن يقدر على هذا منهم، فكلما جاء واحد منهم أكرمه صلاح الدين، وخلع عليه، وأقطعه الأقطاع، حتى لم يبق أحد منهم، وبقي مدة لم يُحضِر أحدًا إلى صلاح الدين، فقال له: لأي شيء ما عدت جيت لنا أحدًا؟ فقال: والله يا مولاي ما بقى أحد يقدر على هذا مثلنا، فلما تحقق صلاح الدين في ذلك، أسرها في نفسه، ثم جمعهم، وأوقف خلف كل رجل منهم رجلاً، وأوماً إليه، فضربوا رقاب أولئك النفر، لأن صلاح الدين لما رأى ذلك.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

فزع منهم على نفسه، وخاف إن هو قتله وجده، يبقى وراءه من يفعل مثل فعله، فاحتال عليهم بذلك لئلا ينزل عليه أحدهم فيقتله به.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وأما ما يروى من مشى هذه الطائفة على الحبال المنصوبة، على قامات من الأرض، وانقلابهم عليها في الهواء، حتى يصير رأس الرجل منهم منكوساً إلى الأرض، ورجله متعلقة بالحبل ثم يستوى على قامته، ثم يمشي على الحبل بالقباب، ويلعب فوقها بالمخاريق، ما تحار له الأبواب، ويحاك فيه لنوادر العجب العجائب، وإن نساءهم يفعلن، وتركضها أشد مركض، ثم تطيح عنها في قوة جريها إلى الأرض ثم تثب عليها فيستوى على ظهرها، ثم تصير حزاماً لبطنها، ثم تنزل صهوة الفرس، وتعنق العنق تارة من أعلاها وتارة من تلقاء صدرها إلى غير ذلك من عجائب الأفعال وغرائب الخفة في المجال. ودأب من هو منهم في الشام أحد ما قدروا عليه ووصلت أيديهم إليه، وقد عرف صبرهم على الضرب، فما بقى يضرب، أحد منهم إذا اتهم بل يحلف بستر الله ويقسم عليه به، فيقر، ويعترف، ويرد ما أخذه، ويقول: نحن نأخذ قبيح، ونحن نرد مליح.

وقد أوردنا هاتين اللفظتين بعبارتهم على ما هي عليه، وهم ببلادهم أهل منعة، وهي اللرا، إن كبير وصغير وأمور وأمير وسارقهم لا يقطع على الشارقة هكذا جرت عادتهم في بلادنا.

الفصل الثالث

في الشول

وهؤلاء حكمهم حكم شنكاره، وما يبعد بعضهم عن بعض في موازنة العقول، إلا أنه لا يخلو بينهم من دماء تطل، ومواثيق فيما بينهم تحل، وفيهم كرم وسماح، يقصدهم الفقراء وتنزل في قراهم، وتقيم في ضيافتهم وقراهم، ولهم فيها، ولهم فيهم حسن الظن إذا أنزلهم الفقير أنزلوه في بيوتهم، يمس وبصبح عندهم وبين نسائهم، فإن اطلعوا على أحد منهم أنه خان أو تطرق إلي حريم، أخرجوه من بيوتهم، وتبعوه، فإما نجا وإما أدرك، فقتل ولا يقتلون أحداً منهم في بيوتهم، سترأ على حريمهم، وخوفاً من تنفير الفقراء عنهم، لحسن ظنهم فيهم.

الفصل الرابع

في شنكاره

وهم أحسن من اللر طريقاً، وأقل فريقاً، وفيهم رعاية الذمام، وتمسك من الشريعة المطهرة بزم، ولهم بأس وشجاعة، وعندهم لأمرائهم سمع وطاعة، على أنهم أشد من الأسود إذا غضبوا، وأخف من البروق إذا وثبوا، يكون الرجل منهم في أسفل الجبل العالي، ثم يأخذ في الصعود، ويرشق محاربه السهم، فيكاد يسبق السهم، وقد بلغ غايته، وما انحدر أو يوافى هو وإياه على قدر.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

الباب الخامس

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

في مملكة الأتراك بالروم

أما المسماة الآن بمملكة الروم فقد كانت مملكة لا ترام، ولا يخلق إليها مرام، وهي مما هو من الخليج القسطنطيني ممتداً على جنوب بحر بنطس، وماء بنطس محجوزة بجمال يزل الطرف عن صهواتها، ويخل الطرف بعوائدها، في اقتحام حجراتها، وكانت آخر وقت زمان، بقايا بني سلجوق، معدن الخيرة والخير، ومسلك مسكن الملك، صاحب القبة والطير، وكان لسلطانها من إرث

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

أبائه حرمة محفوظة، ونعمة على معاصف الملوك ملحوظة، وقد تقدم في هذا الكتاب ما ينه على ما لهذه البلاد في المجد من الطارف والتلاد. كانت على عهد الروم؛ الباقي عليها نعتهم، إلى الآن محتبك الأعنة، ومشتبك الأسنة، دار القياصرة، ومكسر الأكاسرة، وكان لملكها الرتبة العليا، وكانت بقسمة التعديل ثلث الدنيا، لأنه لم يكن يسمى من ملوك الأرض إلا ملوك الفرس والروم والترك. وهكذا قسم فريدون، حد هؤلاء الملوك الثلاثة الأرض بينهم بالإثلاث، فالروم لهم الثلث وهم أهل التثليث وهذا الذي نحن في ذكره الآن، مما وقع في قسمهم، وطبع إلى وقتنا بطباع اسمهم، هو الذي الواقع على شرقي الخليج القسطنطيني متصلاً بأرمينية وديار العرب والعواصم والشام.

وهو أثرى الممالك بلا احتشام خلا أنه بكثرة الثلوج كالج الوج، في شبابه أشيب اللمة في قبابه لا يستسقى به محب لأتراك، (ولا يسأم، ولا بارق فيه لعارضة برق)، ولا يشأم، إلا أن صخوره تتفجر ماءً وتتفجر أنواءً، يعقد دون السماء بسما، فتخصب زرعها، ويحطم المحل ضرعها، وتخصف ورق الجنة على الخلائق، تمرها وينعها، وتطرب ورقها لمنظرها البديع، ومخيرها من صناعة صنعاء الربيع، فلا تسمع إلا كل مطربة تناجي النجى وتشجى الشجى، وتخلب قلب الخلي، وتهب الغواني ما في أطواقها من الحل، يعجب ثوبها السندس، ونباتها المتعلق بذيل النهار سحافها القندسي، فلا تجول في أرضها إلا على أرائك ولا ينظر إلا نساء كالحور العين، وولدانا كالملائك. وآخر ما كانت في أيام السلجوقية على ما قدمنا ذكره دار بهجة وسناء، ومجلس أنس لكؤوس وغناء، انتهبوا العيش بها نهياً وقطعوا الأيام بالمسرات فيها وثبا، ثم جرى عليها ملك أولاد جنكيزخان، لما فاضوا على الأرض من كل مكان، إلا أنهم أبقوا بقايا السلجوقية الملك بالروم، وحكموا معهم من يمنع أسودهم الرابضة أن تثب وتشتد، ولهم عبر ما خلوا من الندي ويحتلب، ثم إزالتهم الأيام، وأزاحتهم، لتمتد ستور الظلام.

وكان من دخول الملك الظاهر أبي الفتح بيبرس البندقداري (المخطوص ص 931) الصالحي، إلى قيسارية، ما هو مشهور، وكسر عليها طائفة من رؤوس التتار، ثم عاد، ولم يقر له بها قرار، بعد أن جلس على تخت آل سلجوق، وليس التاج، وضرب باسمه الدينار والدرهم واستبشرت به أهل تلك الدار، لكنه خاف عاقبة لموافقة طالع الوقت لنجم سعدهم ورجم ضدّهم، ولم يكن قد آن لجمرتهم أن يخمد لهبها، ولا لجدول سيوفهم أن يجمد عليها قربها، فاستمرت أيدي المغل عليها، واضمحل ملك آل سلجوق حتى سقط في يديها، فغلبت طوائف الأتراك هنالك على كثير من تلك المالك؟ إلا بقية حفظت المغل من مطالع أفقها، وأمسكت آخر رمقها، ودارت طوائف الأتراك ملوك المغل على ما غلبت عليه، وبقي منهم من يدخل في طاعتهم على أنه يسلم إليهم، ولا يخرج شيء من يديه، واستمرت أحوالهم معهم من الطاعة والعصيان والتذكّار والنسيان حتى تمادت المدد، وخر رواق الدولة الجنكيزخانية أو وهي منه بعض

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

العمد، فحينئذ ثبتت أقدامهم، وثبتت في مغارس الاستمرار أيامهم. ومنذ غلبوا على الروم، كاتبوا ملوك مصر، واتخذوهم ظهراً، وعدوهم لحواث الأيام ذخراً، حتى أن منهم من رغب في تقليد يكتب له بالنيابة فيما هو فيه، فكتب له وجهاز إليه بالصناجق والألوية والأعلام والتشريف التمام والسيف المحلي والحصان المركوب والجنايب، وهم إلى يومنا هذا أهل ود وصفاء وحسن عهد ووفاء، لكثرة ما خلطهم به الامتزاج وصل منهم من اتخذ مصر والشام داراً، وأخذ بهما الإمرة والأقطاع، وجرى فيها تحت حكم الأمر المطاع، ورسلمهم حتى الآن لا تنقطع عن مصرو الشام، والمكاتبات واردات وصادرات، والهدايا مقيمة وسائرات، ومع هذه كله كل واحدٍ منهم بما أتاه الله من فضله ونحن الآن نذكرهم على التفصيل، ونكتفي بالقليل. وها نحن نشرح حال كل طائفة متغلبة على هذه البلاد والمملكة التي استولت عليها، وما استقر (في يديها على ما تنبه عليه في موضعه).

وقد ذكر أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر دخول الملك الظاهر رحمه الله هذه البلاد، وخروجه في رسالة قال فيها: وسرنا لا يستقر بنا قرار، ولا يقتدح من غير سنائك الخيل نار، ولا نقيم إلا بقدر ما يتزايد الزائر من الأهبة، أو يتزود الطائر من التغبة، تحمل همنا الخيل العتاق، ويكبوا البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق، وكان السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بإدراع لامات حربهم، وحمل آلات طعنهم وضربهم، ورحلوا من حلب جرائد على الأمر المعهود، قد خفقوا كل شيء حتى عن السيف الغمود، فسرنا في جبال تشتت في سُلوك الأرض، وأودية تهلك الأسواط فيها إذا ملئت الفروج من الأرض، واستقبلنا الدرب كما قال المتنبي:

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

«رَمَى الدَّرَبَ بِالْخَيْلِ الْعَتَاقِ إِلَى الْوَرَى وَمَا عَلِمُوا أَنْ السَّهَامُ حُيُولٌ»

«فَلَمَّا تَجَلَّى مِنْ دَلُوكَ وَصَنِجَةِ عَلَتْ كُلَّ طَوْدٍ رَنَّةٌ وَعَوِيلٌ»

«عَلَى طَرَقٍ فِيهَا عَلَى الطَّرَقِ رَفْعَةٌ وَفِي ذِكْرَهَا عِنْدَ الْأَنْبَسِ حُمُولٌ»

ومررنا من دلوک وهي رسوم باكية على سكانها، ضاحكة عن تبسم أزهارها، وتقهقه غدرانها، ذات بروج مشيدة، وأركان موطدة، ونيران تراويق موقدة في عمد من كنائسها ممددة، وسرنا إلى مرج الديباج نتهادي، وذلك في ليلة مدلهمة ذات أندية، وإن لم تكن من جمادى، لا يثبت ثربها تحت قدم المار وكأنما ساكنها يمشي على شفا جرف هار.

وبتنا نستخف بالنسبة إليها ليلة الملسوع، وتتمنى العين فيها هجمة هجوع، وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفى الرفيق عن رفيقه، وتشغله عن افتقار طريقه، حولها معائر أحجار كأنها قبور تغيرت، أو جبال تفتطرت، بينها مخاض لإبل مغائص كأنها بحار فجرت، ما خرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول، وتيممت بالثلوج، وعميت مسالكها فلا أحد إلا وهو قائل، فهو إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج، تضيق مناهجها بمشي الواحد وتلتف شجراتها القفاف الإكمال بالساعدة ذات أوعار زلقة، وصدور شرقية، وأودية بالمزدحمين مختنقة.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

حتى وصلنا إلى الحدث الحمراء المسمى الآن بكينوك ومعناها المحترقة، كان قسطنطين والد صاحب سبيس قد أخذها من أصحاب الروم، وأحرقها وتملكها، وعم بها الضرر لبلاد الإسلام، سبى السلطان إليها عسكرياً من حلب، فافتتحها بالسيف، وقتل كل من بها من الرجال وسبى الحرير والذرية، وخربت من ذلك الحين، وما بقي منها من يكاد يبين.

وشاهدنا منها ما بناه سيف الدولة بن حمدان، فalcينا يقرع بالقفا، وموج المنايا تتلاطم، وقيل لسلطاننا هناك على قدر أهل العزم تأتي العزائم، غضب الدهر والملوك عليها فبناها في وجنة الدهر خالاً.

فبتنا بها وجيادنا إذا زلفت مشيت كالأراقم على البطون، وإن تكاسلت جر بعضها بعضاً بالصهيل والحديث شجون، وخصنا في أثناء ذلك مخاض سواقع، كأنها لأجل عموم الخيل بها سمي كل منها لأجل ذلك سابج، كلما قلت هذا بحر قد قطعناه أعرض لنا جبل، وكلما لنا هذا جبل قد طلعهنا بان لنا واد، يشتهون دون الهوى فيه نفاذ الأجل.

ثم وصلنا إلى كوك صو، وهو النهر الأزرق الذي رد الملك الكامل منه سنة الدربندات، لما قصد التوجه إلى الروم، وللوقت عبرنا ركضاً وأعجلت الخيل، فما درت هل خاضت لجة أم قطعت أرضاً، وبات الناس من بر هذا النهر الآخر، وأصبحوا متسللين في تلك الشم، ووقع السناك يسمع من تلك الجبال الصم، حتى وصلوا إلى أفجادرند، فما ثبتت يد فرس لمصافحة صفاها، ولا نعله لمكافة رهاها، ولا رجلة لمطارحة قواها.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وتمرنت الخيل على الاقتحام والإزدحام في التطرق وتعودت ما تعودت الأوعال في الأوعار من الشرب والتسلق تنحط انحطاط الهيدب، وترتفع ارتفاع الكوكب، حتى حصل الخروج من منتهى الدربند، وبات السلطان في وطاق هناك، وسمحت السحب بما شاءت من بردٍ وبردٍ، وجاءت الريح بما ألم الجار، واستنفذ الجلد، وانتشرت العساكر حتى ملأت المفاوز، وملكت الطرق على المار، وأخذتها على الجائر، وقد تقدم سنقر الأشقر في الجاليش فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار، مقدمهم كراي، فانهزموا من بين يديه، وأخذ منهم من قدم للسيف السلطاني، فأكل تهيمته وأمتار، واستمرت تلك منه فيمن يؤخذ من التتار، ويؤسره، وبات التتر على أجمل ترتيب ونظر، وبات المسلمون على أجمل تيقظ وحذر.

فلما كان يوم الجمعة عاشر ذي القعدة تتابع الخبر بعد الخبر، بأن القوم قد قربوا، وأنهم تابوا ووثبوا، ووصى السلطان جنوده في التثبت على ما يجب، وأراهم من نور رأيه ما لا يحتجب.

وطلعت العساكر من جبال مشترفة على صخرات منا من تلدا بلستين، وكان العدو ليلته تلك بايتاً على نهر زمان، وهو أصل نهر جهان، وأصل اسمه جيحان، فترتب المغل أحد عشر طلباً كل طلب يزيد على ألف فارس، وعزلوا عسكر الروم خيفة منهم، وجعلوا عسكر الكرج طلباً منهم واحداً بمفرده، ولما شاهدوا صناجق السلطان ومن حولها، وعليهم الخوذ الصفر المقترحة، وكأنها

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

في شعاع الشمس نيران مقتدحة، رجعوا إلى ما كانوا عقدوا من العزائم فحلوا، وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، وأنصبت الخيل إليهم من أعلى الجبل إنصباب السيل، وبطلت الحيلة منهم وبقي الحيل، فشمروا عن السواعد، ووقفوا وقفة الرجل الواحد.

وكان هؤلاء المغل قد اختارهم أبقا من كل ألف مائة، ومن كل مائة عشرة، ومن كل عشرة واحد، لأجل هذا اليوم، وكان فيهم من المقدمين الكبار تداون، وتقووا إليه أمر بلاد الروم، وأرختو أخو تداون ونمادريخشي، ومن أمراء الألوف زيرك وصهر أبغا وقراق وأخلدت من المغل فرقة إلى الأرض فقاتلت، وعاجت على نفوسهم وعاجلت، وجاء العدو الموت من كل مكان، وأصبح ماهان منهم وقدهان، وكم فيهم من شهم ما سلم قوسه حتى لم يبق في كنانته سهم، وذو سن طارح فما طارحه حتى تتلم، واشتدت فرقة من العدو من جهة الميسرة، معرجين على الصناجق السلطانية.

«فلزهم الطراد إل قتال أدى سلاحهم فيه فرار».

وثاب السلطان إليهم وثب عليهم فضحى منهم بكل أشمط، وأقرى سباع الوحش والطير فأفرط، ولحق من قصد التحصن في الجبال فأخذهم من كل رابية الأخذة الرابية، وقتلهم فهل ترى لهم من باقية، وانهزمت جماعة يسيرة، طمع فيها من العوام من لا كان يدفع عن نفسه، وأخذتهم المهاوي فما نجا منهم إلا آيس من حياة عده في أمسه.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

«مضوا متسابقو لأعضاء فيها لأرجلهم بأرءوسهم عثار».

«إذا قاتوا الرماح تناولتهم بأرماح من العطش القفار».

ووصدت ميمنة عسكرينا جماعة من المغل، ذو وبأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى ضجر الحديد من الحديد، وأما العدو فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهل والصوافق، وما يصلون به من سيوف وقسي وكتاين، وما يلبسونه من خوذ وذروع وجواشن، وما يتمسلونه من جميع أصناف المعادن، فغنم ما هنالك، وتسلم من استشهد من المسلمين رضوان، ومن قتل من التتار مالك، وأورث الله المسلمين منازلهم، فنزلوها ووطاقتهم وخركاواتهم فتمولوها، وكان السلطان مع أعدائه كما قيل:

«فمستاهم وبسطهم حرير
وصبحهم وبسطهم تراب»

وأصبح الأعداء كأنما جزر أجسادهم، تتخللها من الدماء السيل، وكأنما رؤوسهم المجموعة لدى الدهليز المقصور أكر، تلعب بها صوالح الأيدي والأرجل من الخيل، وكم فيهم من مهيب الهامة حشن الوسامة، يتفرس في جهامة وجهه الفخامة، قد فض الرمح فاه، فقرع السن على الحقيقة قدماء، وكثرت الأساري، فاختر السلطان من كبرائهم البعض وعمل بقول الله {وما كان لنبي أن تكون له أسرى حتى يثخن من الأرض} ودخل البرواناه مدينة قيصرية في سحر يوم الأحد ثاني عشر الشهر.

فأفهم غياث الدين سلطانها صاحب فخر الدين عليا والأتابك مجد الدين والأمير جمال الدين المستوفي والأمير بدر الدين ميكائيل النائب، والأمير الطغراني وهو ولد عز الدين أخي البرواناه، وهو يكتب طرز المناشير، أن المسلمين كسروا بعض المغل وبقيتهم منهزمون، ونخشى منهم دخول

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

قيصرية، واتلاف من يكون بها، فاحذر زوجته كرجى خاتون بنت غياث الدين صاحب أزر، وأمها ملكة الكرج وزوجها السلطان غياث الدين صاحب الروم في أربعمئة جارية. وكان لها ما لا كان لصاحب الروم من النجاتي والخيام والآلات، وتوجهوا كلهم إلى جهة توقات وهو حصن عن قصيرية أربعة أيام، وهَوَّل على بقية أمراء الروم، فاتبعوه إلا قليل منهم، وأخفى البرواناه أمره وأمر من معه حتى لا يخبر عنهم.

ورحل السلطان فنزل قريب قرية رمان، وبيوتها حول سن جبل قائم كالهرم إلا أنه ملموم، وعمرت البيوت في سفحه حوله بيتاً فوق بيت، وبدت كأنها مجرة النجوم وما منها بيت إلا وبه مقاعد ذوات داريزينات منجورة (ورواشون) قد بدت في أحسن صورة، يحميها من أعلاها أحسن بنيان، ويعلوها من رأسها منزل مسنم الرأس كما يعلوه الصعدة السنان، ويطوف بها الجبال كأنها لها أسوار بل سوار، وكأنها في وسطها إناء فيه جذوة نار، وفيها أنهار ذوات قناطر لا تسع غير راكب، مضائق لا تلقى غيرها مناكب، فنزلنا قريباً منها حتى تخلص من تخلص وحضر من كان في المضائق قد تربص.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وقال كل الآن حصص، ورحلنا والسماء قد حبت الأرض تيجان أمطارها، وأغرقت الهوام في أحجارها، والقح في أوكارها، وأصبحت الأرض لا تتماسك حتى ولمرور الأراقم، والجبال لا تتمالك أن تكون للعصم عواصم، تضع بها من الدواب كل ذات حمل، وتزلق على صقليها أرجل النمل. سرنا على هذه الحالة نهارنا كله إلى قريب الغروب وقطعناه بتسلمنا أيدي الدروب من الدروب، فنزلنا عشاء في مستنقع أرض يطوف بها جبال شاهقة، ومياه دافقة، تعرف قاعدة تلك الأرض بوطأة فشلاهار من أعمال صاروس العتيق، ويضرب من تلك الجهة معدن الفضة.

وبينما نحن قد شرعنا في أهبة المبيت، ولم تجمع الشمل الشتيت، وإذا بالصارخ قد عقر عقيرته، بأن فوجاً من التتار هنالك في فجوة قد استتروا وفي فجوة نفرة قد انتظروا، فركب السلطان والناس في السلاح، وعزموا على المطار، فعاقهم تتابع الغيث، وكيف يطير مبلول الجناح، ثم لطف الله وعاد السلطان وهو يقول لا بأس، فنمنا نومة السليم، وصارت أخطارنا سالمة شاعرة في كل واد تهيم، وأصبحنا فسلطنا جبلاً، لا يحيط بها الوصيف، ونبسط عذر الطرف فيها حين يكيو الطرف، ينحط منها إلى جنادل تضعف عن الهوى، إليها قوى الأجادل، ومررنا على قرية أوزاك، وتحتها قناطر وخان من حجر منحوت ثم خان للسبيل على رأس رابية، هناك قريب حصن سمند والذي عرض أبو الطيب به في قوله:

«فإن يُقَدِّمَ فقدُ زُرَّتَا سَمَنْدِ

وإن يُحْجَمَ فمَوْعِدُهُ الْخَلِيجُ

وكان السلطان قد سير إليها خواصه بكتاب إلى نائبيها فقبله وقبله وأذعن بالتسليم لحصنها المنيع، والنزول لأمر السلطان عنها أن استنزله، فشكر

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

السلطان له تلك الإجابة، ووفاه من الشكر حسابه. وكذلك إلى قلعة درنده وإلى قلعة دوالوه، فكلهم أجابوه وأطاعوه، ولكلمة الإذعان والوه، ونزلنا في وطأة قريب من قرية تعرف بحمرهاه، وكان الناس قد فرغت علوفات خيلهم أو كادت، وباتت الخيل ليالي بلا عليق، فمالت ومادت، وشاركها خيول الكسوب في عليقها، وما ساعدتها في طروقها ولا طريقها، فصادفنا في هذه الليلة بعض أتيان، أمسكت أرماقها، وأحسن إرفاقها، وأصبحنا راحلين من جبال كأنها تلك الأول، وهابطين في أودية يتمنى سالكها لشدة مضائقها لو عاد ترقى قبه الجبل.

ثم أشرفنا على خان هناك يعرف بقرطاي، يدل على شرف همة بانيه، وطلب ثواب الله تعالى فيه، وهو من أكبر الأبنية سعة وارتفاعاً، وأحسنها شكلاً وأوضاعاً، كله مبنى بالحجر المنحوت المصقول الأحمر الذي كأنه زخام، ومن ظاهر أسواره وأركانه نقوش، لا يمكن أن يرسم مثلها بالقلم، وله خارج بابه مثل الرض يباين بأسوار حصينة، ملط الأرض، فيه حوانيت، وأبواب الخان حديد من أحسن ما يكون استعماله، وداخله أواوين ضيقة، وأمكنة شتوية، واصطبلات على هذه الصورة، لا يحسن الإنسان يعبر عنها بكيف؟ ولا منها إلا ما يعده الكافر رحلة الشتاء والصيف وفيه الحمام والمرستان والأودية والفرش والأواني والضيافة لكل طارق على قدره.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وحمل إلى السلطان لما مر عليه وكثر الناس فما وصل أحد إليها ولا إليه، وعليه أوقاف عظيمة، وضياح كثيرة حوله وفي غيره من البلاد، وله دواوين وكتاب ومباشرون، يتولون استخراج أمواله، والإنفاق فيه، ولم يتعرض التتار إلى أبطال شيء من رسومه، وأبقوه على عوائد تكريمه، وأهل الروم يبالغون في تجميل بانيه — رحمه الله — وتعظيمه، فنزلنا تلك الليلة قريب قرية من قيصرية شرقي الجبل المعروفة بعسيب وفيه قبر امرئ القيس الشاعر وفيه يقول:

«أجارتنا إنَّ الخُطوبَ تنوبُ

وإني مُقيمٌ ما أقامَ عسيبُ»

«إجارتنا إنا عَرَبِيَّانِ ها هنا

وكُلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ»

وهذا الجبل يعلوه جبل أرجاش وهو الذي يضرب به الروم الأمثال لتساميه، وتتضاءل الجبال في جميع الدنيا العالية، لا تسحب ذيول السحاب إلا دون سفحه، ولا يعرف شتاؤه من صيفه من ثلوجه ولا لهيال الأبخرة المتصعدة، وعشاؤه من صبحه.

فلما كان يوم الأربعاء منتصف ذي القعدة، وهو يوم شرق الزهرة، ركبت العساكر المنصورة مترتبة، وملأت الفضاء متسربة، فركب السلطان في زممرته، ودوى أمره وإمرته، يختال به جواده في أفسح ميدان ويصبح به مرحاً وفرحاً كأنه نشوان درى إنه سلطان.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

«تظل ملوك الأرض خاشعة له تفارقه هلكي وتلقاه سجداً». وخرج أهل قيصرية وعلماءها وزهادها وتجارها ورعاياها ونساؤها وصغارها، فأكرم السلطان ممسiahهم وشكر مسعاiahم، وتلقى قضائهم وعلماءهم ركباناً وحادثهم إنساناً إنساناً، وحصلت لجماعة من الفقراء والناس حالات جد مضطربة وصرخات ذكر معجبة، وكان شعار السلطان غياث الدين صاحب الروم وخيامه، وشعار سلطنته قد بقى جميعه في وطأة قريب الجوسق والبستان المعروف بكبخسرو، فترجل الناس على اختلاف طبقاتهم في الركاب الشريف من ملك وأمير ومأمور، وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير، ونزل السلطان في تلك المضارب، وضربت نوبة بني سلجوق على باب دهليزه على العادة.

وإذن السلطان للناس في التقرب إلى شريف فسطاط، وحضر أصحاب الملاهي، فما ظفروا بغير النواهي، وقيل لهم: ارجعوا وراءكم، فالتمسوا وذهبوا إلى واد غير هذا الوادي فاقت سوءه هذه الهنات، لا تتفق هنا، وما هذا موضع الغناء بل موضع الغنى.

وشرع السلطان في إنفاق الله وعين في كل جهة شخصاً وقال: أنت لها، وحكم وحكم، وعلم وعلم، واعتمد على الأمير جاليش في النيابة وأعطى كلا يمينه كتابه وأقام الحجة على من نزع بالاستعطاف، وتأمين من خاف، فلما علم أنهم لا يفلحون، ولغير التتار لا يصلحون، وإنهم إن أصبحوا في الطاعة لا يمسون، وإن أمسوا لا يصبحون، عاد عن تلك الوعود، وأختار أن ما بدا إليه يعود، فركب يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة مستقبلاً من الله الخير، ونصب خبر بني سلجوق على رأسه، فرأى الناس منه صاحب القنة والسبع، وصاحب القبة والطير، ودخل قيصرية في بكرة هذا اليوم، وكانت دار السلطنة قد فرشت لنزوله، وتخت بني سلجوق قد هيء لحلوله، وهي (المخطوط 841) منازل تزهو، ومفازة من يتعبد ويلهو، أنيقة المبتنى، تحف بها بساتين عذبة المجتبى، جدرانها بأحسن أضاف القاشاني مصفحة، وبأجمل نقوشه مصرحة، فجلس السلطان في مرتبة الملك في أسعد وقت ونال التخت بحلوله أسعد البخت.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

«وما كان هذا التخت من حين نصبه لغير المليك الظاهر الندب يصلح». «مليك على اسم الله ما فتحت له صوارق البيض المواضي وتفتح». «أتته وفود الروم والكل قائل رأيناك تعفو عن كثير وتصفح». «فأوسعهم حلماً وجادلهم يداً وأمسوا على من وأمن وأصبحوا». وأقبل الناس على السلطان يهنونه. وعلى كفه الشريف يقبلونه ثم حضرت القضاة والفقهاء والصوفية ودور الرواتب من أصحاب العمام على عادة بني سلجوق في كل جمعة، ووقف أمير المحفل وهو كبير المعدلة عندهم، وله وسامه وفخامه، وله أوسع كم وأكبر عمامة.

وأخذ في ترتيب المحفل على قدر الأقدار، وانتصب قائماً بين يدي السلطان منتظراً ما إليه به يشار، وشرع القراء يقرأون جميعاً وفرادي بأحسن تلحين

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وأجمل تحسين، فلما فرغوا شرح أمير المحفل صارخاً، وبكور فمه نافخاً،
فأنشد وأورد بالفارسية، ما يعجب مدلوله، ويهلول مقوله، وأطال وما أطاب،
واستصوب من يعرف مقاله قوله، والله أعلم بالصواب.
ولما انقضى ذلك مدوا سماًطاً ليس يناسب همم الملوك، فأكل الناس منه
للشرف لا للسرف، ثم عاد كل إلى مكانه فوقف، وقام السلطان إلى مكان
الراحة، فأقام ساعة أو ساعتين، ثم عاد إلى مخيمه قرير العين، وكان بدار
الملك حرم السلجوقية، على أبوابهم أسمال ستور حرير، ومشايخ خدام،
يستحق لكل منهم أن يدعى بالكبير، فجبرهم السلطان، وأنسهم، وأحسن
إليهم، وتوجه إلى صلاة الجمعة بقيصرية، وبها سبع جمع تقام فيها خطباً إلا أنهم
كالأنعام فصلينا في جامع السلطان، وهو جامع لا يدل على احتفال ملوكها
ببيوت عباداتهم، ولا فيه دلائل الخير ما تقضى بحسن إرادتهم.

فحضر أهل المدينة وأكابرها، وجلسوا حلقاً لا صفوفاً وأجروا من البحث
بالعجمية صنوفاً، واجتمعت جماعة من حفاظ الكتاب العزيز فتخرجوا القراءة
آية آية، وهي قراءة بعيدة عن الدراية بل إنها تبرزها أصوات مترنمة، والحن
لتفريق الكلمات مقسمة، ينطقون بالحروف كيف اتفقت، ولا يتوقفون على
مخارج الحروف إنها بها تُطقت ولا نطق، ولما آن وقت الأذان، قام صبي عليه
قباء، من وسط جماعة عليهم أقبية، قعود على دكة المؤذنين، فابتدأ بالتكبير
أولاً وثانياً بمفرده من غير إغانة ولا إبانة، ولما تشهد ساعده جميعهم بأصوات
مجمجمة ملعلة، ونغمات متنوعة يحيكون له النغم بأطيب تلحين، ويترنمون
بالأصوات إلى آخر التأذين، وفرغ الأذان، وكلهم قعود، ما منهم أحد غير الصبي
قد وقف وما منا أحد لكلمة من الأذان عرف، ولما فرغ الأذان، طلع شيخ كبير
السن يعرف بأمر محفل المنبر، فصعد ذروة المنبر، وشرع في دعاء لا نعرفه،
وإدعاء لا نألفه، كأنه مخاصم أو وكيل شرع أحضره لمشاورة خصمه خصم بين
يدي حاكم، وطلع الخطيب بعد ذلك فخطب، ودعا للسلطان بغير مشاركة،
وانفضت الجمعة على هذه الصورة المسطورة.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وضربت السكة باسم السلطان، وأحضرت الدراهم إليه في هذا اليوم فشاهدنا
وجهاً متهللاً باسمه الميمون، وأقرت الألبسة بهذه النعمة، وقرت العيون،
وشاهدت بقيصرية مدارس وخوانق وربطاً، تدل على اهتمام بانيها، ورغبتهم
في العلوم الشريفة، مشتدة بأحسن الحجاز الحمر المصقولة المنقوشة
وأراضيها بأجمل ذلك مفروشة، وأواينها وصقفها مؤزرة بالقاشاني الأجمل
صورة، وجميعها مفروشة بالبسط الكرزية والقالية، وفيها المياه الجارية، ولها
الشبابيك على البساتين الحسنة.

وسوق قيصرية طائف بها من حولها، وليس داخل المدينة دكان ولا سوق،
والوزير في بلاد الروم يعرف بالصاحب فخر الدين خواجا علي، وهو لا يحسن
الكتابة، ولا الخط، وخلفه من مماليكه خاصة مائتا مملوك، ودخله غير دخل
أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخواصه؟ سبعة آلاف درهم سلطانية،
ولقد شاهدت في مدرسته من خيامه وخركاواته شيئاً لا يكون لأكبر الملوك،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وله بر ومعروف وبالخير معروف.
وأما معين الدين سليمان البرواناه وزوجته كرجى خاتون فظهر لهم من الوجود البادي للعيون كل نفيس، واستولى السلطان من موجودهما على ملك سليمان وعرش بلقيس ولما أقام بقيصرية هذه المدة، فكر في أمر عساكره، ومصالحهم بما لا يعرفه سواه، ونظر في حالهم بما أراه الله، وذلك لأن الأقوات قلت، والسيوف من المضاربة ملت، والسواعد من المصارمة كلت. وأنه ما بقى بالروم من الكفار من يغزى، ولا بجزء السوء يجزى، وما بقى في البلاد إلا رعايا كالسوائم الهاملة، ولا دية لكفر منهم على عاقل ولا عاقلة، وإن أقام بالبلاد لا تحمله، ومواد بلاده لا تصله، وأعشاب الروم بالدوس قد اضمحلت، وعلوفاتها قد قلت، وزوعها لا ترجى لكفاية، ولا ترضى خيول العساكر المنصورة بما ترضى به خيول الروم من الرعى والرعاية، وإن الحسام الصقل الذي قلت به التثار في يد القاتل، وإنه إن كان أعجبهم عامهم فيعودون إلى الروم من قابل.

فرحل يوم الاثنين العشرون من ذي القعدة بعد أن أعطى أمراءه وخواصه كلما أحضر إليه من الأعنة والأزمة، وكلما يطلق على غولة اسم النعمة، فنزل في منزلة تعرف بقبرلولو، فيها وصل إليه رسول غياث الدين والبرواناه، يستوففونه، وكان الأمر شائعاً إنها إلى سيواس، فعدد السلطان عليه حسن وفاء عهده، وأنه أجاب دعاهم مرة بعد مرة، من أقصى ملكه مع بعده، وأنهم ما وقفوا عند الشرائط المقررة، ولا وفوا بضمضمون الرسائل المسيرة، وأنه لما جاء الحق وزهق الباطل طلبوا نظرةً إلى ميسرة، وعلم السلطان أن عساكر الروم أهل البداد لا أهل نفاذ، وأهل طرف لا أهل حرب، وأهل طيبة عيش لا قواد جيش فرد إلي سليمان البرواناه وهدده، وقال: قل له أني قد عرفت الروم وطرقاته، وأمه أسيرة معي وابن بنته وولده، وبكفينا ما جرى من النصر الوجيز، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز، ولا كل من قضى فريضة الحج تجب عليه المجاورة، ولا بعد هذه المهاجرة مهاجرة، ونحن فقد ابتغيها فيما أتانا الله من حقن دماء أهل الروم، وعدم نهب أموالهم، الدار الآخرة، وما كان جلوسنا في تخت مملكتكم لزيادة تنجح بتخت آل سلجوق إلا لتعلمكم أنه لا عائق لنا عن أمر من الأمور، يعوق، وأن أحداً لا ينبغي له أن يأمن لنا سطوة، وليتحقق كل أن كل مسافة جمعة لنا خطوة، وسروجنا بحمد الله أعظم من ذلك التخت حلالاً، وأرفع منالاً، وكم في ممالكنا كرس ملك نحن آية ذلك الكرسي وكم لنا فتح، والحمد لله فوق الفتح القدسي.

واستصحب السلطان معه أكابر الروميين، ثم رحل فنزل قريب خان السلطان علاء الدين كيقباد، ويعرف بكرواصواي، وهذا الخان بنية عظيمة من تشبه خان قطراي، وعليه أوقاف عظيمة، من جملة أغنام كثيرة، يذبح نتائجها للواردین عليه، ثم نزلنا في وطأة رويزان كودلوزكودلو، اسم جبال تلك الوطأة، ثم رحلنا فعارضنا نهر في وطأة خلف حصن سمندو من طريق غير التي كنا توجهنا عليها بمكان يعرف بنهر فزل صو، وهو صعب المخاض، واسع الاعتراض، عالي

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

المهبط، زلق المسقط، مرتفع المرتقى، بعيد المستقى، لا يجد السالك من أحوال حافتيه إلا صعيداً زلقاً.
فوقف السلطان عليه بنفسه وجرّد سيفه بيده، وباشر العمل هو وجميع خواصه، حتى هيا المكان جميعه، ووقف راحلاً يعير الناس أولاً فأولاً من كبير وصغير وعلام، وهو في أثناء ذلك يكبر على من يزدحم، ويكرر التأديب لمن يطلب بأذية رفيقة أنه يقتحم، فلما خفت البرور، ولم يبق إلا المرور، ركب فرسه، وعبر الماء.
ونزل في واد هناك به مرعى ولا كالسعدان ومرائي ولا لشعب بوان، ثم رحل، فنزل عند صخرات قراجا حصار، وهي قرية كان عامرة فيما مضى قبالة بازار بلو، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه من كل شيء يجلب في الأقاليم.
ثم سرنا حتى نزلنا وطأة الأبلستين، وعبر السلطان على مكان المعركة المتقدمة مع التتار، ورأى كيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرها، ومن النسور مناسرها، وكيف أصبحوا لا تندهم إلا اليوم، وكيف تحققوا أن التي أهلكهم زرق الأسنة لا زرق الروم، وشاهدتهم والهوام في أجسامهم متصرفة، قد هزأ بهم كل شيء حتى الوحوش والرياح، فهذه من صديدهم متكررة، وهذه عليهم متقصفة.
«قد سودت شجر الجبال شعورهم فكان فيه مسفه الغربان».

وحضرت من أهل الأبلستين هناك جماعة من أهل التقى والدين، فاستخبرهم السلطان عن عدة قتلى المغل، فقالوا: ما شأن العاديين، فاستفهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتل؟ فقال: قل الله أعلم يعدتهم، ما يعلمهم إلا قليل، فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا أعددت سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين نفراً وضاع الحساب، هذا غير من آوى إلى جبل يعصمه من ماء السيوف فما عصمه، ومن اعتقد أن فرسه يسلمه في سلمه.
فنزلهم السلطان، ورسم بتقدير الأثقال والخزائن والدهليز على أقجادر بند، ثم أقام يومين ينتظر صعيداً من العدو بعن أو دماً من دمائمهم إلى السيف يحن، فلما لم يجد أحداً، رحل من طريق غير التي حضر منها، فسلك على الأوعار طريقاً يبساً، وطلع من قنن الجبال في هضاب كان كلا منها كف حملت من الأنجم قبساً، فقاس الناس في هذا اليوم من الشدة ما لا يدخل في قياس.
اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وكاد الناس أن يهلكوا لولا أن الله تدارك الناس، فساقوا ولكن على مثل حد السيف، وتسلبوا ولكن سل حوافر الخيل كيف، وهبطوا من جبال يستصعبها كل شيء حتى طارق الطيف، يستصحب الحجر المحلق وقوعه في عقابها ويستهل النجم الثاقب تعلقه بشعابها.
وعد بباكوك صو وهو النهر الأزرق، وبات السلطان هناك، وكان قضيم الخيل في تلك الليلة ورق البلوط إلا من أمست عناية الله له بيسير شعير محوط، ورحل السلطان ونزل كينوك المقدم ذكرها، وعدل إلى طريق مرعش فزال بحمد الله عقاب تلك العقاب.
وقالت الأنهار المتلقية لكل منا أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، ونزلنا قريب قلعة خراب، تعرف بالاسكر كيس إلى جانب نهر يعرف بالخان، ثم رحل السلطان قريب بركلوجا من بلاد مرعش ثم رحل فنزل عقبة مرى أحد

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

دربندات سيس إلى جانب النهر الأسود، ورحل فنزل قبالة دريساك، ورحل فنزل قبالة حارم، فنزل قريب منزله الذي كان به فيما تقدم، وألقى عصا النسيان، وقال لأهل الخيام هذه الخيام ولأهل هذه الدار هذه الدار.

هذه الرسالة كافية في كثير من أحوال الروم، وفيما ذكره عن دخل هذا الوزير ومن له الممالك غير بقية من لعله يكون له من الجند والأتباع ما يعرف به عظم شأن هذه المملكة ووفور دخلها ووفود السعود إلى محلها، وتستتر أبناء الزمان من عين دهرها بظللها.

ولو قد اجتمعت هذه البلاد لسلطان واحد، وكفت بها أكف المفاصد، لما وسع ملوك الأرض إلا انتجاع سحابه وارتجاع كل زمان ذاهب في غير جنباه، وهذا الذي ذكره، دخله الملك الظاهر بيبرس من بلاد الروم، وهو بعض ما لبيت جنكيزخان وهو من جلالته المقدار، وكثرة المال، على ما قد أشرنا إليه، فكيف جميع ما هو الخليج القسطنطيني إلى بحر نيطنش.

الله أكبر أن ذلك فلك عقيم، وسلك نظيم وسلطنة كبرى ودنيا أخرى، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأما ما نحن بصدد ذكره من ممالك الأتراك في الروم، فقد حدثني الشيخ حيدر العريان السير حصري الرومي، وهو من أهل مدينة سبر حصر من بلاد الروم، مما هو في أيدي ملوك بيت جنكيزخان، قال: إن لهؤلاء أمراء الأتراك نقود ألا يخرج نقد واحد منهم في بلاد الآخر، ودرهمهم في الغالب في تقدير نصف وربع درهم من نقدنا، والرطل مختلف عندهم، وأكثرها بالتقريب زنة اثني عشر رطلاً بالمصري، وأقلها زنة ثمانية أرطال.

قال: وأما الغلات فتباع بكيل لهم يعرف بالوط، وهو يجيء تقدير أردب ونصف بالمصري.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال: وهذه البلاد بل الروم جميعه فيه من أنواع الفواكه. كلها إلا الحوامض كالليمون وال نارنج وما لا يوجد في الصرود كالرطب والموز، وقد يوجد ما قل من الحوامض في بعضها مما هو على ساحل البحر.

وأما الدواب والسوائم فأكثر من أن يقع عليها إحصاء أو حساب من الخيل والغنم والبقر، وأعظمها عدداً وأنماها ولداً الغنم، فإنها تبسط فرش الأرض منها المعز الموعر ذوات الأوبار المضاهية لأنغم الحرير، وغالب قنية أهل الشام وديار بكر والعراق وديار العجم، وذبائحهم مما يفضل عنها، ويجلب إليها منها، وهي أطيب أغنام البلاد لحماً، وأشهى شحماً، وبها العسل المضاهي للثلج بياضاً، والسكر في اللذادة طعماً، لا حدة فيه ولا إفراط حلاوة توقف الأكل. والأسعار كلها بالروم رخيصة لأسباب منها قلة المكوس وكثرة المراعي المباحة، واتساع سبب التجارة، واكتتاف البحر.

قال: وقيمة الغلات بها دون قيمتها بمصر والشام.

وقيمتها أو مثلها في الغالب، فأما اللحم واللبن على اختلاف أنواعها فرخية رخيصة، أما الغنم فخيار رأس يكون لا يجاوز اثني عشر درهماً من دراهمهم، يكون بنحو تسعة دراهم من دراهمنا إلى ما دون ذلك.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وأما اللبن وما يعمل منه فما هو مما يسأل عنه بكيف؟ لكثرت، وأما في زمن الربيع فإنه لا يوجد له من يشتري ولا من يبيع لأنه لا يكاد يخلو أحد في الروم من أغنام تحلب له اللبن فلا يحتاج ليشتره، ولا يحتاج إليه فيبيعه له. قال: وأما العسل فلا تتجاوز الرطل ثلاثة دراهم برطلهم وهو ذلك الرطل الكبير، ودرهمم وهو ذلك الدرهم الصغير، وأما الفواكه في أوانها حكم الألبان في زمان الربيع. وقال: وبلاد الروم إذا غلت وأقحطت كانت بسعر الشام، وإذا أقبل وأرخص. قال: ومع نواب بيت جنكيزخان بالروم ثلاثة معادن فضة أحدها بأراضي مدينة لؤلؤة، والثاني بأراضي مدينة لبن، والثالث بأراضي مدينة باجرت. قال: وهي إلي أن فارقتها في حدود سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة، عماله مستمرة تستخرج الفضة الخالصة بها.

قال: والروم شديد البرد، لا يوصف شتاءوه إلا أن سكانه تستعد له قبل دخوله، وتحصل ما تحتاج إليه، وتدخره في بيوتها، وتستكثر من القديد والأدهان والخمور، فتأكل طول مدة الشتاء تلك الأيام بهنية العيش عندهم ولا تخرج من بيوتها، ولو أرادت ذلك لما قدرت حتى تذوب الثلوج، فتخرج إلي معايشها. وذكر هذا الشيخ حيدر العريان أن جملة ممالك الأتراك بالروم أحد عشر مملكة غير ما بيد بيت جنكيزخان، وهذا هو خلاف ما تبين على ما سنذكره نقلاً عن يليان الجنوبي ويليان أدري. اسم الكتاب: مسالك الأبصار فأما ما عده العريان من ممالك الأتراك فهو مملكة انطاليا، وصاحبها خضر بن دندار، وقال: أن لصاحبها مدينة افنيكا، وأميرها الذي هو بها الآن من قبله، وهو من أولاد منتشا، وقال: إن عدة عسكره نحو أربعين ألف فارس. قلت: ولهؤلاء بني دندار إلى ملوك مصر انتماء، ولهم من تحف سلاطينها نعماً، وكان بمصر منهم من له إمرة فيها، ثم عاد إلي بلاده بعد مهلك تمرتاش بن جوبان لأنه كان قد ترك بلاده لأجله، وفر هارباً من يده لعداوة كانت قد اضطربت بينهما شرورها، واضطربت أمورها، فلما خلت من مجاورة تمرتاش تلك البلاد، عاد وأخبرني يليان الجنوبي الآتي ذكره، أنه قتل هناك، وما استقر له حال، ولا سلمت له بلاد. ومملكة رملاش بلاد ابن منتشا، وقال: عسكره لا يزيد عن ثلاثة آلاف فارس. ومملكة بركري بلاد محمد بن ايدين، وأن عسكره نحو عشرة آلاف فارس، وهذا ابن ايدين ما أعرف بأن له من حوله من ملوك الممالك الماما، ولا أن له أخيراً ترد طروقاً ولا لماماً، بل هو في عزلة من كل جانب، ولا مخالط ولا مجانب. ومملكة كاس برديك بلاد صاروخان، قال: وعسكره إذا جُمع بقارب ثمانية آلاف فارس.

ومملكة بالي كسرى بلاد دمرخان بن قراشي قال: وله مدينة كردما وبينهما يومان، وأمير كردما من قبيلة واسمه سبغا، قال: وهذه البلاد محصنة منيعة، ولها أقطار رخية وسيدة، ومع هذا فعسكره قليل ضئيل، لا يجاوز مائتي فارس،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

لكنه مطمئن بمنعة بلاده، ولا ينافسه فيها منافس. ومملكة بلاد أورجادين عمان قال: وعسكره خمسة وعشرون ألف فارس، وهو مجاور الخليج القسطنطيني، وبينه وبين صاحب القسطنطينية الغلب، ولها في صدور الروم سهام تشق صدور القلب، ولهذا يداريه ملك الروم على مال، يحمله إليه كل هلال، قال: ولقد جاز البحر مرةً إلى بلاد النصارى، وعاش في نواحيها، وشد على بطارقتها لا فلاحها، وألقى علوجها بحيث تعتلج سيول الدماء، وتختلج سيوف النصر من الأعداء، أمده الله بتأييده، وأذل رخم الكفر بعقبان صناديد.

ومملكة كرمان بلاد أرغدشار، قال: كرسي مملكة كونا، قال: ومالكها الآن كرمان بن غدشار، هكذا قال الشيخ حيدر العريان، وهو أمير مطاع، وقائد جيوش لبوارق سيوفهم متاع، وأمراء الأتراك تتقيه ببذل كل منهم في مناقاته ما استطاع، قال: وعسكره يقارب أربعين ألف فارس، وهم فوارس وغي، وفوارع عليا لا تبتغي.

ومملكة كرداله بلاد شاهين، قال: وعسكره نحو خمسة آلاف فارس. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ومملكة كونيك حصار بلاد أمير جاكو، قال: وعسكره ثلاثة آلاف فارس. ومملكة كصطمونيه بلاد سليمان باشا، قال: وصاحبها الآن إبراهيم بن سليمان باشا، وله مدن وقلاع، ومن مشهور ماله منية سنوب، وأميرها من قبله، واسمه غازي جلبى، وبودي وأميرها مراد بك.

قلت: وصاحب كصطمونيه ممن له بملوك مصر اتحاد، وبينه وبينهم مكاتبات ووداد ونحوه على ما يقال لنا ويبلغنا نحو ثلاثين ألف فارس أو يزيدون، وببلاده الخيل المخاص الرومية الفائقة، المفضل بعضها على كل سابق من الخيل العرب، وهي بيوت مشهورة مثل خيول العرب، بأنساب محفوظة وأحساب ملحوظة، ويغالى في أثمانها، خصوصاً في مكانها حتى أن قيمتها لتبلغ قيمة ألف دينار ذهباً، ومنها ما يتجاوز هذا المقدار ويزيد قيمته على ألف دينار، ولا يستكثر من يعرفها فيها بذل مال، ولا يستغلى اشتطاط السوم، وإذا قصد في بلاد الروم بيع اكديش خال منها بالثمن الغالي، قال: هذا كصطموني يشرفه بهذا الوسم، وينفقه في البيع تجاه هذه النسبة.

ومملكة أرمصال وهي بلاد ابن قرمان، وصاحبها الأمير محمد بن قرمان، من أهل بيت توارثوا هذه البلاد، ولا يخاطب قائم منهم إلا يأمره، وفي ساحل بلاده مدينة العلائية المعروفة على ألسنة الناس بالعلايا، وأميرها من قبله اسمه يوسف، وله مدينة وهي عنه على ثلاثة أيام، وأميرها من قبله واسمه إسحق بك، ولأولاد قرمان عصبة ذات أيدٍ ويد وجيوش كثيرة العدد، وهم أصحاب الحروب التي ضعفت الجبال، وأنتجت الحرب الحيال، ولهم مع الأرمن وبلاد التكفور وقائع لا يجدها إلا الكفور، تتخطفهم عقبانه القشاعم، وتلتهم أسوده الضراغم.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ببلادهم معدن حديد، لهم به بأس شديد، ومنه درق مديد، وهم أهل بيت ألقى الله عليهم محبة منه، وإذا شاء أميرهم جمع أربعين ألفاً، وهو ما هو عليه، يدارى ملوك التتار، وهواه هو ومن سلف من أهل بيته مع ملوك مصر، لا تغب المكاتبات بينهم، ولا ينقطع بذل خدمته لهم، وإقبالهم عليه، واعتدادهم بموالاة، وقد كان منهم من قد طلب تقليداً بمصر بإتيائه ما بيده من بلاد الروم، فكتب له، ثم أن سلامش الحاكم بالروم كان انحرف عن سلاطين بيت هولاكو، وكتب إلى الأبواب السلطانية بمصر يسأل تقليداً بملك حكم الروم أجمعه، وأن تكون أولاد قرمان ومن سواهم في طوعه، فكتب من إنشاء شيخنا أبي الثناء محمود بن سلمان بن فهد الحلبي الكاتب رحمه الله، ومنه وبعد فإن أولى من أصغت عزائمنا الشريفة إلى نداء إخلاصه، وأجابت مكارمنا العظيمة دعاء تميزه بالولاء واختصاصه، وقابلت مراسمنا استتصاره في الدين بالنفير لإعانتة على ما ظفر بإقتلاعه من يد الكفر، واقتناصه (تكرار من أول وقابلت إلى اقتناصه) وتكفلت له مهابتنا بالأمن على ملك مذ وسمه باسمه الشريف، يئس العدو من استخلاصه، وأتت كتبه في الاستنجد ليرعان الكتاب، ولمعان القواضب، وتتابع إمداد جيوشا التي ستنوء بحملها كواهل المشارق والمغارب، وتدفع أمواج عسكرنا الذي ينشد طلائعها ملوك العدى أين المفر؟ ولا مفر لهارب وتألّق بروق النصر، من خفق ألويتنا، الشاهدة بأن قبيلنا إذا ما التقى الجمعان أول غالب، وفوضت إليه مراسمنا الحكم بالعدل والإحسان، وقلدته أوامرنا من عقود النظر في تلك الممالك ما تود جباه الملوك لو حلت بדרه معاهد التيجان، وعقدت به من الأوامر ما تنفذ بنا مواقعه، وكذا الأمور المعتبرة ما تنفذ إلا بسلطان من ألقى الله الإيمان في قلبه وهداه إلى دين الإسلام، فأصبح على بيعة من ربه، وأراد به خيراً فنقله من حزب الشيطان إلى حبه، وأيقظه من طاعتنا التي أوجبها على الأمم لما أبصر به رشده، ورأى قصده، وعلم به

أن الذي كان فيه كسر اب بقيعه ولم يجده شيئاً، وأن الذي انتقل إليه، وجد الله عنده وأنهته من موالاتنا بما حتم به النهوض على من كان مسلماً وأخرجه بنور الهدى من عداء أعدائه الذين تركهم خوفنا، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مطلماً، وأراه الرشد ما علم به أن الله تعالى أورثنا ملك الإسلام، فبطاعتنا يتم الإتياء إليه، وأعطانا مقابليد البسيطة، فمن اغتصبت منها شيئاً، انتزع الله بجنوده المسومة من يديه فلجاً من أبوابنا العالية إلى الظل الذي يلجأ إليه كل ذي منير وسرير، ورجاء من كرمنا الاعتصام بجيوشنا التي قارحينا بها عدواً إلا ظن أن الرمال تسيل (والجبال تسير) وتخير منا إلى فئة الإسلام، وانتصر بسيوفنا التي هي تعلم كيف يسلمها على الأحلام، ومثّ إلينا بذمة الإسلام، وهي أبر الذمم، وطلب تقليده الحكم منا من معادنه إذا رآته النظرات الصادقة أن كان يسحب الشحم فيمن تحمه ورم، وعقد بنا رجاؤه، وهل لمسلم من ملك الإسلام من معدل وأنزل بنا كتائب أماله، وهل تعد راحة لرام من منزل فتلفت نغمها كرائم قصده بالترحيب، وأحلت وفادة انتمائيه بحرمانا الذي شاءه بعيد ونصره قريب، وتسارعت إلى نصرته جنودنا التي هي مشهورة في عددها، وأثارها، مشكورة في رواجها وغدوها، وأعلامها منصورة في انتزاعها ودنوها، وتوالت تباع بعضها بعضاً، تتابع الغمام المتراكم، والموج المتلاطم، وتقدم غلبه بالنصر القريب من الأمد البعيد، وتعلم بوادرها أن طلائعها عنده، وبانيها بالصعيد، ولما كان فلان هو الذي أراد الله به الخير، ما أراد، ووطن له

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

بغايته أركان الرشاد وشاد وجعل له بعد الجهل به علماً، وتداركه برحمته فما أمسى للإسلام عدواً، حتى أصبح هو ومن معه مسلماً، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، وبكرمه العميم فليستفتحوا صدورهم ويشرحوا وبارشاده الجلي وهدى نبيه فليدعوا قومهم إلى ذلك وينصحوا، وحين وضحت له هذه الطرف أرشدته من خدمتنا الشريفة إلى الطاعة،

وبادلتها على مولاة ملك الإسلام التي من لم يتمسك بها فقد فارق الجماعة، فإن الله تعالى قرن طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بطاعة ولي الأمر، وحث على ملازمة الجماعة في وقت يكون التمسك فيه بدينه كالقايض على الجمر وهذا فعل من أراد الله به خيراً وسعى من يحسن في دين الله سيرةً وسيراً، ولذلك اقتضت آراءونا الشريفة إمضاء عزمه على الجهاد بالإنجاد، وانقاذ سهمه في أهل العناء بالإسعاف والإسعاد، وأرسلها الجيوش كما تقدم شرحه يطأون الصحاح، ويستقربون المدى النازح ويأخذون كل كمي، فلو استطاع السماك لم يتسم بالرامح، ويحتسبون النفقة في طلب علو الإسلام علماً أنهم لا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم به عمل صالح، فرسم بالأمر الشريف لا زال يهب الدول ويقلد أجياد العظماء ما تود لو تحلت ببعض فرائده تيجان الملوك الأول، أن يفوض إليه نيابة المملكة الرومية تفويضاً، ليصون قلاعها ويصول به على من حاول انتزاعها من يده، واقتلاعها، ويجرها على ما ألفت ممالكنا، من أمر لا يروع سربه، ولا يكدر شربه، ولا يوحد فيه باغ يخاف السبيل بسببه، ولا من يجرد سيف بغى وإن جرده قتل به، وليحفظ من الأطراف ما استودعه، وهذا التقليد حفظه، وليعمل في قتال مجاوريه من العد، بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً}، وليعلم أن جيوشنا في المسير إليه متى قصد عدواً، سابت خيولها خيالها، وجادت جياها طلالها، وأنفت سناكبها أن تجعل غير جماجم الأعداء نعالها، وها هي قد تقدمت وأقدمت، ونهضت لإنجاده، فلو سأمها أن تخوض البحار في سبيل الله لخاصت، أو قصد الجبال لصدمت، والشرع الشريف مهمة المقدم، وأمره السابق على كل ما تقدم، فليعل مناره، وليستشف في أموره وأنواره، وينقذ أحكامه، وبعضد حكامه، ومن عدل عن حكمه معانداً، أو ترك شيئاً من حكمه جاحداً فقد برئت

الذمة من دمه، حتي يفيء إلى أمر الله، ويرجع عن عناده وينيب إلى الله، فإن الله يهدي إليه من أناب وهو الذي يقبل التوبة عن عباده.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

الباب الخامس

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

(وكان من حديث هذا اسلامش المذكورة)

إن السلطان محمود غازان قصد أعداءه فأراد الإنحياز إلى الشام، وكاتب الملك المنصور لاجين، فأرسل شخصاً من جهته يُعرف بالمخلص الرومي، فأقبل السلطان وأرباب الدولة عليه، وقيل إنَّه لا تُكره من هاجر إلينا، واتصل بالسلطان محمود غازان مراسلة المصريين، فبعث إليه عسكرياً لمحاربته،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

فالتقوا معه ببلاد الروم، فلما التحم القتال خامر عليه (المخطوط 261) بعض من كان معه، فبقى في قل من أصحابه، وحقت عليه الهزيمة فالتحق بالشام في قل من جيشه، فلما أتى حلب جهز معه من يحضره إلى الأبواب السلطانية بمصر، فلما وصل عومل بالإكرام، وعوجل بالإنعام وخير في المقام بمصر إن شاء أو الشام، فذكر أنه ترك وراءه ماله وأهله وأولاده، وسأل تجريد عسكر لإحضارهم ليقم بالبلاد الشامية، مقطوع الإلتفات عما سواها، فجهز معه من العسكر الجلو طائفة مع بكتمر الجلمى، دخل بهم بلاد الروم على بلاد الأرمن، وبلغ متملك سيس الخبر، وكان عنده طائفة من التتار فأمسكوا عليهم الدروب، وعاجلوهم باللقاء فما كان بأسرع من أن قتل الجلمى، وفر سلامش، ولجأ إلى قلعة من قلاع الروم، فأرسل السلطان محمود غازان في طلبه، فأحضر إليه، فقتله شر قتلة، وذبحه على غير قلة. وكان سلامش قد خلف بالأبواب السلطانية بمصر أحاً له اسمه قطقو والمخلص الرومي، فاستقرا بها، وأقطعا إقطاعاً بها، وأجرى عليهما راتباً فيها.

وإنما ذكرنا حديث سلامش في هذا المكان لتعلقه بالروم، ولأن أمراء بني قرمان هم كانوا المؤلفين بينه وبين المنصور لاجين، والداخلين معه أولاً وآخرأ فيه وهؤلاء أولاد قرمان هم الذين لا يرتاب في رأيهم، ولا يظن في دينهم، فمهما ورد من جهتهم تلقى بالقبول، وحمل على أحسن المحامل. وكذلك طلب ارتنا تقليداً ناصرياً بناية الروم، وتردد في هذا سراج الدين قاضي قيسارية فكتب له، فخلص الموالاته، وأقام دعوة الخطبة الناصرية. على منابر البلاد الرومية، وضرب السكة بالاسم الشريف وجهاز معه الدراهم المضروبة وذلك كله أظهر طاعة لا إذعان لحكم، ولقد حدثني من تردد إليهم، وعرف ما هم عليه، أنهم رجال صدق، وقوم صبر لا يستخف لهم حفيظة، ولا يرد بحنقها لهم صدور مغیظة، ولهذا أمراء الروم لا يطأون لهم موطئاً بغیظ، ولا يواطئون لهم عدة شهور (المخطوط 361) مشتى ولا مغیظ، وما أحد ممن يحسدهم على ما أتاهم الله من فضله إلا من يستجيش عليهم بالتتار، ويعدد عليهم عظام الذنوب الكبار، ووقاية الله تكفيهم، وحباطبة عن عيون القوم تحفظهم. اسم الكتاب: مسالك الأبصار ولقد كان السلطان محمود غازان يقول أنا أطلب الباغي شرقاً وغرباً، والباغي في ثوبي، عن أولاد قرمان، ومع هذا لم يسلط عليهم. وحكى لي الصدر شمس الدين عبد اللطيف أخو النجيب أنه قال يوماً لولا الأكراد وأولاد قرمان وتركبان الروم دست نجيلي مغرب الشمس، قال: وكان لا يريد بعد الشام إلا لهم، ومع هذا ما قدر عليهم، ولولا خلا وجهه لما انصرف إلا إليهم.

ولما استفحل أميرجوبان بك بمملكة إيران، وكان هو حقيقة السلطان، واستولى ابنه تمرتاش على الروم، وانتزع به عدة ممالك، وجد في طلب الباقي، رأت أولاد قرمان مصافاة أبيه جوبان، واستدفعت به شراينه طول ذلك الزمان مع ما كان لهم من العناية الإلهية، والإعانة من سلطاننا أعز نصره، ولولا هذا لأتى عليهم، وسلبوا النفس والنفائس لما كان عند جارههم الجائر من

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

الاستعداد، وطوالة التكفور متملك الأرمن، لرفع الشكوى عليهم في كل وقت، وتضرره مما ينوب أهل بلاده منهم، وتضرره مما ينوء به من ثقل وطاقاتهم، وكانوا في تلك السنين خائفين، يترقبون المصاحبة والمماساة، وينتظرون البيات والمقيل.

قلت: ولأهل هذا البيت روعة في قلوب التكفور والأرمن، وفي كل بيت يبعث التكفور يسأل بروز المراسم المطاعة إلى أميرهم بالكف عن بلاده، وهو لا يتعمد سيف جهاده، لا يرعى للأرمن حق جواره، ولا يدخل في سمعه لضجيجهم جواء، يشن عليهم في كل وقت غاراته، ويجوس خلال ديارهم جيوشه وسراياه، وكرسيه مدينة أرمنك على ذروة جبل.

أرزاقه متسعة وجيرانه كثيرة، وبينها وبين العلابة ثلاثة أيام، وقد يحكى عن أميرهم القائم الآن بدر الدين أنه افتض ألف بكر. ويوصف من كرمه أنه يطلق على كل ما يملك من صامت وناطق حتى أنه لا يدع له شيئاً البتة، ثم يتحول فإذا أثرى أطلق كل ما يملكه حتى لا يدع له شيئاً، هكذا دأبه، وبهذا يعرض على الله حسابه.

قلت: ولقد وصل من سنين أخواه الأمير بهاء الدين موسى ابن قرمان إلى الحضرة السلطانية، وأقام مُديدة بالباب الشريف ثم توجه لأداء فريضة الحج، وعاد إلى الحضرة، وحرك العزائم الشريفة على الأرمن، وارتجاع ما يلي الممالك الإسلامية من نهر جهان، ثم عاد إلى بلاده، وعومل بالجميل في إصداره، وإيراده، وأجلس أكابر الأمراء، أمراء المشورة، وأجرى في تكبير القدر مجراهم، وطلب منشوراً سلطانياً ببلاد من مملكة التكفور، تولى سيفه انتزاعها واستعاد ضالتها من أيديهم وإرتجاعها فكتب له على ما طلب، وما أخذها إلى الآن، ولكنه في الطلب.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

هذه جملة بمعنى ما ذكره العريان وما انساق في تبيانها من أمور هذه البلاد. وأما ما ذكره بلبان الجنوى عتيق الأمير الكبير بهادر المعزى، وهو ممن له الخبرة التامة بما يحكيه، وهو الذي أفاد كيفية تصوير هذه البلاد، واسم هذا بلبان في بلاده دوما نوكين دور بابن بادا دور بار هو من بيت حكيم في جنوة، اتفق أنه جمعت بيني وبينه المقادير في الاعتقال وعنه أحدث ما قال. حدثني أن هؤلاء أمراء الأتراك الذين بالروم الآن أبناء أمرائها الأول، وممن تأخر عن سالف تلك الدول، وهم فيها إلى يومنا هذا من بقايا تلك البقية وممن فصحت عنهم برود الأيام السلجوقية، استقر بأيديهم الجبل، وبأيدي بيت هولكو السهل، وجميع هؤلاء الأمراء الأتراك تقرر لصاحب كرمان، وتذعن له بعض الإذعان، وتجريه في كثير من أحوالها مجرى السلطان، وتعترف له بالتقديم، وله على بعضهم مقرر لا ينقص، وعلى بعضهم هدايا بحسب الأوقات.

وهو في ظاهر الحال فيهم الملك المطاع، والبقية له أتباع، أو كالاتباع، تكاتبه في معضلات الأمور، وتتيمن برأيه ويقوي بعضهم على بعض بمعاضدته، وتُسِر بخلعه وإنصافه وتقاليده وتكريماته، وهو وإن لم يقدر على إمضاء الولاية والعزل فيهم، فإن له عندهم مكانة لا يجهل مقدارها، وغاية لا يناع فيها، ومع

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

هذا ففي أمره معهم شبه بأواخر الخلفاء مع ملوك البلاد، يلزم معه قاعدة الأدب في مخاطبتها لتعظيم، وهو مع من غلب أو كحال آلا سامان في آخر الزمان، وهو أوسع الكل بلاداً أو أكثر الكل رعايا وأجناداً. وأما ما هو لبث جنكيزخان فإنه لم يزل بأيدي نوابهم مع بقايا السلاجقة من غير زيادة عليه، ولا نقص منه، وبينهم وبين هؤلاء الأتراك مهادنة لا مهادنة، حتى حكم تمرتاش بن جوبان فاستضاف من ممالك الأتراك إليه، ما يلفت قدرة سيوفه، وهو جانب كبير، وممالك لها قدر جليل فمن ذلك... مملكه ابن شرف وموقعها في شمال الروم غربي مملكة أولاد درندار، وجنوبي بلاد ابن قرمان، وشرقي بلاد بيت جنكيزخان بشمال، وكانت مستقلة بذاتها، وكرسیها بكسرى، وعساكرها تتناهر سبعين ألف فارس هم إلى الآن. وتجمع هذه المملكة خمسة وستين مدينة ومائة وخمسة وخمسين، أمسك تمرتاش صاحبها، وقتله، ومثل به، وقطع ابنه، وعلقهما في عنقه. وكذلك مملكة ابن طرغت، وهي غربي ابن أشرف وكرسیها قراصار، وله مدينة سکنجر، وعسكره خمسمائة فارس. وكذلك بلاد شجاع الدين أعزلو، ومدنها لوليا وكمش سار، وعسكره يزيد على عشرين ألف فارس، وموقع بلاده هذه غربي ابن طرغست، وبلاد عزلو هذه لم ينتزعها منه، بل أبقاها بيده، كأنه من قبله، وهذه كمسر سهرهى ذات معدن يخرج منه الفضة هذا ما ذكره هذا بلبان. اسم الكتاب: مسالك الأبصار وأما ما ذكره العربان، فإنه قال: يخرج من لوليا وقد تقدم ذكره... وكذلك أخذ بلاد طوعان جق وهي غربي طرابزون وجنوبي بلاد سليمان باشا، وبين كرميان في مشاريق كرميان، ومغاريب سليمان باشا.

وكذلك أخذ بلاد يعقوب، وهي قيراسارى، وجار على كل مجاور، وكان تارة يصالب بالسيف وتارة يداور بالخدیعة حتى دوخ الممالك، وفتح المعازل، وامتدت أعماله، واتسعت شعوبه وكثر جباياته، وعظم خراجه، وقويت شوكته في ذلك الإقليم، وطلب في وقت الاستقلال بالملك. وخطب لنفسه وضرب السكة باسمه، وهوى مثل ملك آل سلجوق أو أجل، وقام بهذا العبء واستقل، وقرر به تسع تومانات من المغل، ومن التركمان مثلهم أو أكثر، وصار لا يقاوم ولا يقاوم، ولا يحارب ولا يحاول، وما هذا موضع ذكره، وإنما ذكرناه لذكر ما بأيدي بيت جنكيزخان من الروم، وقد ذكرناه في موضعه.

وأما نفوذ هذه البلاد ومعاملاتها لتختلف في بلادها باختلاف حكامها، واعتيادها، والذي نذكره الآن ما هو بيد الأتراك الآن خاصة، وهو ست عشرة مملكة على ما ذكره بلبان الجنوبي، وأجلها مملكة كرميان، وهي أقربها إلى ما بيد بيت جنكيزخان، وموقع كرميان منها شمالاً يمتد شرقاً بغرب، وما بأيدي بيت جنكيزخان جنوبها، وقد دارت عليها ممالك الأتراك من شرقها. فطاقت نطاقاً وراء نطاق، فالنطاق الأول وهو الأقرب إليها المماس لحدودها من شرقها ثلاث ممالك، أخذت من الجنوب إلى الشمال كأنها قوس، تفصل بينها وبين بلاد كرميان جبل ممتد على هذه الهيئة.

وأول هذه الممالك الثلاثة مما يلي الجنوب جبل القسيس وهو جبل عظيم منبع مشجر بأنواع الفواكه، وكل أشجاره مثمرة وفيه هذا الجبل وسفوحه مسكونة،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ويمشي في طوله عدة أيام بغير زاد ولا ماء، فيه من كل الثمرات رزقاً من عند الله، لا بغرس غارس، ولا باحتجاز مالك، بل هو مباح لمن أكل وحمل، من سبق إليه اجتنى، ومن وضع يده على شيء من شجرة اقتنى، هو من عجائب الوجود، وغرائب ما من به إلا له المعبود، وفي أخريات هذا الجبل مملكة طغرلو في شماليه، ثم يليها في شماليها مملكة تواز، ثم يليها في شماليها مملكة عميدلي ثم تنتهي مملكة الأتراك هناك إلى ما كان بيد ابن أشرف وأخذة بيت جنكيزخان.

ثم يلي هذه الممالك على شرقيها النطاق الثاني، وهو اثني عشر مملكة آخذة عنها من الجنوب إلى الشمال كأنها قوس، يفصل بينها وبين تلك جبل ممتد على هذه الهيئة، فهذه خارج تلك الممالك الثلاثة، وتلك الممالك الثلاثة خارج كرمينان، وكرمينان خارج بيت جنكيزخان، وهذه الممالك الإثنا عشر التي أشرنا إليها أولها مما مال إلى الجنوب مملكة كصطمونية ثم يليها مملكة فاديا ثم يليها مملكة بعريشا، ثم يليها مملكة اكيرا، ثم يليها مملكة نيف، ثم يليها مملكة مغيسا، ثم يليها مملكة مرمر، ثم يليها مملكة برلي، ثم يليها مملكة توله، ثم يليها مملكة انطاليا، ثم يليها مملكة قراصار، ثم يليها مملكة ازمناك، وها نحن نذكرها مفصلة.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

الفصل الأول

في مملكة كرمينان

وهي مثل قرن الجاموس، أحاط بها جبل في مشاريقها كالقوس أخذ عليها جنوباً بشمال، وأحاط بها في مغاريبها جبل أخذ غرباً بشمال ثم عطف مشرقاً ثم أخذ شمالاً يغرب حتى لاقى الجبل الأول فاجتمعاً، فكان كأنه قرن الجاموس، فسبحان الخلاق العظيم.

وهذه المملكة قد تقدم من ذكرها ما فيه منتفع، وينزل من جبلها الغربي نهر مندروس الأعظم، وهو إذا نقص كان كالنيل فأما إذا زاد فجر زاهر لا له أول ولا آخر، وهو يشق هذه البلاد، ويجري، وسطها بحيرة جليلة نافعة، يصطاد بها الحيتان، وتتنزه فيها أهل تلك الديار، ثم يمضي مندروس على مقطع في الجبل الشرقي حتى يخرج إلى بلاد طغرلو، ثم يمر عليها ثم يخرج إلى بلاد بركي ثم يصب في البحر المالح المؤدي من الخليج القسطنطيني، إلى ماء بنطس. وهذا نهر مندروس مجرى السفن والمراكب، تصعد وتنحدر فيه، ويخرج منه الملح، ومن الملح إليه لأهل تلك البلاد، به مرافق في الأسفار ومنه يتجهز الغزاة والبحار، وهو قاطع البرد، لا يكاد يتغير، ولا يؤثر الهواء إذا سخن فيه، لكثرة مائه، واتساع جوانبه.

وصاحب كرمينان هو أكبر ملوك الأتراك، وله تسلط على الجميع، وتبسط في ملكهم الوسيعة، وكرسي ملكه مدينة كونتاي، وهي مدينة كبيرة، ذات قلعة جليلة، وأعمال وسيعة، ورساتيق من كل مكان، وبلاد ذوات دواب سائمة، وعمار وسكان ويقال أن له نحو سبعمائة مدينة، وقلعة، وله عساكر كثيرة. قال العربان: له أربعون: ألف فارس مديونه، وقال يلبان أضعافها وأكثر، فقال:

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

أنه إذا جمع وحشد، جمع مائتي ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ورامح ونایل، قال: وهم أهل حرب وقتال، ومصالته واحتيال، ولهم عُدد حصينة، وسلاح للحرب وللزينة، من الفولاذ المجوهر، والأطلس الأحمر، وما يذهب هذا المذهب.

ولهم مال جم من صامت وناطق، ونعم لا يحصياها إلا الخالق، وخيلهم نهاية في الروميات، لا يسبقها سابق، ولا يتعلق بغبارها الغبراء، ولا يلحقها لاحق، مسومها عندهم بما غلا من الأثمان معروفة بينهم هذه أمه فلان، وهذا أبوه فلان، وله على صاحب القسطنطينية أتاوة مقررة نحو مائة ألف دينار قسطنطينية، ويتحفه معها بتحف فاخرة، وهدايا مستحسنة، وهو في كل وقت يعرض جيوشه بالخيال والعدد والسلاح ويستعد ويعد أماكن الحرب والكفاح. وله أمراء ووزراء وقضاة وكتاب وحاشية وغلما ن وخزائن واصطبلات ومطابخ وبيوت ورخت ملوكي، وهيئة سلطاني، وأبهة ملكية.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وله مدينة كمش ساراي، مدينة الفضة، وهي غير ما بأيدي بيت جنكيزخان، وهو معدن كبير المتحصل، جليل الفائدة جليل العائدة، أعظم من الذي بأيدي بيت جنكيزخان، وأجود فضة، وأسهل مكاناً، وأهون تخليصاً واستخراجاً.

وكذلك بها معدن تسب يباع منه بحمل أموال، وله مدينة سرکوي وهي مدينة لا تزرع إلا الأرز، وأهل هذه الملكة كرام، ولكنهم لا يفكرون في حلال ولا حرام، أهون ما عليهم سفك الدماء وإراقتها، تنهل كمزاود الماء لا يبالون بما فعلوا، ولا يعاؤون بمن قتلوا، لهم في كل أوان موارد مسوغة، ومعاهد أعداءً بأنياب الأسنة محصنة، لا يردى في الحروب سيوفهم العطاش، ولا يردى لو بل نبلهم رشاش، ولا تزال طباء الروم تتكاثر من سيوفهم على خدائش صخر الحديد، ولم يضجروا، ومضت أعمار الأيام وما قالوا ولا هجروا، مالهم يسوى ما هم فيه التذاذ، ولا بغير أن تخرج وجوههم، وهي سواهم معاذ ولأهل هذه الدولة تصرف في أنواع المعابس والأسباب، وأصناف الاكتساب.

قال: وأما لبسهم ولبس جميع الروم فهو زي واحد لا يكاد يختلف، ودرهم هذه المملكة نصف وربع درهم فضة خالصة، والرطل بها زنته تحريراً ثلاثة آلاف ومائة وعشرون درهماً، وكيلها يسمى المُد وهو نحو أردب وربع مصري تقريباً، هذا ما قاله فيه بليان، وقد تقدم ما قاله العريان.

قال: وأما السعر المتوسط فمد القمح خمسة عشر درهماً، وكذلك الشعير، أو دونه بقليل، واللحم كل رطل بدرهم واحد، وأما الفواكه والألبان والأعسال فرخيصة جداً، وأوقات الرعايا والفلاحين والزراع طيبة، كأنهم فيها في بكر مفضضة، وأصال مذهب.

ومن جملة بلاده بلاد ابن السائب وهذا ابن السائب صاحبها (المخطوط 071) هو صهر صاحب كرمينان، ولولا مصاهرته له ما كانت بقيت إلى الآن، لأن بلاده هذه هي خارجة عن كرمينان، مجاورة لها من غربها، وهي من بلاد بيت جنكيزخان في شرقها.

ولما امتد تمرتاش إلى من جاوره من الأتراك، وأخذ بلادهم ارتمى صاحب كرمينان، وانتمى إليه، وصاهره، وقوى على تمرتاش بيده القاهرة، واعتصم به، ونامت عينه الساهرة، واستمر على مصافاته الظاهرة، وامتنع على من جاهد وجاهره.

وكرسيه قراساي، وهي مدينة مشهورة، ويحيط بها وببلادها جبل استدار عليها استدارة الحلقة، وأحاطها إحاطة بالحدقة وحكمها اليوم وحكم بلاد كرمينان، وابن السائب وإن كان صاحبها، فهو الآن كأنه من قبله فيها، وليس له مدينة سوى قراساري، ولها ألف قرية، وعسكره يقارب أربعة آلاف فارس وبلاده حصينة بما أحاط بها من الجبال، وشمخ من ذوائبها التي سما بها فرع إلى النجم لا ينال.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

الفصل الثاني

في مملكة طغرلو

وهي أول النطاق الأول، وهذه المملكة صاحبها اسمه يلنج، ويشقها نهر مندروس، وهي إلى جانب جبل القسيس، في غربه بشمال، وموقعها جنوبي ما بين مرمز إلى بركي، ومدينة طغرلو كرسيه، وكأنها دمشق في تصوير خطة وبساتين حولها مختطة، لكنها أكثر من دمشق ماءً وفاكهة، وأوسع غوطة، ولكن ليس لصاحبها مدينة سواها، ولا عمل إلا إياها، إلا أن لها قاعدة قرى وضياح ليست بكثيرة، ولا كثيرة ازدياد، وأكثر ما فيها من الفاكهة الرمان وهو على عدة ألوان، ويباع ألف بدرهم، وكله بلا عجم له، مكسّر كأنه شرار نار أو بهرمان، أدرج في ثوب نصار، أو مدامع عشاق في نهود أبطار، وهو في غاية الكثرة والرخص، ولذاذة المأكّل، ويُعتصر ماءوه، ويعمل منه دبس إذا نزل هو والعسل، إيهام الفرق ما بينهما، وأشكل، ويعمل منه شراب أشد إسكاراً من الخمر، وأقرب إليه مشابهة مما يعمل من التمر، وهم أكثر معاطاة له من الخمر على كثرته عندهم.

وما ذاك إلا لأمر سألت بلبان عن السبب في هذا مع إجماع العقلاء على تفضيل الخمر على كل مسكر، فقال: أنه لا يعلم السبب، ولا يوجب الحب لها إلا مضاحكة الجنب.

قال: وأهل هذه البلاد، كأنما خلقوا لارتضاع كؤوس، ولإماطة نقب عن شמוש فمالهم غير اغتياق كأس من معين، واعتناق مائس من قدود الخرد العين، فهم أبداً في بلهينة في الوطم، وأمنية مع الطفر، ولأميرهم عليهم عدل، ولا يشكون معه الأجور الساقى، ولا يخافون معه إلا عقرب صدغ أعجزت الراقي، أو دم عاشق بطل أو على خدود الغانيات الباقي.

قال: وأكثر ما تكوى القرى والضياع بطغرلو أربعمئة قرية كلها في حواضرها القريبة، ولصاحبها نحو عشرة آلاف فارس وراجل، ودرهمهم نصف درهم فضة خالصة، ورطلهم نحو سبعة أرطال بالمصري، ومدهم نحو نصف وربع أردب، وأسعارهم مشابهة لكرمينان، ومقاربة لها في اختلاف كل أوان.

الفصل الثالث

في مملكة توازا

وهي ثانية النطاق الأول، وهذه المملكة صاحبها على أزية، وهي تقع شرقي كرمينان محضاً، وموقعها ما بين جنوبي بركي إلى فوكه، وكرسيه توازا، ولصاحبها أربع قلاع ونحو ستمائة قرية، وعساكره نحو أربعة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل، ودرهمهم ورطلهم ومدهم مثل كرمينان، وهو كثير

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

الترامي إلى صاحب كرمينان.
ولأهل هذه المملكة حسن بديع بياض وحمرة كأنها ضربيا لبن وخمرة، مع لبن بشررة، وصهوبة شعره، كأن عليهم ثوب صباح مسبول، وعلى ضغائرهم برادة ذهب مسحول، مع حلاوة تأكل النظر ومأكلاها، ولهجة توقد حجرات الحسن وتشعلها .

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
الفصل الرابع
في مملكة عبدلي

وهي ثالثة النطاق الأول، وهذه المملكة صاحبها دندار أخويونس صاحب أنطاليا، وكرسیه مدين برلو، وهي أم إقليم عبدلي وموقعها من فوكة إلى قرصار، ولصاحبها أيضا إقليم يلواج، وإقليم فرا عاج وإقليم اكرى دور، وهذه بلاد مدنها قليلة، وقرائها كثيرة، ومدناها ممتد، يقال أن له تسعة مدن، وخمسة عشر قلعة، وعسكره خمسة عشر ألف فارس، ومثلهم رجاله، وهو في كل وقت يتفقد فرسانه ورجاله، ويتأهب للحرب، ويوسع مجاله، ويقا تل العدو، ويهب للسيوف آجاله، وهذه هي آخر الممالك الثلاثة، التي تلي كرمينان، وهي نهاية ما أخذ إلى الشمال، وبها تم النطاق الأول ونحن نعقبها بذكر الممالك التي تليها، وهي النطاق الثاني عليها في شريقها وعدتها إثنا عشرة مملكة، وأولها هو ما ذكره الآن.

الفصل الخامس

في مملكة كصطمونية

وهي هذه مملكة سليمان باشا، وهي الآن لولده إبراهيم شاه، وكان في حياة أبيه صاحب سنوب، ثم جرت له مع أبيه أمور لا حاجة بنا إلى ذكرها، إلى أن ملك، واستمرت سنوب له مع ملك أبيه، وولى سنوب من قبله.
وهذه هي شمال بلاد طوغان حق، وما جاورها، وجنوبي بلاد سلطان بوى المصاقبين لممالك بيت جنكيزخان، وهي أول الممالك الاثنا عشر المشار إليها من الشرق، وهذه المملكة على ضفة بحر بنطس، وقبالتها جزيرة زك، ومن ركب البحر من سنوب خرج إلى سوداق لأنها أقرب مدن ذلك البر إليها، ويقع طرف بلاد طرا بزون الشرقي على أول حد هذه البلاد، ولأجل هذا نقصد هذه الأرض لجواز البحر إلى بر القبحاق وبلاد الخزر والروس والبلغار.
وكرس هذه المملكة كصطمونية، ولصاحبها نحو أربعين مدينة وقلاع مثلها أو أزيد، وعسكره نحوه خمسة وعشرين ألف فارس، وخيلهم هي النهاية في جنسها والغاية في نفسها، وقد تقدم القول في ذلك وبها البلغار والبرزة والشواهين، في غاية الجودة، وهي منفردة بمحاسن هذه الأنواع، ومنها يشتري ويتباع، وحسنها لا مخالفة فيه ولا نزاع.

وأما الجمال فلا توجد عندهم البتة قد عدم العربي منها خطة والبختي بختة، لأنها بلاد جبال وعرة، يود كل متعلق بها لو تعلق بشعرة، وملوك هذه المملكة لهم مع ملوكنا — ملوك مصر — انتظام، وتشرق بمواهبهم الجمة، وأياديهم العظام، وتتابع رسلهم إلى سلطاننا مدد الفجاج، ونظرت لديه إلى سماء

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

العلياء من وراء زجاج، واستنصرت بها على الأعداء، وهي قاطعة البحر الأجاج، وعادت عليهم الأجوبة الشريفة بقطع الحجاج، والحجاج وهم حتى الآن في الدولة القاهرة الناصرية، وفي حزبها في حسب ذبحها.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وأما رعايا هذه البلاد منهم أهل طاعة لأمرائهم، وإقبال على مصالحهم ودولتهم، ودرهمهم نصف درهم فضة خالصة، ورطلهم نحو ستة عشر رطل بالمصري، ومدهم نحو أردب مصري، وأسعارهم نحو كرمينان.

الفصل السادس

في مملكة فاويا

وهي الثانية من النطاق الثاني، وصاحبها مراد الدين حمزة، ومملكته تجاوز سمسون من غربها، وبلاد سليمان باشا المقدم ذكره جنوبها، وجبل القسيس غربها، وبلاد طريق السفار إلى سمسون، وسمسون هي شرقي هذه البلاد خارج الجبل المار على رستايق بلاد الأتراك بالروم على ضفة بحر بنطس، من ركب البحر منها إلى بر القبحاق كان خروجه على الكفا أقرب مجلبة وتبقى زك جنوبية، وعلى بلاد هذا مراد الدين حمزة، أكثر طرق المترددين من التجار والسفار المتوجهين من مصر والشام إلى تلك البلاد.

وكرسي هذه المملكة مدينة فاويا، لصاحبها عشر مدن ومثلها قلاع، وعسكره نحو سبعة آلاف فارس، فأما الرجالة فكثير عددهم، متى أراد استجاش بهم، وجمع أمماً، وشرع أسنة وهمماً وليست للأعداء معه طالعة، ولا لهم في رداء ملكه منازعة، لا تتفرزن البياذق من رخاخة، ولا تتجاسر العصافير أن تسقط على فخاخة، وأهل هذه البلاد قوم أمته، لا يستحيل بودهم يوم ولا سنة، درهمهم ومدهم وأسعارهم مثل كصطمونيه بل هي ولكثرة الأجلاب لا تكاد تكون دقلية.

الفصل السابع

في مملكة برسا

وهي الثالثة من النطاق الثاني، وصاحبها أرخان بن طمان، وكرسيه مدينة برسا، وموقعها شرقي بلاد مُران الدين حمزة، وغربي بعض سمسون وبعض سنوب، وجبل القسيس غربها، ولصاحبها خمسون مدينة وعدد قلاعه أكثر من ذلك، وعساكره نحو أربعين ألف فارس، وأما الرجالة فلا تكاد تعد، خصوصاً إذا استجاش وحشد وجاش، لكن يقال أنه قليل غناهم، تهول صورتهم لا معناها، وهو كثير المسالمة لمن جاوره، والمناصرة لمن ناصره ومع هذا له حروب سجال، ودروب في إرغام أنوف رجال، وخيول تُقتنص عليها الأرواح، فرسان عجال، وإنما قلة غناء عسكره، لعدم استقامة الرعية، ومشاقة بعض المجاورين له، يقال أن رعاياه أخبث، تنطوي بواطنهم على الغل، وعمائمهم على المكزلات، وهذه البلاد درهمها وزن الدرهم الكامل، وهو فضة خالصة، وهو مدها ورطلها مثل كرمينان، وسعرها أرخص في غالب الأوان، وفي هذه ثلاثمائة جمة يطلع منها الماء السخين الناضج، ويقصدها المرضى بالبلغم البارد والفالج، ليغتسل فيها، ويستشفى بها، وغالبهم يبرأ بإذن الله عز وجل ويجد الشفاء والصحة عليها.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قلت: الحمامات كثيرة في البلاد، وأقطار الأرض، ولكني لا أعرف اجتماع هذا

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

العدد الكثير في مكان واحد سوى هذا، وأظنه لأن تكون هذه الأرض كلها كبريتية سواخة، فلهذا كثرت فيها هذه الحمامات هذا ما اتصل بنا علمه، وفوق كل ذي علم عليم، والله بغيبه أعلم.

الفصل الثامن

في مملكة اكبرا وهي أربعة النطاق الثاني، وصاحبها ومرخان بن قراشي، وبلاده تجاور بلاد أرخان أخذة إلى الشمال، وجبل القسيس جنوبها على تغريب، وسنوب شمالها، وهي طريق من طرق سنوب.

وهذه المملكة مدنها وقلاعها وعساكرها أكثر من بلاد أرخان، وأهلها أطول باع في المكنة والمكان والإمكان، وصاحبها ذو حرب ويد وأيد، وقوة لا تدفع بكيد، وله في البحر مع الروم حروب، تطير بها الفايين، وتهتز لها المدائن، كم طاروا من الغراب على جناح، وسخر لهم في سبيل الله ما سخر لسليمان من الرياح. وهذه البلاد يخرج منها ما لا يحصى من الحرير واللاذن ويحمل إلى بلاد النصارى منه، وحريرها يوافق الديباج الرومي والقماش القسطنطيني، ومنه يعمل غالبه، ودرهمها مثل الذي قبلها، ورطلها ثمانية أرطال بالمصري، ومدها نحو أردب ونصف، وأسعارها رخيصة جداً، على حال واحد لا تكاد تتجاوزه ولا تتعدى.

الفصل التاسع

في مملكة مرمرا

وهي خامسة النطاق الثاني، وصاحبها يحيى بن قراشى أخو دمرخان المقدم ذكره، وبلاده جوار بلاد أخيه غرباً بشمال، وطرف بلاده جنوباً على شمالي طغرلو، ولصاحبها نحو خمسة عشر مدينة، ومثلها قلاع وكلها على جبال شاهقة، على البحر المالح، وعكسره نحو عشرين ألف فارس، ولا رجالة له، وهو متاغر للروم، وله معهم ثارات، يقصد فيها ويقوم، وعسكره نفاع، له قوة ودفاع، وقد ذلت لهم المراكب، فامتطوا في البحر منونها، وأطاروا غربانها وأجروا نونها ولهم اسطول مجهز للركوب على ظهور الفايين والتصريف بها كالصوافن، طالما صبح بلاد الروم منها غراب ناعق، وسبح راكبها، وتعجب لقدرة الخالق، وزحقت لها (المخطوط 671) مدن، وزحفت لها أعداء إلا أنه من الجبن.

وأهل هذه المملكة غزاة، لا تستكين سراة حصانهم، ولا تلين سراة، لا ينزل لهم لبد عن جواد، ولا قلع عن سفين، ولا يحجبهم عن بلد سوره، ولا عن ساكن برخباه، ولا يغلبهم سرب، تقتض بهم من الروم جاذره، ومن الخزر ظباؤه، وهذه البلاد نصف درهم فضة خالصة، ورطلها أربعة أرطال بالمصري، ومدها أردب واحد، وسعرها رخيص، والرقيق بها لكثرة السبي كثير.

ولا تخلوا لأجل هذا من تجار وجلاية ومن دخل في هذه البابه.

الفصل العاشر

في مملكة نيف

وهي سابعة النطاق الثاني، وصاحبها علي باشا أخو صاروخان، وهو جاره في

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

المكان، وكرسيه مدينة نيف، وبلاده شمالي طغرلوا وجنوبي بيد رول، وهذه بيدرول شماليها من خارج الجبل الشرقي المحيط ببلاد الأتراك خارجة في البحر، ولصاحبها ثمان مدن ونحو ثلاثين قلعة، وعسكره ثمانية آلاف فارس، وخلق كثير من الرجالة، أكثرهم رماة نبالة، ومملكته كلها على قنن الجبال، لا يلحقها الغمام بريته ولا يلحقها نسر السماء لتعشيشه، تهوى وفود الرياح دون أوديتها، وتستقى السحب فائض أنيتها، ولا يمر بها البرق إلا وهو مجتار، ولا البرق إلا وهو على أوفار، تميل قبل رؤيتها العمائم، وتتوسوس وعليها من النجوم تمانم، ودرهمها ورطلها ومدىها وسعرها من تسبة مغنيسيا.

الفصل الحادي عشر

في مملكة مغنيسيا

وصاحبها صاروخان وكرسيه مغنيسيا، وهذه البلاد تجاور مملكة يخشى عذبا بشمال، وجنوبها طغرلو وقيالتها في البحر جزيرة كيول، ولصاحب هذه المملكة نحو خمسة عشر مدينة وعشرين قلعة، وعسكره يزيد على عشرة آلاف فارس، وهم أهل حرب وطعن، يضيق به فم الدرب، ومنهم غزاة في البحر كأنهم الملوك على الأسيرة لا تهتبل لهم نمرة، وحالهم في هذا مثل حال جارهم الأول، ولكل منهما جهاد عليه يعول، ودرهمها ورطلها ومدىها وسعرها كذلك، ومن نسبة ما قبلهم أو ما يقارب ذلك.

الفصل الثاني عشر

في مملكة بركي

وهي ثامنة النطاق الثاني، وصاحبها ابن أندين، وكرسيه مدينة بركي، وموقها شمال طغرلو، وتوازا وجنوبي تدرقل ولصاحبها نحو ستين مدينة وثلاثمائة قلعة أو أزيد، وعسكره سبعون ألف فارس أشلاء حرب وكفاح، وعرضه سيوف ورماح، ولهم مع الروم والفرنج وطوائف بني الأصفر، حروب عظيمة وأيام لها غور وحجول معلومة، ضج البر والبحر من وقائعها، ومج السجاياء تصعد إليه من بقائعها، لا تهدأ لهم مضاجع ولا تراهم إلا بين متأهب لغزوة وآخر راجع، سدوا فروج البر خيلاً، وأوقروا صدور البحر سفناً، وجروا لكاتب برسي على هذا حبلاً، وتسرى على ذاك مدناً، وكل ملوك الأتراك في غزوات الكفار، عليهم عيال وبسيوفهم المهندة الذكور يلفح الحرب الجبال لا يرضى إلا بصيد المهج، ولا يمضي يوم إلا يقتيل لها لا إثم فيه ولا جرح، كأنما كونوا من جناح غراب أو صهوة مطهم أو خلقوا المطية نقاراً وأدهم، لا تفرغ لهم شمال ولا يمين، هذه بعنان جواد، وهذه بقلع سفين، ولمهابتهم في قلوب ملوك بني الأصفر ما يختلج به ضمائرهم وتختلف الأتي، الإجماع عليه سرائرهم، وإذا قيل أنه قد تحرك منهم متحرك طيب، إنه يريد نفوسها وسكت في حياتها حتى تلمس رؤوسها بيديها.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وملك هذه البلاد أثابه الله تعالى وجنوده أجمعين على هذه العزيمة، لا يفل وحدها، ولا حديدها، ولا يكف والدها ولا وليدها، وهم سبب كثرة السبي، ومن يجلب إلى الآفاق من أولاد الروم ونسائهم، فأمدهم الله بالظفر وأعلى كلمتهم على من كفر، وهذه البلاد دهمها ومدىها نحو مملكة صاروخان، فأما رطلها فستة عشر (المخطوط 871) رطلاً بالمصري، وأسعارها رخيصة، وثمارها مما يحمل البحر وتنبت الأرض سخيصة.

وهي تاسعة النطاق الثاني وصاحبها أورخان بن منتشا وكرسيه مدينة فوكه،
وبموقعها شمالي مشاريقها جزيرة دفنوسة، وقبالة هذه البلاد جزيرة
المصطكي تقع وراء بلاده سواء بسواء، ولهذا صاحب فوكه نحو خمسين مدينة،
ومائتي قلعة وحصن، وعساكره مائة ألف أو يزيدون، وله سيف لا يألف غمده،
ولا يكف حده، يقاتل من عاده براً، وبحراً، ويخاثل من ناوأه مسلماً كان أو
كافراً، يركب السفن والخيول، ويخوض النهار والليل، لا يطمئن به وساد، ولا
يستكن له مفرش جهاد، ولا يزال له ولإعدائه وقائع تشيب مفرق الوليد، وتذيب
قلب الحديد، وتبيت الدهر منها على وعد أو وعيد، يبت سراياه في كل صوب،
ويحث مطاياه في البر والبحر، في كل توجه وأوب، فما رأت الكفار حيلة، ولا
طفقت تتهدد، ولا أقبلت طلائعه على سفائنها إلا ورفعت سيايات صواريخها
تتشهد، وهذه العساكر ميمونة النقية، سعيدة التحركات، قل أن توجهت إلى
جهة، وظفرت بمرادها وبلغت قصدها من أعدائها، وهذا هو المعروف منهم،
والمستفاض حديثه عنهم، لا يخالف في هذا ممن يعرفهم، مخالف ولا يخالف،
هذا شك عندهم في حديث، ولا سالف ولا يتم من يداريه، صاحب كرمينان من
أمراء الأتراك سواء، ويراهنه ويقنع بأيسير موالاة منه، ولا يقدم عليه إلا صاحب
كرمينان، فأما كل من سواه فدونه قدراً، ومكانة وله عليهم المزية والمزيد
ودرهم هذه المملكة، ورطلها ومدنها وأسعارها مثل كرمينان.

الفصل الرابع عشر في مملكة إنطاليا

وهي عاشرة النطاق الثاني، وصاحبها خضر بن يونس وكرسيه إنطاليا، وهي
شمالي مملكة عميدلي بلاد ابن درندار، وهي على ضفة البحر والسفر إليها
ومنها والأخبار عليها وعنهما، ولصاحبها اثنا عشر مدينة، وخمسة وعشرون قلعة،
وعسكره ثمانية آلاف فارس، وليس بأهل حرب طائل، ولا منهم هائب ولا هائل،
ودرهمها نصف درهم فضة خالصة، ورطلها أربعة أرطال بالمصري ومدا أردب
واحد.

الفصل الخامس عشر اسم الكتاب: مسالك الأبصار في مملكة قراصار

وهي حادية عشر النطاق الثاني، وصاحبها زكريا وهي مملكة ضيقة إلى غاية،
وهي شمالي إلى عميدلي بغرب، وكرس صاحبها قراصار، وله ثلاث مدن، واثنا
عشر قلعة على ضيق الرقعة، وقرب مدى البقعة، وعسكره ألف وخمسمائة
فارس، وكان أصل هذا زكريا؛ مملوك يونس صاحب أنطاليا، ثم لما مات تقوى
على ولده، وغالبه فغلبه، وأخذ الملك بيده، ودرهمهم ورطلهم ومدتهم مثل
أنطاليا، وهذه البلاد من ملك مقتطعة ومما كان في يد مالكةا مرتجة.

الفصل السادس عشر في مملكة أرمناك

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وهي ثمانية عشر النطاق الثاني، وصاحبها ابن قرمان، وكرس مملكته أزمناك، وله نحو أربعة عشر مدينة، ومائة وخمسين قلعة وعسكره يناهز خمسة وعشرين ألف فارس، ومثلهم رجالة، ومن مشاهير مدنه مدينة أرندة، وهي مدينة جليلة، ومدينة العلانية، وهي المسماة باعلايا عند العوام، وموقع هذه البلاد شرقي بلاد الأرمن بشمال، وبلاد ابن شرف جنوبها، وأقرب مدن الأرمن جنوبها، إليها طرسوس واذنه، وهذه البلاد على ضفة البحر الملح، وقد تقدم ذكر هذه المملكة وما هم عليه، وموالاتهم لسلطاننا صاحب مصر خلد الله ملكه، وميلهم إليه، وما هم عليه من الجهاد في الأرمن، ومن ساكنهم من الكفار، وتجريد سيوف غزوهم آناء الليل والنهار، وبهذا تم ذكر ممالك الأتراك، وما هي عليه على ما بلغنا، وتبين لنا وقد أوضحنا طرق الروايتين على ما فيها من الخلاف على أنني اجتهدت والعهد على الناقل.

ونحن نذكر تنمة ما كنا أشرنا إليه من أحوال الروم عند غلبة التتار ودخول طوائفها هاتيك الديار.

فنقول أنه لما استقلت قدم التتار فيها وأستنهلت غنائم كتائبهم على جهاتها، بقى ملوك آل سلجوق معهم بالاسم لا غير لا لهم حكم ولا تصرف بل لهم ما يقيم بهم، وبيوتهم، وشعار ملكهم الظاهر ونفقاتهم اللازمة، والأمر كله لنواب التتار، وعنهم الإيراد والإصدار وباسم الملوك الجنكيزخانية يُخطب ويُضرب سكة الدرهم والدينار، فلما ضعفت الدولة السلجوقية، وأذنت أيامها بذهاب تلك البقية، وكانت المغول لا تقدر على صعود تلك الجبال، ولا تعرف الحصار ومطاوله المعادل والقلاع، فغلب طوائف الأتراك هنالك على كثير من تلك الممالك ولولا قوة شوكة التتار، وسطوتها التي عمت الأقطار، لاستولت على السهول مع الجبال، وأخذت بجنابتها من كل مكان.

مع أنها ملكت معظم البلاد إلا بقية حفطت المغل مطالع أفقها وأمسكت آخر رمقها، ودارت إذ زال طوائف الأتراك، ملوك المغل على ما غلبت عليه وبقي كل منهم يدخل في طاعتهم على أنه يسلم إليه، ولا يخرج بشيء من يديه، واستمرت أحوالهم معهم على الطاعة والعصيان، والتذكار والنسيان. حتى تهادت المدد، وخر رواق الدولة المغولية، أو وهي منه بعض العمدة، فحينئذ ثبتت أقدامهم، ونبتت في مفارس الاستمرار أيامهم، ومنذ غلبوا على ما بأيديهم من الروم لصاحب كرمان عليهم مزيد الفضل كما ذكرنا.

وكل واحد من هؤلاء الأتراك مستقل بمكانة مشغل بشأنه وتبسطوا في جهاد من جاورهم من الكفار، وصار هذا دينهم، وبقي بينهم من التنافس ما يكون بين النظراء، ولهذا كاتبوا عظماء الملوك ليتقوا بمظاهرتهم ويطيروا بريح سعادتهم وأكثرهم كاتبوا سلاطيننا ملوك مصر رحم الله من مضى منهم، وحفظ من بقى وأدام حياة سلطاننا مالك ملوك الأرض، صاحب الدولة الملكية الناصرية، وخلد سلطانه خلود الليالي والأيام، ولاذوا بهذه الأبواب العزيزة، وتطيعوا بالميل إلى هذه الدولة القاهرة حتى صارت الموالة في طباعهم كالغريزة، فاتخذوا ملوك مصر، نصرهم الله، لهم ظهراً، وعدوهم للحوادث ذخراً، حتى أن منهم من

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

رغب في تقليد يكتب له بالنيابة فيما هو فيه، فكتب إليه وجَّه بالصناجق والألوية، والأعلام والتشريف التمام، والسيف المحلي والحصان المركوب والسرّج الذهب، والعدة الكاملة والجنائب الطائلة، وما منهم إلا من تدخل وترامي، وأنشراح مرأماً والأنعامات تغمرهم، والصدقات الشاملة تعمهم، وهم إلى يومنا هذا أهل ود وصفاء، وحسن عهد ووفاء، وبكثرة ما خلطهم به الامتزاز وصل منهم من اتخذ مصر والشام داراً، وأخذ بهما الإمرة والإقطاع وجرى فيهما تحت الأمر المطاع، ورسلمهم حتى الآن لا تنقطع بصدق نية، وإخلاص طوية، والمكاتبات واردة وصادرة، والهدايا مقيمة وسائرة، ومع هذا كله كل واحد منهم غنى مما آتاه الله، وأمراء الأتراك على ما هم عليه من الإمتناع، والتحصن بشوامخ الجبال والقلاع وبعدهم عن المغل، وقوتهم بكثرة العديد والعدد والسلاح، ووفور ذات اليد، تداري ملوك جنكيزخان، وتخدم ملوكهم، ومن يصل منهم ويتردد من جهتهم، وتهاديهم، وتعصد بالمقربين إليهم لكل واحد منهم في الأردن، ومن هو من ورثته ومتكفل بالمدافعة عنه، ويخطب في بلادهم للقائم من بيت هولأكو، وتضرب السكة بأسمائهم. وكتائب الروم عليهم أُلطاف وتحف يتأقونه بها، ويتوقون من خلفه من قانات المغل بالأخذ بخاطر نائبهم.

(المخطوطة ص 281) هذا لأنه جارهم المجاور لهم، وهم رهن ما يكتب به إلى الأردو وفي حقهم، ولما كان تمرتاش بن جوبان، قد استقل بهذه النيابة ورست فيها أعلامه، وفتح الفتوحات، وأباد المجاور لهم، وهم رهن ما يكتب به إلى الأردو وفي حقهم.

ولما كان تمرتاش بن جوبان، قد استقل بهذه النيابة ورست فيها أعلامه، وفتح الفتوحات، وأباد المخالفين له بها، خافت أمراء الأتراك بأسه، وكتابت أباه جوبان، وتستررت بظله، وتترست من مواقع سيوف تمرتاش تجاهه، وقضت تلك المدة معه بهذا وأشباهه، ومع هذا كله يرميهم بالبوائق، ويترصد لهم غفلان الوقت.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وقال: غفلان بيت جنكيزخان ما قاله بهرام جوين في الأكاسرة، قال وما الله (تعالى) جعل حتماً على العباد أن تبقى دولة آل ساسان إلى آخر الزمان، وأظهر ما كان يسره من هذا الأمر، وباح به وهم وما فعل، فبلغ ذلك أبا سيعد بهادرخان سلطان ذلك الوقت، فعتب على أبيه جوبان، فقراً جوبان من فعل ولده تمرتاش، ونهض إليه في وقت شتاءٍ لا طاقة لأحدٍ بسلوكه، وقطع إلى الروم كل جبل ثلج نزل عنه النظر، وأراد تمرتاش أن يضرب معه مصافاً، فإطفاه أبوه، وراسله حتى كف وأذعن، وأخذه أبوه وأحضره إلى الأردو في هيئة المأسور المقهور.

وجوبان يُظهر هذا، ويسر خلافة، ويبطن مخادعة السلطان أبي سعيد في أمره، فلما مثل تمرتاش بين يديه، فك إيساره، وخلع عليه وتركه بالأردو مدة، ثم أعاده إلى الروم على ما كان عليه، وزاد في تخويله والتنويه بقدره.

ثم لما أن لدولة جوبان وبنه الزوال، وكان منهم ما كان قويت أمراء الأتراك بالروم، وانتعشت قواهم ثم هم إلى الآن على هذا الحال على كثرة اضطراب أمر المغل وتفرق أهوائهم.

في هذه المود كلها مع هذا ما استطاع أحد من أمراء الأتراك إلى (أن) يلتفت

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

إلى شيء مما بأيديهم من الروم (المخطوط 381) لا ولا ارتجاع شيء مما كان تمرتاش بن جوبان قد أبان ملوكه وافتتحه واستضافه إلى ما بيده.

وهذه جملة ما حمله مقدار هذا التأليف من أخبار الروم، ما تضمنه مما دخل فيه بدلالة اللزوم، وبالله نسترشد ونستهدي، وعليه نتوكل وإليه ننسب. وأما ما هو بأيدي النصارى فقد قال بليان الجنوبي: أن ممالك الروم كلها تترامى إلى رومية، موضع الباب ثم مملكة القسطنطينية ثم طرابزون. فأما مملكة طرابزون، فهي من ممالك عباد الصليب مملكة جليلة القدر، وعلى ساحل البحر على خرجة ماء ينطش، وهي مملكة أخذت غرباً بشرق على أطراف مملكة الأتراك في البر المتصل بنا، وهي في جنوبي الروم، دق طرفها واتسع وسطها، كأنما دار على جانبها الفرجار من خارج المركز، فجاءت على شكل الأهليلة، وعلى هذا التصور صورها بليان الجنوبي. وقال: وصاحبها ملك رومي عريق في الملك من أولاد قسطنطين، باني مدينة القسطنطينية، وهو صاحب تخت وتاج، ووظائف ملكية، وحاشية سلطانية، وقدر رفيع عند الباب، وهو وجميع أهله، الغابر منهم والباقي، أهل جمال فائق، وحسن فائق إلا أن أهل هذا الملك القائمة بها الآن وإياه لكل منهما على عجم الصلب سلقه رقيقة ممتدة بارزة، تكون طول الإبهام وعرضه كأنها ذنب خارج. اسم الكتاب: مسالك الأبصار. وقال: وفي هذه المملكة قوم فيهم مثل هذا، ولما قال لي هذا توقفت عن نقله عنه وشككت فيه حتى حدثني بمثل هذا بهادر الإيواني، وحكى مثل هذا آخر من أهل السير وآخر ثم آخر حينئذ نقلته في كتابي هذا والعهد عليهم، والقُدوة صالحة، والله سبحانه وتعالى فاعل مختار ويخلق ما لا تعلمون فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون. قال وأهل طرا يزون أهل نجدة وبأس وعليهم طريق مسلوكة لمن أم بلاد القزم وصحراء التعفجاق وطوائف سكان الشمال. قال: ومملكة طرابزون أوسع من مملكة الكرج، وأجل مقداراً عند ملوك النصارية، وإنما أولئك أشد أيدٍ وقوة.

قال: وملك طرابزون يسمى التكفور كما يسمى ملك الأرمن، وهو أعلى نسباً من ملك الروم القائم الآن في المملكة بها، وله عليه فخر لا يعلى على منصبه، ولا يعلى رداؤه عن منكبه، قالوا: وجنده ليسوا بذي عدد غالب ولا مدد مغالب، وإنما هم أقران فوارس وأعيان ليوث، لا يحلى لها فرائس، قال: وأحوالها كلها تشابه ما يليها من ممالك الأتراك.

قال بليان الجنوبي:

وأما مملكة القسطنطينية وهي الآن تسمى اصطنبول وقديماً ببرطانية، فإنها كرسي مملكة الروم، ولملوكها التقدم على جميع ملوك عباد الصليب، ومن أهلها الملك القائم القديم وكانت لهم اليد العليا على بني العمودية، وجميع طوائف العيسوية.

وهي مملكة قيصر بها كان تخت الاسكندر وتداولتها دول الروم من أولاد قسطنطين، وخرجت عليهم خوارج، ثم هبت للفرنج بها ريح ملك، واشتعلت

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

لهم بها ذؤابة دولة، واشتعلت لهم بها نار غليّة، ثم عادت إلى الروم واستمرت إلى اليوم.

قال: والفرنج تزرى بالروم لخروج ملك الشام عنهم وتغيرهم بغلبة العرب عليهم، يعني في مبدأ الإسلام، وتعيبهم بهذا، وتوسعهم الملام.
قال: ومع هذا فلا يسع ملوك الفرنج إلا إجلال هذا الملك الرومي، وتوفيه حقه من التعظيم، وعساكره مائتا ألف فارس مديونه، ما فيهم إلا صاحب أقطاع أو نقد، وأرزاقهم لكل واحدٍ منهم في السنة مائتا دينارٍ إلى ألف وخمسمائة دينار، وفيهم من يبلغ ألفي دينار، والدينار اثنا عشر درهماً، وهو درهم ينقص عن البندقي بقليل، والدينار ما هو دينار مسمى بل حقيقة دينار مسكوك من ذهب مغشوش، فلهذا نقص ثمنه، قال: واسم هذا الدينار بربر.
وقال: وأما الإمرة عند الروم فإنها محفوظة في بيوت قديمة، يتقدم في إمرة كل واحد منهم يتوارثها كابر عن كابر (المخطوط 581) ويورثها أول لآخر.

قال: ولملك القسطنطينية قدرة، ليست لأحد من الملوك النصرانية سواه، قال: لأنه يركب في كل يوم إلى الكنيسة العظمى بها، ومعه البطريرك، ويقف على كل باب من أبواب الكنيسة على كثرة أبوابها فرس للملك وبغلة للبطريرك. وشعار سلطنته كامل بجميع ما يحتاج إليه الملك، بما لا بد للموكب الملوكي منه، فمن أي باب خرج من أبواب الكنيسة، هو والبطريرك ركباً، وسار الملك في أبهة الملك التمام، وشعار السلطنة الكامل بما كان معداً له على الباب الذي خرج منه دون ما كان معداً على بقية الأبواب وعلى كل باب منها نظير ما كان على الباب الذي خرج منه الملك، وسار بشعار الملك الكامل.
قال: وللملك ميزة يتميز بها، وهو أنه لا يلبس أحد في مملكته جميعها خفاً أحمر غيره، وزى الروم في لباسهم من نوع زي الأتراك والمغل من الأقبية التتارية والمحضرة، خلا أن الكبائس على رؤوسهم متنوع مرحرح، كأنه الطبق، ويشدون في أوساطهم المناطق والسيوف، ومناطقهم ثقال، وسيوفهم كالسيوف المغربية، أخف من العربيات، وعلى أشكالها، ولباسهم الجوخ والصوف والحرير الأطلسي والديباج وسائر أنواع الحرير.

قال: وللملك داران معروفتان بدار المملكة، الواحدة قديمة من بناء الاسكندرية، خارجة في كبد البحر، ذات حارات طوال ودهاليز بعيدة نائية، وفي جانيها تماثيل نحاس على صورة الإنسان وسائر أنواع الحيوان، وفيها صوة فرسان على خيل وحيوانات وأشكال آخر، وكلها أكبر من الحيوانات المعروفة بما يزيد زيادة ظاهرة على الأشكال الطبيعية، وهي في غاية الصنعة الأحكام بالنقوش العجبية والتخاطيط الغريبة، ولا يعرف هل عملت لظاهر الزينة أو لباطن من الحكمة وهي دار عظيمة هائلة البناء، يعقود منظمة وأبينة رفيعة واسعة رحبة مفروشة بالرخام الأبيض والجزع والملون وضروب من المسن الأخضر. قال: والملوك لم يسكنوها منذ عصر ميتشامون بها، ويقولون أنها مسكونة بمردة وفساق الشياطين، وأن فيهم من يتراءى على مثال أصلة لا نطاق، والدار الأخرى هي التي يسكنها الآن الملوك، وتسكن إليها وهي على

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

جلالة مكانها وفخامة قدرها لا تقارب دار الاسكندر ولا تدانيها في الإمكان والتشييد ورونق التأنيق والتنميق.
قال: ولقد كانت ملوك القسطنطينية تراقب ملوك القيجاق، وتؤدي إليهم القطيعة حتى تزوج هذا السلطان أربك خان منهم فأمنهم ووضع عنهم أثقال تلك القطيعة، وأصر تلك الأتاوة وناموا الآن في مهاد الأمن، ورفعت عنهم غمم التكليف.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وقال لي غيره وقد سألته عن عدد جيوش الروم، فقال: هم عدد بلا نفع، قلت: وهذا هو المشهور عندهم في كل زمان ومكان والمأثور عنهم أنهم وإن كانوا ذوي عدل ليسوا من الشيء شيء وإن كانوا، وإن هان أقوى اعتدادهم المخمر والخمير وأوفى حبهم الديباج والحريز، ما فيهم ضارب إلا بجنك أو عود، ولا طاعن إلا بين أعكان ونهون، ولا يشربون دماً إلا من فم إبريق جريح، ولا يرون قتيلاً إلا شخص زق طريح، ولا لهم وقائع إلا في ملبقات الصحاف، ولا مواقع إلا بين فراش ولحاف.

لا يعرفون البيض الأبيض الدمى، ولا السمر إلا كل سمراء الدمى، ولا العجاج إلا من دخان عنبر، ولا أثر السيوف إلا في ثغر شنيب كأنه عقد جوهر ولا مقام إلا في مجلس راج، ولا اهتمام إلا بمجلس أفراس، ولا التماس إلا لغيق أو اصطباح ولا اقتباسه إلا مما تتوقد ناره في كأس أو يقتدح من أقداح ما منهم راكب جواد إلا اللذة، ولا صاحب جهاد إلا في فرصة مستلذة، ولا عوال تلعلع أسنتها غير الشمع، ولا عويل إلا مما يتخير من مآقى الغيد من الدمع.
قال بليان: وطوائف الروم لا معروفة لهم بامتطاء البحر ولا عادة بركوب السفن، وأبعد سيارتهم فيه إلى مواضع النزهة، وإنما هم أصحاب خيل، ولا تعد خيالهم في جباد الخيل وإنما يجلب إليهم كرائمها من بلاد الأتراك من قاطع الخليج، وإنما هم بغال تباع بغال.
ولهم تجميل دبر في الملابس والمراكب والفروش، وفي أهلها الجمال البديع والكمال التام، وفي المثل وجوه الترك وأجسام الروم وطرق العرب.
قال: فأما منابت القسطنطينية فكلها أرض جيدة صالحة للزروع والثمار، ولها نهر متوسط المقدار، عليه مساقى زرع وأشجار والأرزاق بها كثيرة الوجود والرطل القسطنطيني نظير الرطل المصري وكيل الطعام بها المسمى مدني، وهو حمل جمل يكون أردبين ونصف بالمصري، وبه يباع الغلال الكثيرة، فأما القليل منها، فيباع بالرطل.

قال: وهذا الملك لا يفارق مجلسه الطرب، ويضرب له بالآلة المعروفة بالأرغل وهي ذات وضع عجيب والحن غريبة مطربة تأخذ بمجامع القلب، قلت: وقد رأيت هذا الأرغل بدمشق ثم بالقاهرة فقلت هذا للضارب به، فقال لي: هذا أرغل صغير يفكك ويحمل وما معه أصوات تسير له الضرب، والذي يضرب به لملوك الروم البحر الكبير مستقر في مكان لا يزايله، وله عدة من أصحاب الأنغام المطربة، تسير له، وله بذلك رونق لا يكون في مثل هذا، وصورة الأرغل خشب مركب، وله بكر نحاس وأوتار شريط نحاس، ونحر بمثل كور الصائع،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ونقمة شبيهة بالآله التي تسمى القانون. ثم نعود إلى تنمة الحديث.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال بلبان: والملك لا يمد الطعام إلا بين سباطين من المغاني وأصحاب الملاهي.

حدثني أفسنقر الرومي أحد أمراء العشرات بالأبواب السلطانية، وهو من بعض بيوت العشرة الآمرة القديمة بالقسطنطينية وكان قد حضر في جملة الرسل إلى الأبواب العالية، وأسلم وشمله التشريف والأنعام الشريف، والإقامة في الخدمة السعيدة السلطانية بمثل هذه الأحوال، وسمعتة يبالغ في تعظيم شأن ملوكهم، ويصفهم بحسن الموافقة والمراعاة لمصالح أولياء دولتهم ورعاياهم. وقال: إن عادتهم جارية بأنه إذا من مات من أمراء الروم جرى على أكبر أولاده ما كان يجري على أبيه، فإن لم يكن له ولد كان على أكبر أهله، فإن انقرض تصرف الملك فيه برأيه، فإن ترك الميت أولاداً لا يقوم بهم ما كان لأبيهم ولا يكفيهم إذا توزع عليهم جرى على الأمثال ما كان لأبيهم، ونظر في حال البقية. قال: وعادة هؤلاء الملوك أن لا يعطى ولد أمير رزقا من جهتهم ما دام أبوه حياً يرزق، بل ارتزاقه مما لأبيه، وإن أراد الملك أن يعطيه شيئاً أعطى لأبيه مقدار ما يريد أن يجعله لابنه، ثم أمره أن يجريه هو على ولده من جهة لا من جهة الملك.

قال: وهم أهل عدل فلا يظلم أحد منهم ولا يستحسن الظلم ولا يفسح فيه ولا يتطلع إلى شيء مما في أيدي الناس من أرباب دولته ورعايا مملكته، ولا يعرف هذا عندهم.

قال: وجميع من هو في خدمة ملوك الروم لا حجر عليهم ولا تضيق في الإكرام بحضور خدمة مرتبة ولا أخذ دستور في أمر من الأمور، فخلي بين نفسه وما يريد في الركوب والنزول والسفر إلى الصيد والتنزه وإلى جهات أملاكهم وأقطاعاتهم بل هو في ذلك كله مع رأيه يسافر متى أراد إلى جهة أراد، ويغيب ما يقدر له أن يغيب بغير إذن لملك ولا لأحد ممن ينوب عنه، وفيهم من يغيب السنة فما فوقها، ولا يقال له لم سافرت؟ ولا كيف أبطأت؟ ولا لأي شيء انقطعت عن الخدمة؟ ولا يعتب ولا ينكر عليه، ولا لملك تشديد عليهم في أمر إلا في الإلزام بالتوجه إلى حرب أو المؤاخذة بحق.

قال: وما أهل مملكة الملك فهم منه في أرغد عيش، لا يفوض له بناء، ولا يكف له إناء، قالوا: كلهم والبطيرك هو الحاكم على الملك، لأنه لا معول إلا على رأيه، ولا يفصل حكم إلا بقضائه وله رزق عظيم، يعدل معدلة دخل إقليم، وإليه أمر الكنيسة العظمى، وسائر الكنائس والديارات ويحصل لها في كل سنة أموال جملة طائلة من الوقوف والنذور والقربانات والتحف، ومهاداة الملوك والكنود والتجار.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وفيما يزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعها. وقف على الكنيسة العظمى التي لهم المسماة بالأوصفية، وبلاد مقدونية هي الاسكندرية، وما هي مضاف إليها، وكان ذلك في قديم الزمان مصر كلها بأسرها إلا الصعيد الأعلى، وعلى هذا جاء الفتوح في صدر الإسلام.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

قلت: والروم تبالغ في تعظيم هذه الكنيسة وتفتقد في كرامتها، وينقل من التواريخ أن بها كان اجتماع قسطنطين على التدين بدين النصرانية، وإن عقد الاتفاق كان على المذبح بها، وفيها ما يقول صليب الصلבות وعصا موسى وزنار مريم ومسح المسيح مما يقال أنه صار إليها من طليطلة، وفي زمان الملك الناصر صلاح الدين قدس الله روحه، جاءت إليه رسل الفرنج تسأله في إرسال صليب الصلבות إليها، وزعموا أنه قد صار إلى خزائن العبيدين واتصل إليه، ثم أن صلاح الدين ظفر به في بعض حروبه بالرجل الذي كان حضر في طلب الصليب، فأمر به فصلب، وكتب الفاصل رحمه الله كتاباً ذكر هذا فيه. فقال: وحصل الظفر بمن كان تقدم حصون في طلب صليب الصلבות، وأطلقه في ذلك الوقت، وعلم أنه لا يفوت، فلما ظفر به الآن أمر به أن يصلب، وجعله مثله، وسمره على الصليب الخشب، وجعله مثله (مثله) هذا ما ذكره في هذا المعنى.

وأما الشائع الذائع على ألسنة الناس وكلام المتجولين في الأرض، وطلبة الكنوز والخبايا، فهو أن علم الكنوز في كنيسة القسطنطينية، ثم صارت إلى القسطنطينية، ومنهم من يقول أن الروم لما خلت عن الشام وبلاد القبط، اكتنزت كثيراً من أموالها في مواضع كانت بعدها لذلك، وكتبت بها كتباً بإعلام مواضعها، وطرق الوصول إليها، وأودعت تلك الكتب مكاناً في كنيسة القسطنطينية، وإن منها تستفاد معرفتها، ومنهم من زعم أن سكان الشام من الروم، لم يكنزوا، وإنما ظفروا بكتب بمعالم كنوز من كان قبلهم من اليونان والصابئة والكلدانيين ومن تقدمهم من الأمم الأول، فلما غلبوا على الشام، واستصحبوا تلك المعالم فأودعوها الكنيسة، أنه لا يصل إليها إلا من خدم الكنيسة مدة معلومة عندهم، فإذا انقضت، أعطى ورقة واحدة بخطه، ونصيب فيما يدل عليه، ولهم في هذا ومثله حكايات بجنسها، وأنا لا أصدقها ولا أكذبها، وإنما ذكرت منها هذا هنا على سبيل الحكاية والتندير إذ كان هذا ما يدور ذكره في حديث الناس إذا ذكروا هذه الكنيسة، وهو مما لا يستبعد إما كله وإما شيء منه لدخوله في حيز الإمكان، ولأنه لا يخلو من فواضل أهل زمان. وهؤلاء العرب تكتنز أموالها في قدور بسلاسل طوال تدفنها في مواضع متغلغلة في البر، وتعلمها بأعلام لا تتغير من الجبال والرُبى، وما أشبه ذلك، فأما ما لا شك فيه فهو أن في القسطنطينية كتباً جليلة من كتب حذاق الحكماء والفلاسفة القدماء، ما لا خرج عن دار قومه ولا وصل إلى فلاسفة الإسلام منه شيء، لضنائة بطارقتهم، وسوء سهم به، ومحافضة خزانة على خزنة وحفظه، ويقال أن فيها دقائق الموسيقى مما لو عمل به أهل هذا الشأن والقوة على أصحاب الأصوات المطاوعة لاستغنوا به في معالجتهم به من العقاقير حتى يقال أن فيها ما يلين القاس، ويقاد الصعب، ويضحك ويبكي ويندم.

ويدعى أصحاب علم الكيمياء أن فيها كتباً جليلة فيها العلم الصحيح بأسهل الطرق وأقربها إلى الوصول، وتدعى أنه مما تلقى عن موسى صلوات الله عليه.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

قال: ويقال أن فيها أثرا من علوم الخضر والاسكندر وذي القرنين تفتح به المغالق، وتتسلم المعاكل، وتملك النواصي، وتهزم الأعداء، فإذا حوج أحد ممن يقول هذا القول وحقوق وقيل له، أنتم تلوون ضلوعكم على الداء الدقيق، غيطاً على أخذ الشام منكم، فهلا أخذتم بتلك الآثار، وبلغتم المراد وكفيتهم المهم ايلسوا وسكنوا، ولم تكن لهم حجة إلا أن يقولوا ما بقى من يعرفها أو ذهب زمانها أو تزيد طولع أو باد من يعلمها أو ما تم من هو مشغل بها.

وأما الذي هو الآن عندهم ظاهر من بقايا ذخائر العلماء الحكماء فهو الطين المختوم، ورأيت أطباء الزمان، ومنهم بالديار المصرية رؤساء أفاضل وعلماء لا تقصر عن درجات الأوائل، ما فيهم من يشته على التحقيق، لكنها تستحسنه، وتقول هو طين مليح يحصل به القصد، ويتوقف، ولا يجزم بأنه هو الطين المختوم، ويقول الطين المختوم طين عمل وطيع وختم على عهد جالينوس. ويقال كانت امرأة في جزيرة في البحر تجلس على هيكل على قراره أو بركة يأتيها السيل، فتذبح هناك التيوس على سبيل القربان في وقت معلوم من السنة، ويؤخذ من التراب مما جف عنه السيل وجمد عليه الدم، وقالوا: إنه يُجبل بالدم في طالع مخصوص، ويقرص أقراصاً، ويطيع بطايع متخذ لها، ومنهم من يقول إن فعله إنما هو لخاصية تلك البقعة، ومنهم من يقول للطالع المخصوص، ومنهم من يقول بل لشيء أبيض عليه في الهيئة الاجتماعية. وهذا الطين المختوم المجلوب الآن هو على نوعين أبيض ونوع أحمر، فأما الأبيض فمنه أغبر ومنه شديد البياض، أما الأحمر فمنه وروي ومنه ما يشوبه سواد كأنه لون المغرا أو طوابعه مختلفة، وهذا الاختلاف مما أوقف الأطباء عن الجزم به، أنه هو هو ولأنه لم يجدوا فيه كل ما ذكرت القدماء في أوصافه.

وقال لي الرئيس أمين الدين سليمان بن داوود المتطبيب رحمه الله، وقد رأيته منه هذا ما هو الطين المختوم، والطين المختوم عمل على عهد جالينوس، وكان مقداراً ليس بالكثير ثم لم يعمل بعده، وغطى البحر على تلك الجزيرة، والناس منذ عمل تستعمل منه، ولهذا زمان طويل ولولا كان بقدر ما عمل أضعافاً مضاعفة لكان قد فرغ، وإنما هو شيء يشبهه، وليس به. وأكثر ما يحمد الأطباء من هذا الطين المشته بلون المغرا، ثم أن الوردى، فأما الأبيض فما رأيت أحداً منهم يقدمه، إذا رآها في وصف، ولا يعبا به، فأما جلابته من القسطنطينية فتذكره وتصف صفاته الروم، والذين جربت منه، فحمدت من أنواعه هو المشبه بالمغرا وقد ذكرت هذا المحل الفائدة، ثم نعود إلى الكلام على القسطنطينية.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال أقسنقر الرومي وبلبان الجنوبي وعلي بن بلبان الجلي قالوا كلهم، وقال غيرهم: إن القسطنطينية على جزر من البحر، يدخل منه ماء إلى الميناء في جانب القسطنطينية، ويدخل مسورها والتجار والسفارة من سائر الأقطار من المسلمين والنصارى وغيرهم، يأتي إليها وينزل بها، وبيع ويشترى فيها، ولا حرج عليهم ولا تضيق.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

والمسلمون فيها على جانب أعزاز وإكرام، فيها سكان من المسلمين يسكنونها إلى اليوم، لا يمسهم ولله الحمد ذل ولا هوان، ولهم مساجد وأئمة تصلي بهم الجماعة، فتظاهر فيها بشعائر الإسلام، وللملك اهتمام بكف الأذية عنهم، وإذا شكى المسلم إليه على أحد من النصارى، ولو أنه من عظماء البطارقة، أشكاه وأنصفه منه، ولا اضطهاد، ولا ضيم في جميع مملكة هذا الملك عليهم ولو تغيرت الملوك، واختلفت الأحوال، لا يقدر الملك على تغيير حاله في هذا، ولا مخالفة لمن تقدمه فيه لأنها عادة تدين بها ملوكهم، وسارت بها في ملوك النصرانية سيرهم، فلو عدل الملك عنها، لمنعه البطريق، ووأخذه به وأخذه بالرجوع إلى عادة أسلافه، واشتد في منعه، فإن رجع، وإلا كان السبب بتحريمه، فإن رجع، وإن كان السبب لخلعه. والروم أسخى من جميع الطوائف النصرانية، واسمك في الكرماء نفوساً، وأمسك ناموساً، ومع هذا فما فيهم من يداني العرب في كرم، ولا يقاربهم في جود، والشح غريزة في طباع النصارى، لا ينفق إلا فيما يتنغم به، فينفقه في اللهو والطرب، والنخوة فيهم قليلة، وهذه جملة ما ذكره من أخبارهم، وفهم من كلامهم.

ومما أقوله أن أول دليل على عظم القسطنطينية ومالها من الممدود غزوة هارون الرشيد إياها سنة خمس وستين ومائة، كان أبوه المهدي قد وجهه إليها وهو إذ ذاك ولي عهد أبيه المهدي، فخرج يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة غازياً إلى بلاد الروم، وضم إليه المهدي الربيع مولاه، فتوغل هارون الرشيد في بلاد الروم، فافتتح ماجده ولقيه خيول بقطياقوس القوامسة فبارزه يزيد بن مزيد، فأرجل يزيد ثم سقط بقطيا، فضربه يزيد حتى أثخنه، وانهزمت الروم، وغلب يزيد على عسكره، وسار هارون الرشيد بمن معه في مائة ألف دينار وثلاثة وسبعين ألف وأربعمائة وخمسين ديناراً ومن الورق مائة ألف ألف واحد وعشرين ألف ألف وأربعة عشر ألف وثمانمائة درهم، وسار هارون الرشيد حتى قطع خليج القسطنطينية، وصاحب الروم يومئذ عسطة امرأة النون وذلك أن ابنها كان صغيراً، قد هلك أبوه وهو في حجرها، فجرت بينها وبين الرشيد السفراء في طلب الصلح والموادعة، وإعطاء الفدية فقبل ذلك منها هارون الرشيد، وبشرط عليها الوفاء بما أعطت، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه، وذلك أنه دخل مدخلاً ضيقاً تخوفاً على المسلمين.

قال أبو جعفر الطبري: وسار هارون في خمسة وتسعين ألف وسبعمائة وثلاثة وسبعين رجلاً من المرتزقة سوى المطوعة ثم ذكر مثل هذا، وقال: إنه جرت بينها وبين هارون الرسل والسفراء في طلب الصلح فبشرط عليها الوفاء وأن تقيم له الأولاد والأسواق في طريقه فأجابته، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها سبعون ألف دينار تؤديها في نيسان الأول في كل سنة، مثله في حزيران، وقيل ذلك منها، وأقامت الأسواق في منصرفه، ووجهت معه رسلاً إلى المهدي بما بعثت له وربما بذلت على أن تؤدي ما يتيسر من الذهب والفضة والعرض،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين، وكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعن الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمئة وثلاثة وأربعون رأس، وقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون ألف وقُتل في الأساري صبراً ألفان وتسعون أسيراً، وبيع البرذون بدرهم، والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدراع بأقل من درهم، وعشرون سيفاً بدرهم.

فقال مروان بن أبي حفص يمدح الرشيد.

«لطفت بقسطنطينية الروم مسنداً إليها القنا حتى أكتسى الذل سورها».

«ومارمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتها والحرب تغلى قدورها».

«وجزت إليهم مال البحر لم تنل به ووفود الموج دان سيرها».

«وأخرجت منها من خزائن قيصر ألوف قناطير عظيم يسيرها».

«فبورك هارون الندى ابن محمد ودام على الأعداء منه منيرها».

«لقد جرد المهدي منه مهنداً يعرض به يوم اللقاء صدورها».

«على ستمته سرّاً ينوه لائح من وجهه الوضاح أشرق نورها».

«لقد أصلح الرحمن أمة أحمد لمسعاها حتى استقامت أمورها».

«أيمتد عدل حيث حلت بلادها وكل سرير للملوك سريرها».

وقد ذكر الطبري هذه الواقعة في أحداث هذه السنة بهذه المقاصد، وقد الحقت هذه الفصل بشيء مما ذكره الحافظ أبو القسم ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أبي محمد البطل.

قال عبد الله بن يحيى الإنطاكي، كان ينزل انطاكية قال: وكان ممن خرج مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الروم، قال: لما أراد عبد الملك أنه يوجه مسلمة إلى بلاد الروم، قال: قد أمرت عليكم مسلمة بن عبد الملك، قال: وولى على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطل، وأمره، فليعس بالليل العسكر، فإنه ثقة أمين شجاع مقدم، فخرج مسلمة، وخرج عبد الملك يشيعه إلى باب دمشق.

وذكر الحافظ يسنده عن الوليد بن مسلمة، قال: حدثني بعض شيوخنا أن مسلمة بن عبد الملك عقد للبطل على عشرة آلاف من المسلمين، فجعلهم سيادة ما بين عسكر المسلمين وما يليهم من حصون الروم، ومن يتخوفون اعتراضه في نشر المسلمين وعلاقاتهم، ويخرج المسلمون يتعلمون فيما بينهم وبين العسكر، فيصيبون ويخطئون فيأمن بهم العسكر.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وقال الوليد بن مسلم: حدثني أبو مروان الإنطاكي عن البطل أنه قال: سألتني بعض ولاة بني أمية عن أعجب ما كان من أمري فيهم، فقلت، خرجت في سرية ليلاً، وخرجنا إلى قرية، وقلت لأصحابي: أرخوا لجم خيولكم، ولا تحركوا أحداً بقتل ولا سبي حتى تشحنوا القرية، فإنهم في نومة، قال: ففعلوا، وتفرقوا في أزقتها، ودفعت في ناس من أصحابي إلى بيت يزهر سراج، وامرأة تسكت ابنها من بكائه، وهي تقول، لتسكنن أو لأدفعتك إلى البطل ثم انتشلت من سريرته، فقالت: امسك يا بطل، فأخذته.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وقال الوليد حدثني أبو مروان أنه سمعه يحدث، قال: خرجت ذات يوم متوحداً على فرسي لأصيب غفلة مسمطاً مخلاة فيها عليق فرسي، ومسربل فيه خير وشواء، فبينما أنا أسير إذ مررت ببستان فيه بقل طيب فنزلت، فعلقت على فرسي، وأصبت من ذلك الشواء يتصل البستان، إذ أسهلني بطني، فاختلفت متوارياً، فأشفقت من دوامه، وضعفي عن الركوب، فبادرت، فركبت، ولزمت طريقاً، واستفرغني على سرجي كراهية أن أنزل، وضعفت عن الركوب حتى لزمت عتق فرسي، خوفاً أن أسقط عنه وذهب لي لا أدري أين يذهب لي، إذ سمعت وقع حوافره على بلاط، ففتحت (المخطوط ص 691 عيني فإذا دير فوقف بي في وسط الدير، وإذا نسوة يتطلعن من أبواب الدير. فلما رأيته في حالتي وضعفي عن النزول، فأتتني جارية صاحبة منهن حتى وقفت عليّ، ونظرت في وجهي، ورطنت لهن، فنزعن ثيابي وغسلن ما بي، ودعت بثياب فالبيستنيها، وترباق أو دواء فشربته، ثم أمرت بي، فجعلت علي سرير لها ودثار، وأمرت بطعام تُهيء لي فأتت به وأقامت يومي وتلك الليلة لا أدري ما أنا فيه، ومكثت يومين وليلتين حتى ذهب عني السيأت، وأنا ضعيف عن الركوب. فلما كان اليوم الثالث جاءها من يخبرها أن فلاناً البطريق قد أقبل في موكله. فأمرت نبرس فُغيب، وأغلق عليّ باب بيتي الذي أنا فيه، ثم أنزلت البطريق وأصحابه، وكان قد جاء خاطباً لها، فبينما هو على ذلك، إذ جاءه من يخبره عن موضع فرسي، وإغلاقهم عليّ فهم أن يهجم عليّ، فأقسمت إن هو تعرضني، لأنال حاجته، فأمسك وأقام قائلة ذلك اليوم، ثم تزوج، وخرجت فدعوت بفرسي فخرجت إليّ، فقالت:

إني إلا آمن أن يكمن لك، دعه يذهب، فأبيت عليها، وركبت فقفوت أثره حتى لحقته وشدت عليه، فانفج عنه أصحابه فقتلته وطلبت أصحابه فهربوا عني، وأخذت فرسه وسمطت رأسه، ورجعت إلى الدير فألقيت الرأس، ودعوته ومن معها من نسائها وخدمها.

فوقفت بين يدي، وأمرتها بالرحلة، ومن معها على دواب الدير وسرت بهن إلى العسكر، حتى دفعت بهن إلى العسكر حتى دفعت بهن إلى الوالي فجعل نفلي منهن، فتنفلت المرأة بعينها، وسلمت سائر الغنيمة في المقسم وأخذتها أم أبيني.

قال: أبو مروان، وكان أبوها بطريقاً من بطارقة الروم له شرف يهاديه ويكأرمه ويكاتبه.

وقال الوليد: سمعت عبد الله بن راشد الخزاعي يخبر عمن سمعه من البطال: يخبر أن هشاماً أو غيره من خلفاء بني أمية كان قد استعمله على ثغر المصيصة وما يليها، وأنه راث عليه خبر الروم، فوجه سرية لتأتيه بالخبر، فتوجهوا واجلتهم أجلاً، فاستوعبوا الأجل.

قال: فأشفقت من مصيبتهم، ولائمة الخليفة، فخرجت متوحداً حتى أوغلت في الناحية التي أمرتهم بها، فلم أجدهم خبراً، فعرفت أنهم أخبروا بغفلة أهل الناحية الأخرى، فتوجهوا إليها، وكرهت أن أرجع لهم، ولم استنقذهم مما هم فيه، إن كان عدواً يكاثرهم، وأعرف من خبرهم ما أسكن إليه، فلم أجد أحداً يخبرني بشيء، فمضيت حتى أقف على باب عمورية فضربت بابها، وقلت للبواب أفتح لفلان سياف الملك ورسوله، وكنت أشبه به.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

فأعلم ذلك صاحب عمورية، فأمره بفتح الباب ففعل وأدخلني، فلما صرت إلى بلاطها، وقفت وأمرت من يشتد إلى بيت يدي إلى باب بطريقها ففعل، ووافيت باب البطريق قد فتح، وجلس لي ونزلت عن فرسي، وأنا مثلثم بعمامتي فأذن لي، ومضيت حتى جلست إلى جانبه فرحب بي فقلت له: أخرج من هنا لكلام حملت إليك، فأخرجهم وغلق الباب، وعاد إلى مجلسه، فاخترطت سيفي وضربت على رأسه، ثم قلت له: قد وقعت بهذا الموضع، فأعطني عهداً حتى أكلمك بما أريد، ثم أرجع من حيث جئت، ولا يتبعني منك خلاف، ففعل. فقلت: أنا البطال، فأصدقني عما أسألك عنه، وأنصحنى وإلا أتيت عليك. فقال: سل عما بدا لك، فقلت: السرية.

فقال: نعم وافت البلاد غارة لا تدفع أهلها يسد لامس، فوغلوا في هذه البلاد، وملأوا أيديهم غنائم، وهذا آخر خبر جاءني، إنهم بوادي كذا، فغمدت سيفي. وقلت: أدع لي بطعام فدعا، فأصبت منه، ثم قمت فقال: لمن حوله كونوا معه حتى يخرج، ففعلوا ثم قصدت السرية حتى أتيتها وخرجت بها، وبما غنمت فهذا من أعجب ما كان مني.

ثم قتل رحمه الله شهيداً في غزاة غزاها، وقتل معه خلق كثير من المسلمين وفيها يقول الشاعر:

«ألم يبلغك من أبناء جيش
يأقُرْنَ غُودِرُوا جُتّاً رَمَماً»
«تَقُودُهُمْ حَتُوفٌ لَمْ يَطِيقُوا
لَهَا دَفْعاً هُنَاكَ وَلَا خِصَاماً»
«معارك لم تقم فيها بشجُو
نوائحٌ يلتدِمَنَّ به التندِما»
«ولم تهمل على البطال عينٌ
هناك بغيره تشفى الهَيّاما»
«عشية باشر الأهوال صبراً
بخيل تخرق الجيش اللّهاما»
«إذا ما خيله حملت عليهم
تداعوا من مخافته اهتراماً»
«فلا تبعدُ هناك من شهيد
فإنك بالهَيّجا حُساما»

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
الباب السادس

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

في مملكة مصر والشام والحجاز

هذه الممالك هي مملكة واحدة، يقع معظم مصر في أوائل الثالث، ومعظم الشام في أواخره، وحلب منه في الرابع، وهي مملكة كبيرة، وأموالها كثيرة، وقاعدة الملك بها قلعة الجبل ثم دمشق وهي من أجل ممالك الأرض لما حوت من الجهات المعظمة، والأرض المقدسة، والجهات والمساجد التي هي التقوى مؤسسة بها المساجد الثلاثة التي لا تشد الرجال إلا إليها وقبور الأنبياء صلوات الله عليهم والطور والنيل والفرات وهما من الجنة.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وبها معدن الزمرد ولا نظير له في أقطار الأرض، وحسب مصر فخراً بما تفردت به من هذا المعدن، واستمداد ملوك الآفاق له منها.

أخبرنا العدل عبد الرحيم شاهد المعدل بما أذكره من أحواله قال: إن بينه وبين قوص ثمانية أيام بالسير المعتدل المعتاد، والبجاه تنزل حوله وقريباً منه لأجل القيام بمفره وحفظه، وهذا المعدن وهو في الجبل الآخذ شرقي النيل في بحري، قطعة عظيمة من هذا الجبل تسمى قرشنده، وليس في الجبال التي هناك أعلى ولا أشرف منها، وهو في منقطع من البر، لا عمارة عنده، ولا حوله ولا قريباً منه، والماء عنه على مسيرة نصف يوم منه أو أزيد، وهو ما يحصل من المطر، (ويعرف بغدير أعين بكثرة مطر)، ويقل بقلته.

وأما هذا المعدن فهو في صدر مغارة طويلة في حجر أبيض منه يستخرج الزمرد، والحجر الأبيض المذكور ثلاثة أنواع، أحدهما يقال له طلق كافوري، والثاني يقال له طلق فضي، والثالث يقال له حجر خروي، يضرب من هذه الحجارة حتى يخرج الزمرد وهو كالعروق فيه، والذي يخرج من أجوده، وأنواع الزمرد ثلاثة الدبائي وهو أفخرها، ولكنه قليل بل أقل من القليل بل لا يكاد يوجد.

قال العدل عبد الرحيم: أنه ما رآه في مدة مباشرته ولا خرج منه شيء في طول تلك المدة.

قال: وهو يستخرج في طول السنة مهما وجد من يعمل فيه، قال: وليس فيه عدة محصورة بل هم تارات بحسب الاهتمام وعدم الاهتمام باستخراج هذا المعدن.

قال: وإذا استخرج الزمرد يلقى في الزيت الحار ثم يحط في قطن، ويصير ذلك القطن في خرق خام، وما يجري مجراه.

قال: والاحتراز على هذا المعدن كثير جداً، والفعلة تفتش عند خروجهم منه في كل يوم حتى يفتش منهم أماكن لا يليق ذكرها هذا ما أخبرني به.

وحدثني آخر له معرفة بهذا المعدن وأحواله أن هؤلاء الفعلة في هذا المعدن مع هذا الاحتراز الشديد لهم حيل كثيرة في سرقة الزمرد، منها أن الرجل منهم يسرق ما يمكنه من الزمرد ويعمله في كيس صغير من معدن معه لذلك، ويربطه ثم يعلقه بخيط أبريسم مبروم مشدود فيه بين أضراسه الدواخل، ويكون رأس الخيط معقوداً عقداً وثيقاً، فإذا علق الخيط أخرج تلك العقدة بين الضرسين إلى جهة الشفة، فيبقى ناشباً به، فإذا خرج إلى ظاهر المعدن، وصار جنب بأمن أخرجه وأخذ ما فيه.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وبها اللسان وهو ما هو وملوك النصرانية تتراعى على طلبه، والنصارى كافة تعتقد فيه ما تعتقد، وترى أنه لا يتم تنصير نصراني حتى يوضع شيء من دهن اللسان في ماء العمودية عند تغطيسه فيها.

فأما وجوه دخل هذه المملكة وخراجها وعساكرها وأجنادها وما أوى إليها من الأمم، وسكنها من أشتات الخلائق، وعرفت به سلاطينها من حسن السياسة وقدم الرئاسة فأمر لا يخفى له خبر، لا يغطي ضوءه على ذي بصر، وقد تقدم

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

في مواضع من هذا الكتاب ويأتي في مواضع أخرى منه، ما يحقق ما قلناه، ولا يعتقد معتقد أو يظن ظان أنى قلت في هذا بغرض لكوني من أهل هذه البلاد وتحت ظل ملوكها، وريبب أنا وأبائي في نعم سلاطينها، فمعاذ الله أن أقول إلا لحق أو أسطر عني غير الصحيح، لا سيما فيما يحدث به جيل بعد جيل بل لهذا اختصرت في القول.

ومعاملتها الدراهم، ثلثاها فضة، والثلث نحاس، والدراهم ثمانية عشر خروب، الخروبة ثلاث قمحات، والمثقال أربعة وعشرون خروبة، والدراهم منها قيمته أربعة وعشرون فلساً، والدينار الجيشى مسمى عنه ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم من العادة عنه مسمى أربعون درهماً سوداء الدراهم منها ثلث درهم مما ذكر، ولا يوجد بالديار المصرية من الدراهم السود إلا المسميات لا الأعيان.

فأما بالاسكندرية فإنها توجد بها وهي كل اثنين بدرهم وأما الكيل فيختلف، فبمصر الأردب، وهو ست وبيات أربعة أرباع، الربع أربعة أقداح، القدح، مائتان واثنان وثلثون درهماً، هذا أردب مصر وفي أريافها يختلف الأردب عن هذا المقدار إلى أنهى ما ينتهى ثمان وبيات، وإنما المعهود المتعامل إنما هو بالأردب المتقدم ذكره، والرطل هو اثنا عشر أوقية، الأوقية اثنا عشر درهماً، فيكون الرطل مائة وأربعة وأربعون درهماً.

وأما دمشق فهي بنظير المعاملة المذكورة خلا أن الصيحة تتفاوت، فينقص كل مائة مثقال شامي مثقالاً وربعاً بمصر، وكذلك الدراهم والرطل اثنا عشر أوقية، الأوقية خمسون درهماً، فيكون الرطل ستمائة درهم. والغرارة للغلات وهي اثنا عشر كيلاً، كل كيل ستة أمداد، المد ينقص قليلاً عن الربع المصري، ونسبة ما بين الغرارة والأردب، أن كل غرارة ومد ونصف ثلاثة أرباب بالمصري تحريراً 7 وفي بر دمشق ربما زاد الرطل والغرارة على الدمشقي حتى يكثر تفاوت ما بينهما لعظم زيادة بعض المواضع، لكن كيل دمشق، ورطلها هو المعتبر وإليه المرجع.

وأما حلب وحماة وحمص فأرطلها أزيد من الدمشقي ولا تعرف الغرائر، وإنما تعرف المكايك، وتختلف زيادة بعضها على بعض، منها ما هو معتدل الغرارة مكوكان ونصف وما بين ذلك، كل ذلك تقريباً.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

فأما مصر فمزروعتها على النيل بعد زيادته وعمومه البلاد، سوى قليل لا يعتبر به في بلادها مما يزرع على المطر، كأطراف البحيرة وما يزرع على الأنهر كالفيوم، وماؤها من البحر المنهي اليوسفي المشتق من النيل، لا ينقطع جريه أبداً على ما هو معروف من أمره.

وأكثر محاسن مصر مجلوبة إليها حتى بالغ بعضهم فقال: إن العناصر الأربعة مجلوبة إليها، الماء وهو النيل مجلوب من الجنوب، والتراب مجلوب من حمل الماء وإلا فهي رمل محض ولا ينبت الزرع، والنار لا يوجد بها شجرته وهو الصوان إلا إذا أجلب إليها، والهواء لا يهب إليها إلا من أحد البحرين إما الرومي وإما الخارج من القلزم إليها.

ولقد زاد هذا في تحامله وهي كثيرة الجنوب من القمح والشعير والبول

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

والحمص والعدس والبسلة واللوبيا والدُّخن والأرز وبها الرياحين الكثيرة كالحبق والآس، والورد والنيلوفر والنسرین والبان والتمر حنة والمنثور والياسمين والأترج والنارنج والليمون والحامض الكباب والموز الكثير وقصب السكر الكثير، والرطب، والعنب والتين والرمان والتوت والفرصاد والخوخ واللوز والجميز والنبق والبرقوق والقراصيا والتفاح. وأما السفرجل والكمثري فقليل وكذلك الزيتون مجلوب إلا قليل في الفيوم، لا اعتبار به، ولا من الجوز إلا ما قل جداً ولا يوجد بها الفستق ولا البندق، وبها البطيخ الأصفر أنواع والأخضر أنواع والخيار والقثاء على أنواع، والقلقاس واللفت والجزر والقرنبيط والفجل والبقول المتنوعة. وبها أنواع الدواب من الخيل والجمال والبالغ والخمر والبقر والجواميس والغنم والمعز، ومما يوصف من دوابها بالجودة الخمر لفراحتها، والبقر والغنم لعظمها. وبها الأوز والدجاج والحمام، ومن الوحش الغزلان والنعام والأرنب، فأما من أنواع الطير، فكثير كالكركي والأوز وغير ذلك وأوسط الأسعار في غالب أوقاتها الأرنب القمح بخمسة عشر درهماً، والشعير بعشرة، وبقية الحبوب على هذا النموذج، وأما الأرز فيبلغ أكثر من ذلك، وأما اللحم فأقل سعره الرطل نصف درهم وفي الغالب أزيد، والدجاج يختلف سعره بحسب اختلاف أحواله فجيده الطائر بدرهمين، ومنها ما هو بثلاثة، وقد يزد، ومنها ما هو بدرهم واحد.

ويعمل بمصر معامل كالتنانير، ويعمل بها البيض بصنعة وتوقد، يحاكي بها نار الطبيعة في حضانة الدجاجة البيض، ويخرج في تلك المعامل الفراريح، وهي معظم دجاجهم.

وبها ما يستطاب من الألبان والأجبان، وبها العسل بمقدار متوسط بين الندرة والقلة، وأما السكر فكثير جداً، وقيمتة المعهودة منه على الغالب من السعر، الرطل بدرهم ونصف، ومنها يجلب السكر على اختلاف أنواعه إلى كثير من البلاد، وقد نسي بها ما كان يذكر من سكر الأهواز.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وبها الكتان المعدوم المثل المنقول، ومما يعمل من قامشه إلى أقطار البلاد، ولقد أراني خواجه جمال الدين يوسف الماحوزي مقاطع شرباً أبيض من الصنف الممرش، استعملها بالاسكندرية على أنه يقدمها للسلطان أبي سعيد كأنها جناح الزنبور. لا أظن أنه يعاد لها في الدنيا قماش، قال: أنه استعملها، يقوم كل مقطع منها (ساذجاً) بسبعمئة درهم ورقاً، ويقوم طررزه وهو ساذج (بمثل ذلك)، فيقول جملة المقطع الواحد بألف وأربعمئة درهم ورقاً عنها سبعمئة درم نقرة ليس فيه إلا الكتان.

وبها قليل من الحرير في طرز علي أنه لا يكون غالب الطرز إلا من الكتان، فإن الأبيض فيه لا يكون من الحرير أبداً، ومنه تكون الكتابة وهي حلى الطراز، وقال لي إن الكتان لا يباع الدرهم منه، وأما ما يدخل في الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عدة.

قلت: وهذا الشرب هو الذي تفوق به الاسكندرية البلاد أكثر مما يعمل فيها من القماش على اختلاف أجناسه وأنواعه.

ثم نعود إلى ذكر مصر فنقول: وأما مبانيها فقليل منها بالحجر وأكثرها بالطوب

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وأفلاق النخل والجريد، وخشب الصنوبر مجلوب إليهم من بلاد الروم من البحر ويسمى عندهم النقي.

وبها المدارس والخوانق والربط والزوايا والتراب الضخمة والعمائر الجليلة الفائقة والأماكن المعدومة المثل، المفروشة بالرخام، المنقوشة بالأخشاب، المدهونة بأنواع الأصباغ، الملمعة بالذهب واللازورد، ومن حيطانها ما هو مؤزر بالرخام، وتختلف المباني بحسب اختلاف أصحابها. وحاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام، الفسطاط وهو بناء عمرو بن العاص وهي المساة عند عامة أهل مصر بمصر العتيقة، والقاهرة المعزية بناها القائد جوهر لمولاه الخليفة المعز بن القائم بن المهدي، وقلعة الجبل بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى، وأول من سكنها أخوه العادل، وقد يفصل بعض هذه الثلاثة ببعض بسورما، بناه قراقوش بها، إلا أنه قد يقطع الآن في بعض الأماكن. وهذا السور هو الذي ذكره الفاضل في كتاب كتبه إلى صلاح الدين فقال: والله يحيى الموتى حتى يستدير بالبلد من بنطاقه ويمتد عليها رواقه، فيها عقيلة ما كان معصمها ليترك بغير سوار ولا خصرهما ليخلى بلا منطقة نصار، والآن قد استقرت خواطر الناس وأمنوا به من يد تتخطف ومن طمع مجرم يقدم ولا يتوقف وقد عظمت، وبها المارستان المنصوري المعدوم النظير لعظمة بناية، وكثرة أوقافه، وسعة أبقاه، وتنوع الأطباء وأهل الكحل والجراح به، وهو جليل المقدار، جميل الآثار جزيل الإثارة، وقفه السلطان الملك المنصور قلاوون رحمه الله.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وبها البساتين الحسان والمناظر النزهة والأدور المطللة على البحر وعلى الخلجان الممتدة فيه أوقات مدها، وبها القرافة تربة عظمى لمدفن أهلها. وبها العمائر الضخمة، وبها المتنزهات المستطابة، وهي من أحسن البلاد أيام ربيعها للقدر الممتدة من مقطعات النيل بها، وما يحفها من زروع أخرجت شطاها وفتقت أزهارها.

وبها الآثار القديمة الدالة على حكمة بانيها كالأهرام وأشهرها الهرمان الكبيران بالجيزة، وبرابي أخميم، فأما بقية ما يذكر من البرابي والملاعب بالأشمونيين وألصنا وقيط وعين شمس ومنارة الإسكندرية والبيت الأخضر بمصر يوسف عليه السلام، فكل هذه قد غير الدهر معالمها، وطمس آثار غالبيتها، وشعر الخراب بالهرمين الكبيرين والبرابي بأخميم لأخذ حجارتهما، وتغيير بهجتها. وبها الصنم المقارب للهرمين المسمى عند العامة بأبي الهول وهو صنم كبير لا يبين منه إلا إلى قريب نصفه.

والقول في الأهرام والبرابي كثير، والأقرب أن الأهرام هياكل لبعض الكواكب، فأما البرابي فقال لي الحكيم شمس الدين أبو عبد الله محمد بن شقير الدمشقي أنه رآها وأجاد تأملها، فوجدها مشتملة على جميع أشكال الفلك، وأن الذي ظهر له أنه لم يعملها حكيم واحد ولا ملك (المخطوط 502) واحد بل تولى عملها قوم بعد قوم حتى تكاملت في دور كامل وهو ستة وثلاثون ألف

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

سنة، لأن مثل هذه الأعمال لا تعمل إلا بأرصاد، ولا يكتمل رصد المجموع في أقل من هذه المدة المذكورة، هذا ما أخبرني به عنها.

وكتب القاضي محيي الدين بن الزكي إلى القاضي الفاضل كتاباً ذكر فيه مصر وسمّاها بالمومسة، فعز ذلك عليه، وذكر في جوابه إليه، وهجم بي التأمل على لفظة أطلقها على مصر، وكنى بها عنها، ووصمها بما وسمها، وبث من القلوب عصمها، وأظنه عاقبها بذنب فرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى وحين قال: أليس لي ملك مصر كما فعل الرشيد، وولى الخصب، فإن كان إلى ها هنا ذهب، فقد غاب عاقبها بذنب لم يُجبه، وهدمها بأمر لم تنبه، وعلى كل حال فلو كان على نفس لكنت معه عليها، ولو بعث سهماً إليها لتولت يدي إيفاده إليها، فلقد أخرجني من أرضي بسحره، وقدم خادمه على ما فات فيها من عمره، فهو الآن لا يرفع إليها طرفاً من كسله، (ولا يرى نيلها إلا أقل من مسل برد أو وشلة) وإذا رأى دينارها الأحمر، قال: به حمرة من خجله، وإذا رأى ابريزها الأسود، قال: من سواد عمله، وإذا رأى هرميها، قال: انكسر نهدها، وإذا رأى رملتها الحاقة قال: شاب قوادها، ثم راجع النظر فإذا اللفظة التي أطلقها سيدنا عليهما وهي المومسة تأبى الفلقة، فكيف له أن يقذف المستورة بهذا القذف؟ ويهجم على خدرها بهذا الوصف؟! وقد وفد إليها عن شامه حين أخذ الكفر بمخنيق إسلامه، فأنجدته واصرخته، وسكنت الروع والرجفة، وعاد إلى الغاية بعد الدرك، وقالت الناس ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك وإذا كانت دمشق من عتقاء مصر فلا فخر لها أن تكون مولاتها مومسة، وقد سترت هذه اللفظة، فما كأنها دخلت كابه ولا مجلسه.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قلت: وأما الشام فيزرع غالبه على المطر، وهو من جميع ما ذكر في مصر من الحبوب، ومنه ما هو على سقى الأنهار وهو قليل.

وبها أنواع الأشجار وأجناس الثمار من التين والعنب والرمان والسفرجل والتفاح والكمثرى والأجاص والقراصيا والتوننت والفرصاد والمشمش والزعرور والخوخ وهو المسمى عندهم الدراقن، وأجلها بدمشق من غالب ذلك على أنواع متنوعة وأجناس متعددة شتى، ومنها فواكه تأتي في الخريف وتبقى إلى الربيع كالسفرجل والتفاح والرمان والعنب وبها الجوز واللوز والفتسق والبندق، وبها الليمون والأترج والنانج والكباد والموز وقصب السكر، من أغوارها يحمل إليها من نحو يومين وأزيد.

وبها البطيخ الأصفر والأخضر على أنواع والخيار والقثاء واليقطين واللفت والجزر والقرنبيط، والهليون والبادنجان والملوخية والبقلة اليمانية والرجلة، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة.

ونهر دمشق الخاص بها بردى، وبها غيره من الينابيع والأنهار المارة فيما حولها. وبها الأوز والدجاج والحمام وكثير من أنواع الطير، ولا تكون الفراريح إلا بحضانة لا كما يعمل في مصر، ولقد ذكر أنه جاءها شخص من مصر زمن الصيف، وعمل بها في حاضرة العقبة مع الفراريح، وطلعت به الفراريح، فلما أتى زمن الخريف لم تُطلع معه وخسر وترك ذلك وعاد إلى مصر، وأسعار

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

اللحم أرخص من مصر، وأما الدجاج فنظيرها. وأما الأوز فأغلى، وبها العسل متوسط، ويعمل بها السكر، ومنه المكرر، وهو بأزيد من سعره بمصر، ولا يكثر، وبها أنواع الرياحين الآس والورد والبنفسج والنيلوفر والخلاف والنرجس والمنتور والياسمين والترنجان والمرزنجوش والتمام والنسرين، وإلى وردها وينفسجها النهاية حتى أنه عطل وردها، وما يستخرج من مائة ما كان يذكر من حور ونصبين وماء الورد ينقل إلى غالب البلاد (وبالشام الزيتون الكثير ومنه يحمل إلى كثير من البلاد) وبها أشياء كثيرة خاصة بها.

وغالب مباني الشام بالحجر، ودورها أصغر مقادير من دور مصر، ولكنها أزيد زخرفة منها، وإن كان الرخام بها أقل، وإنما هي أحسن أنواعاً وعناية أهل دمشق بالمباني كثيرة، ولهم في بساطينهم منها ما تفوق به وتحسن به، وإن كانت حلب أجل بناءً لعنايتهم بالحجر، فدمشق أزيد وأكثر رونقاً لتحكم الماء على مدينتها، وتسلمته على جميع نواحيها.

وبجميع الشام وجوه الخير كثيرة من المدارس والخوانق، والربط والزوايا، للرجال والنساء والمارستانات وأوقاف البر والصدقات على اختلافها، وخصوصاً دمشق، فإنه لا يطاول في ذلك باعها، ولا يحاول في هذه الغاية ارتفاعها.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

فأما مسجدها الجامع فهو الفارق بينها وبين ما سواها والفائق بحسنه على كل المباني، في هذه المملكة مصر والشام، من محاسن (الأشياء ولطائف الصنائع، ما تكفى شهرته، وبها من أنواع الصنائع في الأسلحة) والقماش والزركش والمصوغ والكفت وغير ذلك مما يكاد يعد تفرداً به، والرماح التي لا يعمل في الدنيا أحسن منها.

وأما عساكر هذه المملكة فمنهم من هو بحضرة السلطان، ومنهم من فرق في أقطار هذه المملكة وبلادها، ومنهم سكان يادية كالعرب والتركمان. وجندها مختلط من أتراك وجرکس وروم وأكراد وترکمان، وغالبهم من المماليك المبتاعين، وهم طبقات، أكابرهم من له إمرة مائة فارس، وتقدمة ألف فارس من هذا القبيل يكون أكابر النواب، وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين، ثم أمراء الطبلخانات، ومعظم من تكون له إمرة أربعين فارساً، وقد يوجد فيهم من له أزيد من ذلك إلى السبعين.

ولا تكون الطبلخانات لأقل من أربعين، ثم أمراء العشرات ممن تكون له إمرة عشرة، وربما كان فيهم من له عشرون فارساً، ولا يعد إلا في أمراء العشرات، ثم جند الحلقة وهو لا تكون مناشيرهم من السلطان، كما أن مناشير الأمراء من السلطان، وأما أجناد الأمراء فمناشيرهم من أمرائهم وهؤلاء جند الحلقة لكل عدة أربعين نفرًا مقدم منهم، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر، كانت مواقفهم معه، وترتيبهم في موقفهم إليه.

ويبلغ بمصر أقطاع بعض أكابر الأمراء المثبتين المقربين من السلطان مائتي ألف دينار حبشية وربما زادت على ذلك، وأما غيرهم فدون ذلك ودون دونه،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ودون دونه، ودون دونه إلى ثمانين ألف دينار، وما حولها.
وأما الطبلخانات فتبلغ الثلاثين ألف دينار وما يزيد وينقص عليها إلى ثلاثة وعشرون ألف دينار.
وأما العشرات فنهايتها سبع آلاف دينار إلى ما دون ذلك.
وأما إقطاعات جند الحلقة فمنه ما يبلغ ألف وخمسمائة دينار.
ومن هذا المقدار وما حوله إقطاعات أعيان الحلقة المقدمين عليهم، ثم ما دون ذلك إلى مائتين وخمسين ديناراً، وأما إقطاعات جند الأمراء فإلى ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص.
وأما إقطاعات الشام فلا تقارب هذا المقدار، بل تكون على الثلثين منها خلا ما ذكرناه عن بعض أكابر أمراء المئين المقربين، فإن هذا نادر لا حكم له، ولا أعرف في الشام ما يقارب هذا المقدار إلا ما هو لنائب الشام، وكل جند الحلقة والإمرة تعرض بديوان جيش السلطان، ويثبت باسمه وهيئته وحليته، ثم لا يستبدل به أميره إذا شاء إلا بتنزيل عوضه وعوض العوض.

وللأمراء على السلطان في كل سنة ملابس، فأما من حضرته فحظهم في ذلك، وأقر لهم الخيول في كل سنة، ينعم بها عليهم، ولأمراء المئين مسرجة ملجمة، والبقية عرى، وتمتاز خاصتهم على عامتهم بذلك، ولجميع الأمراء حضرته من المئين والطبلخانات والعشرات الرواتب الجارية في كل يوم من اللحم وتوابله كلها والخبز والشعير والزيت، ول بعضهم الشمع والسكر والكسوة في السنة، وكذلك لجميع ممالك السلطان وذوي الوظائف من الجند.
وإذا نشأ لأحد الأمراء ولد، أطلق له دنانير ولحم وخبز وعليق إلى أن يتأهل الإقطاع في جملة الحلقة، ثم منهم من ينقل إلى العشرة أو إلى الطبلخانات على حسب الحظوظ والأرزاق، وإذا ركب هذا السلطان إلى الميدان يلعب الكرة، يفرق حوائص ذهب على المقدمين وركوبه إلى الميدان يكون دائماً يوم السبت في قوة الحر نحو شهرين من السنة، يفرق كل ميدان على اثنين بالنوبة، فمنهم من تجيء نوبته بعد ثلاث سنين (المخطوط 902) أو أربع سنين، ولكل ذي إمرة بمصر من خواص عليه السكر والحلوى من رمضان والأضحية في عيد الأضحى على مقادير رتبهم والبرسيم لتربيع دوابهم، ويكون في تلك المدة بدل العليق المرتب لهم.
ومن مصطلح صاحب مصر أن تكون تفرقة الخيل على أمرائه في وقتين، أحدهما عند ما يخرج إلى مرابط خيله في الربيع عند اكتمال تربيعها. وفي ذلك الوقت يعطي أمراء المئين مسرجة له ملجمة، بكنابيش مذهبة، والطبلخانات عرياً، وعند لعبه بالكرة في الميدان، وفي ذلك الوقت يعطي الجميع مسرجة ملجمة بلاكنايش بفضة خفيفة، وليس للعشرات حظ في ذلك إلا ما يتفقدهم به على سبيل الأنعام، والخاصة المقربين من الأمراء المئين والطبلخانات زيادات كثيرة في ذلك بحيث يصل إلى بعضهم المائة فرس في السنة.
وله أوقات أخرى يفرق فيها الخيل على ممالكه، وربما أعطى بعض مقدمي الحلقة، وقاعدة عنده أنه إذا كل من نفق له من ممالكه فرس يحضر من لحمه والشهادة بأنه نفق، ويعطيه فرساً عوضه.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وأما أمراء الشام فلاحظ لأحد منهم في أكثر من قباء واحدٍ يلبس في وقت الشتاء إلا من تعرض يقصد السلطان، فيحسن إليه، ولخاصة المقرين أنواع من الإنعامات كالعقار والأبنية الضخمة، التي ربما أنفق على بعضها أزيد من مائة ألف دينار، وكساوي القماش المنوع، وفي أسفارهم في أوقات خروجهم إلى الصيد، وغيرها العلوفات والإنزال.

ومن عادة هذا السلطان أن الخروج إلى الصيد مرات في السنة، فإذا خرج أنعم على أكابر أمراء المؤمنين، ولا أعني المقرين، بل أكابرهم قدراً وسيناً، كل واحد منهم بألف مثقال ذهباً، وبرذون خاص به مسرح ملجم وكنوش مذهب، ومن عادته أنه إذا مر في متصيداته بأقطاع أمير كبير قدم له من الغنم والأرز والدجاج وقصب السكر والشعير ما تسموا همة مثله إليه، فيقبله منه، وينعم عليه بخلة كاملة، وربما أمر لبعضهم بمبلغ من المال، .

ومن شعار سلطنة هذه المملكة أن يركب سلطانها في يوم (وخوله إلى مدينة يحيها، ويوم العيد وأيام ركوبه إلى الميدان للعب) الكرة برقبة، وهي بزركش ذهب على أطلس أصغر يعمل على رتبة الفرس من تحت أذنيه إلى نهاية العرق، ويكون قدامه اثنان من أوشاقيته راكبين على حصانين أشهبين برقتين نظير ما هو راكب كأنهما معدان لأن يركبهما، وعلى الوشاقيين المذكورين قباءان أصفران من حرير بطرازين مزركش بالذهب وعلى رأسيهما قبعان مزركشان وغاشية السرج محمولة أمامه دائماً وهي أديم مزركش بذهب يحملها بعض الركاب دائرة قدامة، وهو ماش في وسط الموكب، ويكون قدامه فارس يشب بسبابة، لا يقصد بنغمها الإطراب بل ما يقرع بالمهابة سامعه، ومن خلفه الجنائب، وعلى رأسه العصائب السلطانية، وهي صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه في يوم العيدين ودخول المدينة، يزيد على ذلك برفع المظلة على رأسه، وهي الجتر، وهو أطلس أصفر مزركش على أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة بحملها يومئذ بعض أمراء المؤمنين الأكابر، وهو راكب فرسه إلى جانبه، وأرباب الوظائف والسلاح كلهم خلفه وحوله وأمامه الطبردارية وهم طائفة من الأكراد، ذوي الإقطاعات والإمرة يكونون مشاة وبأيديهم الأتبار مشهورة.

ومن رسم الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث يركب وخلفه جنيب، وأما أكابرهم فربما ركب بجنيبين، هذا في المدن والحاضرة، وهكذا في البر، ويكون لكل منهم طلب مشتمل على أكثر مما يليكه قدامهم خزانة محمولة للطبلخان على جمل واحد يجره راكب آخر على جمل، والمال على جملين وربما زاد بعضهم على ذلك، وأمام الخزانة عدة جنائب تجر على أيدي مماليك ركاب خيل وهجن في ركابه من العرب على هجن، وأمامها الهجن بأكوارها مجنوبة للطبلخانات قطاراً واحداً وهو أربعة ومركوب الهجان والمال قطاران، وربما زاد بعضهم وعدد الجنائب في كثرتها وقتلتها إلى رأي الأمير وسعة نفسه.

والجنائب على ما تراه منها ما هو مسرح وملجم ومنها ما هو بعنانه لا غير، وأهل هذه المملكة يضاهي بعضهم بعضاً في الملابس الفاخرة والسروج

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

المحلاة والعدد الفاخرة.
وأما زيهم فالأقبية التتريه والتكلاوات فوقها، ثم القباء الإسلامي فوقها، وعليه تشد المنطقة والسيف، ثم الأمراء المقدمون وأعيان الجند تلبس فوقه أقبية قصيرة الأكمام أقصر من القباء التحتاني بلا تفاوت كثير في قصر الكم والطول وكلوتات صغار غالبها من الصوف الملطي الأحمر، وعليها عمائم صغار ومهاميز على الأخفاف، ويعمل المناديل على الحياصة على الصولق من الجانب الأيمن.
اسم الكتاب: مسالك الأبصار

هذا هو زي أهل هذه المملكة ومعظم حوائصهم الفضة ومنهم من يعملها من الذهب، وربما عملت باليشم ولا ترصع بالجواهر إلا في خلع السلطان لأكبار المئين، ومعظمهم يلبس المطرز ولا يكفت مهمازه بالذهب أو يلبس المطرز إلا من له أقبطاع من الحلقة، وأما من هو يقدر بالجامكية فإنه لا يتعاطى على ذلك، وعلى الجملة فزيهم ظريف وعددهم فائقة نفيسة، وملبوسهم منوع من الكمخا والخطائي والكبخى والمخمل والاسكندراني والشرب والنصافي والأصواف.
ذكر هيئة جلوسه للمظالم

عادة هذا السلطان أن يجلس بكرة الاثنين ما كان بالقلعة خلا شهر رمضان، فإنه لا يجلس فيه هذا المجلس، ومجلسه هذا هو في أبواب ظاهر قصره قريباً من بابه، وهو إيوان متسع على عمد منه مرتفع السمك أمامه رحبة فسيحة، يسمى هذا الإيوان «دار العدل» وفيه تكون الخدمة العامة، واستحضر رسل الملوك غالباً، فإذا قعد للمظالم كان جلوسه على كرسي، إذا قعد عليه تكاد تلحق الأرض رجله، وهو منصوب إلى جانب المنبر الذي هو تخت الملك ويجلس على يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة ثم الوكيل عن بيت المال ثم الناظر في الحسية، ويجلس على يساره كاتب السر، وقدامه ناظر الجيش وجماعة الموقعين تكملة حلقة دائرة وإن كان، ثم وزير من أرباب الأقلام، كان بينه وبين كاتب السر، وإن كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف وكذلك إن كان:
ثم نائب يقف مع أرباب الوظائف، ويقف من وراء السلطان صفان عن يمينه وشماله من السلاح داريه والجمداريه والخاصكية ويجلس على بعد تقدير خمسة ذراعاً عن يمينه ويسرته ذوو السن من أكابر أمراء المئين، وهم أمراء المشورة، ويليه من أسفل منهم أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وقوف، وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة، ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدواداريه، لإحضار قصص الناس. وإحضار المساكين، وتقرأ عليه، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه، ويأمر في البقية بما يراه.
ذكر هيئته في بقية الأيام

عادة هذا السلطان في يوم الاثنين ما تقدم ذكره، وكذلك في يوم الخميس على مثل هذه الهيئة أيضاً إلا أنه لا يتصدى فيه لسماع القصص ولا يحضره أحد من القضاة وكاتب الجيش والموقعين إلا عرضت حاجة إلى طلب أحد منهم وهذا القعود عادته في طول السنة ما دام أنه بالقلعة في الاثنين والخميس غير رمضان أيضاً.

وأما بقية الأيام فإنه يخرج من قصوره الجوانية إلى قصره الكبير البراني، وهو بشبايك مطلة على اصطبلاته، وفي صدره تخت الملك المختص، فيقعد تارة عليه، وتارة دونه على الأرض، والأمراء وقوف على ما تقدم خلا أمراء المشورة والغرباء منه كأنه ليس لهم عادة بحضور هذا المجلس ولا يحضر هذا المجلس من الكبار إلا من دعت الحاجة إلى حضوره ثم يقوم في الثالثة (المخطوط 312) من النهار، ويدخل إلى قصوره الجوانية، ثم إلى دار حريمه ونسائه، ثم يخرج في أخريات النهار إلى قصوره الجوانية لمصالح ملكه، ويعبر إليه عليها خاصته من أرباب الوظائف في الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة إليه. ذكر هيئته في الأسفار

قد تقدم ذكر هيئته في الأعياد وأيام المؤادين، فأما في الأسفار فإنه لا يتكلف إظهار كل ذلك الشعار، بل يكون الشعار في موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم، واستاذ دار، وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن، وأما هو بنفسه فإنه يركب ومعه عدة كثيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص ونخبة من خواص مماليكه، ولا يركب في السير برقبه ولا بعصائب، بل تتبعه جنائب خلفه، ويقصد في الغالب تأخير النزول إلى الليل، فإذا جاء حملت قدماه فوانيس كثيرة ومشاعل، فإذا قارب مخيمه تلقى بشموع مركبة في شمعدانات كفت، وصاحت الجاويشيه بين يديه، وترجلت الناس كافة إلا حملة السلاح داريه والوشاقية وراءه، ومشيت الطيرداريه حوله حتى يدخل الدهليز الأول، ثم ينزل ويدخل إلى الشقة وهي خيمة مستديرة متسعة، ثم منها إلى شقة مختصرة، ثم إلى لاجوق، ومدار كل خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه.

وفي صدر ذلك اللاجون قصر صغير من الخشب ينصب له للمبيت فيه، وينصب بإزاء الشقة الحمام بالقدر والرصاص والحوض على هيئة الحمام المبنى في المدن، إلا أنه مختصر، فإذا نام طافت به المماليك دائرة بعد دائرة، وطاف بالجميع الحرس، وتدور الترفه حول الدهليز في كل ليلة مرتين الأولى عندما يأوي إلى النوم والثانية عند قعوده من النوم، كل زفة يدور بها أمير بآبدار، وهو من أكابر الأمراء، وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة وينام على باب الدهليز النقباء وأرباب الدول، والنوب من الحزم.

ويصحب هذا السلطان في أسفاره من غالب ما تدعو الحاجة إليه حتى يكاد يكون معه مارستان لكثرة من معه من الأطباء وكثرة أرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك، وكل من عادة طبيب ووصف له ما يناسبه يصرف من الشراب خاناه والدواخاناه المحمولين في الصحبة. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ومن عادة هذا السلطان من السماط طرفي النهار في كل يوم لعامة الأمراء خلا البرانيين وقليل ما هم، وأما بكرة فيمد سماط أول لا يأكل منه السلطان، ثم كان بعده يسمى الخاص قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل، ثم ثالث بعده ويسمى الطاريء ومنه مأكول السلطان.

وأما في أخريات النهار فيمد سماطان الأول والثاني المسمى بالخاص ثم إن استدعى بطار حضر، وإلا فلا خلا المشوى منه فإنه ليس له عادة محفوظة

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

النظام، بل هو على حسب ما يأمر به. وفي كل هذه الأسمطة يؤكل ويفرق نوات، ويُسقى بعدها الأقسام المعمولة من السكر، والأفاويه المطيبة بماء الورد والمبردة، ومن عادة هذا السلطان أن يبيت قريب مبيته في كل ليلة أطباق فيها أنواع من المطجنات والبوارد والقطر والقشطة والجبن المقلّي والموز والكيماخ، وأطباق فيها الأقسام والماء المبرد برسم أرباب النوبة في السهر حوله ليتشاغلوا بالمأكل والمشروب عن النوم.

والليل مقسوم بالنوبة بينهم على الساعات الرمل فإذا انتهت نوبة، نهت التي تليها، ثم ذهبت هي فنامت (هي) إلى الصبح هكذا أبداً سفرًا وحضرًا، وتبيت في المبيت المصاحف الكريمة لقراءة من يقرأ منهم، ويبت الشطرنج ليتشاغل به عن النوم.

وهذا السلطان يخرج أيام الجمع إلى الجامع المجاور لقصره في القلعة، ومعه خاصة الأمراء، ويحيى بقية الأمراء من باب آخر للجامع، وأما السلطان فيصلى عن يمين المحراب في مقصورة خاصة به ويجلس عنده أكابر خاصته، ويصلي معه الأمراء خاصتهم وعامتهم خارج المقصورة عن يمينها ويسرتها على مراتبهم، فإذا سمع الخطبة وصلى صلاة الجمعة، دخل إلى قصوره ودور خدمه وحرمة، وتفرق الناس كل واحد إلى مكانه.

ذكر انتهاء الأخبار إليه

عادة هذا السلطان أن يطالعه نوابه في مملكته مما يتجدد عندهم من مهمات الأمور أو ما قاربها، وتأخذ أوامره، وتعود أجوبته عليهم بما يراه، وبين السلطان وجميع بلاد ممالكه مراكز بين المركز والمركز أميال، في كل مركز عدة خيل بريد للسلطان من الجند أناس بريدي في حضرته، وفي كل بلد لحمل الكتب والعود بأجوبتها، فإذا ورد بريدي بلد من بلاد مملكته أو عاد المجهّز من بابه، أحضره أمير جندار، وهو من أمراء المؤمنين، والدوا دار وكاتب السر بين يديه، فيقبل الأرض ثم يأخذ الدوا دار الكتاب فيمسحه بوجهه البريدي، ثم يناوله السلطان، فيفتحه، ويجلس كاتب السر، فيقرأه عليه، ويأمر فيه بأمره. ومما ينهى إليه من الأخبار ما يكتب في ورق خفيف صغير ويحمل على الحمام الأزرق، وللحمام مراكز كل مركز منها ثلاثة من مراكز خيل البريد أو أزيد، لا يتعدى الحمام ذلك المركز، ولا يمكنه تجاوزه، فإذا حمل الكتاب خلوه بنوع مغزى ليعرف، فلا يعارض ثم يسرح، فإذا وصل إلى المركز المعد له أخذ عنه، ونقل على حمام غيره، من ذلك المركز من مكان إلى مكان إلى حضرة السلطان.

ومن عادة هذه المملكة أن ولاية أمور المدينة، وهم أصحاب الشرط تستعد مجدّدات ولا يأتهم في كل نهار ممن هم على المحلات من قبلهم، ثم يكتب متولى الشرطة مطالعة جامعة ما يبعث إنهاؤه من ذلك، وعمل إلى السلطان هذا بمتجدّدات ما يقع من قتل يقع أو حريق كبير، ويجرى مجرى ذلك، فأما يتبع الناس في أحوال أنفسهم فلا.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

فصل
ومن عادة جيوش هذه الممالك الركوب في يومي الاثنين والخميس في الموكب، وهو مكان فسيح يكون بطل مدينة بها عسكر فيسيرون به، ثم يقف العسكر مع نائب السلطان أو الحاجب، إن لم يكن، ثم نائب، وينادي على الخيل بينهم وربما نودي على كثير من آلات الجند والخيم والخركاوات والأسلحة، وربما نودي على كثير من العقار، ثم أن كانوا بمصر طلّعوا إلى الخدمة السلطانية بالقلعة على ما قدمنا ذكره، والإذن لهم على الإنصراف بعد أكل السماط، وإن كانوا في غير مصر نزلوا في خدمة النائب إلى مكان سكنه، وهو دار السلطنة، ويجلس النائب، وتقرأ عليه القصص، وينصف المظلومين، ويمد السماط، وبأكل عامة الأمراء والجند، ثم ينصرفون، وتزداد عساكر الشام بركوب يوم السبت على هذين اليومين.
والنواب تقعد لقراءة القصص الاثنين والخميس والسبت، وربما قعدوا طرفي النهار في هذه الأيام كذلك، ومن عادة هذا السلطان أنه يكتب خطه على ما يأمر، وأما مناشير الأمراء والجند، وكل من له إقطاع فإنه يكتب عليه علامته وعلامة السلطان القائم الآن، السلطان الناصر ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد ابن الملك المنصور قلاوون، خلد الله دولته، الله أملى.
وأما تقاليد النواب وتواقيع أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب، وبقية أرباب الوظائف، وتواقيع أرباب المناصب من القضاة وتواقيع الرواتب والإطلاقات فإنه يكتب عليها اسمه واسم أبيه صورته محمد بن قلاوون.

وأما كتب البريد وخلص الحقوق والظلمات، فإنه يكتب عليها أيضاً اسمه، وربما كرم من يكتب إليه، فأما من كرمه من ذوي السيوف كتب له والده محمد بن قلاوون، وأما من كرمه من ذوي العمائم المدورة من القضاة والوزراء كتب أخاه بدلاً من والده.
فأما الإقطاعات فالرسم فيها أن يقال (خرج الأمر الشريف، وأما الوظائف والرواتب والإطلاقات فالرسم فيها أن يقال) رسم بالأمر الشريف، وليس بموضع استيعاب أوضاع المكاتبات ولو أخذنا في هذا لطال، ولكننا نذكر نبذة تتعلق بالمناشير والتقاليد والتواقيع إذ كانت هي الأصل لجريان الأرزاق بها فأعلاها ما أفتتح بخطبة الحمد لله ثم ما افتتح بخطبة أولها أما بعد حمد الله حتى يأتي على خرج الأمر في المناشير أو رسم في الأمر بالتواقيع، ثم بعد هذا أنزل الرتب، وهو أن يفتتح في المناشير خرج الأمير، وفي التواقيع رسم بالأمر. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ويمتاز المناشير المفتتح فيها بخطبة الحمد لله بطغرا بالسواد تضمن اسم السلطان وألقابه، ومن عادة السلطان في الإقطاعات للجند أن يتولى بنفسه استخدامهم، فإذا وقف قدامه من يطلب الإقطاع المحول، ووقع اختياره على واحد أمر كاتب الجيش بالكتابة له، فكتب ورقة مختصرة تسمى المثال، مضمونها خبز فلان كذا ثم يكتب فوقه رسم المستقر له ويناؤها السلطان، ويكتب عليها بخطه، ويعطيها الحاجب لمن رسم له، فيقبل الأرض ثم يعاد إلى ديوان الجيش، فتسك شاهدها عندهم، ثم تكتب مربعة مكملة بخطوط جميع الديوان الإقطاع، وهم ديوان الجيش وعلائمهم؛ ثم يؤخذ عليها خط السلطان، ثم تحمل إلى ديوان الإنشاء بالمكاتبات، فتكتب المناشير ثم يعلم السلطان

عليها علامة على ما تقدم ذكره، ثم يكمل ذلك المنشور بخطوط ديوان الإقطاع بعد المقابلة على صحة أصله.

فأما الاستخدام في البلاد النائية فليس للنواب مدخل في تأمير أمير عوض أمير مات، بل إذا مات أمير سواء كان كبيراً أو صغيراً، طولع السلطان بموته، فأمر من أراد عوضه، أما فمن في حضرته ويخرجه إلى مكان الخدمة أو فمن في مكان الخدمة أو نقل إليه من بلد آخر على ما يراه في ذلك. فأما جند الحلقة فإذا مات أحد منهم، استخدم النائب عوضه، فكتب على نحو من ترتيب السلطان المثال ثم المربعة، وتجهز المربعة مع البريد إلى حضرة السلطان، فيقابل عليها في ديوان الإقطاع، ثم يكتب عليها من ديوان الإنشاء كما تقدم في الجند الذين بالحضرة، وإن كان ما يمضيها السلطان، أخرجها لمن يرى، ثم يكون حكم الكتابة به حكم ما تقدم.

ومن مات من الأمراء والجند قبل استكمال مدة الخدمة حوسب وراثته على حكم الاستحقاق، ثم إما ترتجع منهم أو يطلق على قدر حصول العناية بهم. وإقطاعات الأمراء والجند منها ما هو بلاد يستغلها مقطوعاً كيف شاء، ومنها ما هو نقد على جهات يتناولها منها، فأما أرزاق ذوي الأقاليم من مبلغ يعين وغلة ولأعيانهم الرواتب الجارية في اليوم من اللحم بتوابله أو غير توابله والخبز والعليق، ولأكابرهم السكر والشمع والزيت والكسوة في كل سنة والأضحية. وفي رمضان السكر والحلوى وأكبر من هؤلاء كالوزير له في المدة مائتان وخمسون ديناراً حبشية، ومعه ما ذكر من الأصناف والغلة إذا تسطر ونمت كانت بنظيرها ثم ما دون ذلك وما دون دونه، ومن هو في الحضرة أمين في ذلك.

وأما القضاة والعلماء، فالقضاة أرزاقهم على السلطان وأكثرها خمسون ديناراً كل شهر، ولهم المدارس التي يستدر من أوقافها، وفي دمشق معالم حكامها على وقف بمصالح المسلمين مضاف إلى مال مسجدها الجامع. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وأما العلماء فليس لأحد منهم شيء إلا من أوقاف مدارسهم إلا من له على سبيل الراتب أو الإداري، وذلك قليل نادر لا حكم له، فنخرج على ذكره.

ولهذا السلطان صدقات جاريت ورواتب داره منها ما هو أرض من بلاد، ومنها ما هو مرتب على جهات من مبلغ وغلة وخبز ولحم وزيت وكسوة، واللحم والزيت والكسوة قليل نادر لمن حصلت له عناية، فأما الأرض والمبلغ والغلة والخبز فكثير جداً، ومتسع مرة، وفي الغالب يتوارثه الأبناء عن الآباء، والأخ عن الأخ وابن العم عن ابن العم حتى أن كثيراً ممن يموت، ويخرج أداره من مرتبه لأجنبي فيحضر القريب بعد ذلك، ويقدم قصته، يذكر فيها أوليته بما كان لقرية فيستعاد له.

وفي هذه المملكة قائمة شعائر الإسلام بالمساجد والخطبات في جميع القرى، وأما الأرزاق والإدارات فلا تؤخذ إلا بتواقيع السلطان ما قل منها وما جل. وهذه المملكة تشتمل على عدة من القلاع والحصون والمعازل وبكل منها نائب وحاكم شرعي وخطيب ومؤذن وكحال وجرائحي وحفظة ولحفظتها

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

جوامك لا إقطاعات وبها آلات التحصين وذوو أعمال وصناعات والحجارين
والنجارين والحدادين وما تدعو إليه الضرورة في مثل ذلك.
ذي ذوي العمائم المدورة
نبداً بالقضاة والعلماء، وزيهم دلق متسع بغير تفريج فتحة على كتفه، وشاش
كبير منه ذؤابة بين الكتفين طويلة، وأما من دون هؤلاء فالفرجية الطويلة الكم
بغير تفريج والذؤابة أيضاً، فأما زهادهم فيقصر الذؤابة ويميلها إلى الكتف
الأيسر على المسنون، ولا يلبس أحد منهم الحرير ولا ما فيه الحرير، ومنهم من
يلبس الطيلسان.
فأما قاضي القضاة الشافعي، فرسمه الطرحة، وبها يمتاز ويركب أعيان هذه
الطائفة البغلات بسروج غير مفضضة ويتخذ عوض الطمنيكات في السروج
عرقشينات وهي شبيه بثوب السرج، مختصر منها، وهو من جوخ، وقد يكون
من أنواع الأديم، ويشق ويعمل بين السرج ومِثْرته، وقضاتهم تعمل بدلاً من
الكنبوش الزناري وهو من الجوخ شبيه بالعباءة المجوبة الصدر مستدير من
وراء الكفل، لا يعلوه لا ذنب ولا قوش وربما ركبوا بالكنابيش وهؤلاء لجمهم
كبار ثقال الوزن.

وأما الوزراء والكتاب فزيهم الفرجيات المفرجة من الصوف ومن المحبرات
عمل الإسكندرية وغير ذلك، والنصافر والبياض، ويعمل أكابرهم البادهنجات في
الأكمام، ويلبس البغالطيق من تحت فراجيهم، وربما لبسوا الجباب المفرجة
من ورائها، ويختلف ركوبهم، وغالبه شبيه بالجند أو هقارب له، وتجمل هذه
الطوائف بمصر أقل مما هم عليه بالشام في زيهم وملبوسهم ومركوبهم، إلا ما
يحكى عن قبط مصر في بيوتهم من إتساع الأحوال والنفقات حتى أن الواحد
منهم يكون في ديوانه بارداً اللباس يأكل أدنى المأكّل، ويركب الحمار حتى إذا
صار في بيته، انتقل من حال إلى حال، وخرج من عدم إلى وجود.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ولقد يبالغ الناس فيما يحكى من ذلك عنهم، لبعد أحوالهم وتباين أمورهم فأما
التجار وأخلاط عامة الناس، فتختلف أحوالهم في الملابس والزي حتى أن
الفقراء وإن جمعهم زي الفقر وزيقه، وضمهم لباس التصوف، فإنهم تتباين
حالاتهم في الملابس وأطوارهم في التشكلات.
الكلام على أرباب الوظائف في هذه المملكة
نقول أن جميع الوظائف التي في حضرة السلطان لا تذكر منها إلا أعيانها، وأما
صغار الوظائف فجزء من كل، فلا حاجة بنا إلى ذكرها، وكل ما ذكره مما هو
في الحضرة نظيره في كل مدينة من قواعد مدن هذه المملكة، ويبقى الفرق
ما بينهما الفرق بين المكانين، فالوظائف الكبار فمن ذوي السيوف، إمرة
السلاح الدوادرية الحجوية، إمرة جاندار الاستاذ دارية هي المهندارية، نقابة
الجيوش، الولاة، ومن ذوي الأقلام؛ الوزارة، كتابة السر، نظر الجيش، نظر
الأموال، نظر الخزانة، نظر البيوت، نظر بيت المال، نظر الإصطبلات، ومن
ذوي العلم؛ القضاة، الخطباء، وكالة بيت المال، الحسبة.
ثم نقول: إن هذا السلطان أبطل النيابة والوزارة بحضرته، وكان هو الذي يفرق
الإقطاعات، ويعين الأمرة، وفي هذا القول كفاية.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وأما الوزارة فكان يليها من أرباب السيوف والأقلام على قدر ما ينفق، وكان الوزير ثاني النائب في المكانة، فأما الآن فإن السلطان بقى المفرد بما كان للسلطنة من العظمة والنيابة في التصرف. وأما الوزارة فإنه أبطلها واستخدم في أيام هذا السلطان وظيفة يسمى مباشرها نظر الخاص أصل موضعها أن يكون مباشرها متحدثاً فيما هو خاص بمال السلطان، ويتحدث في موضوع السلطان، وفي مجموع الأمر في الخاص بنفسه، وفي القيام بأخذ راية فيه، فبقى تحدثه فيه، وبسببه كأنه هو الوزير لقربه من السلطان، وزيادة تصرفه، ولنذكر وضع كل وظيفة مما ذكرنا. ذكر الوظائف

أما النيابة فقد تقدم قولنا أنه سلطان مختصر في ما هو ناءٍ عن الحضرة، وأن النائب هو المتصرف المطلق التصرف في كل أمر يراجع في الجيش والمال والخبر، وهو البريد وكل ذي وظيفة في نيابته، لا يتصرف إلا بأمره، ولا يفصل أمراً معضلاً إلا بمراجعته، وهو يستخدم الجند، ويرتب في الوظائف، وأما ما هو جليل منها كالوزارة والقضاء وكتابة السر والجيش، فإنه ربما عرض على السلطان من يصلح، وقل أن لا يجاب، وربما سمى أكابر هؤلاء النواب ملك الأمراء، وإن حصلت المناقشة لا يستحقها إلا من هو بدمشق لأنه ليس بالشام قاعدة الملك سواها.

وأما النيابة العظمى فهي نيابة الحضرة ويسمى هذا النائب، كافل الملك، وقد نهنا فيما تقدم على كبير محله، وهو السلطان الثاني، وجميع نواب الممالك تكاتبه في غالب ما يكاتب فيه السلطان، ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان، وهو يستخدم الجند من غير مشاورة، ويعين الإمرة، ولكنه بمشاورة السلطان وعادته أن يركب بالعسكر في أيام المواكب، وينزل الجميع في خدمته، فإذا مثل في حضرة السلطان وقف في ركن الإيوان، فإذا انقضت الخدمة مضى إلى داره والأمراء معه، ومد لهم السباط كما يمد السلطان، ويجلس جلوساً عاماً للناس، ويحضره أرباب الوظائف، ويقف قدامه الحجاب، وتقرأ عليه القصص، فيقدم إليه الشكاة، ثم يصرف الناس، ولما كانت النيابة قائمة على هذه الصورة، لم يكن السلطان يتصدى بنفسه لقراءة القصص عليه، وسماع الشكوى بل كان يكتفى بالنائب ثم أن النائب إذا قرئت عليه القصص فما كان يكفي فيها مرسومه، أصدره عنه، وما لم يكن فيه بد من صدور مرسوم سلطاني فيه أمر بكتابتة عن السلطان وإصداره، فيكتب وينبه فيما يكتب أنه بإشارته، ثم يصدر ما كان من الأمور المعضلة التي لا بد له من إحاطة علم السلطان بها، يُعلمه تارة منه إليه وقت اجتماعه به، وتارة يرسل من يعلمه بها ويأخذ أمره فيها.

وكان ديوان الأقطاع، وهو الجيش في زمان النيابة ليس لهم خدمة إلا عنده ولا اجتماع إلا به ولا اجتماع لهم بالسلطان في أمر من الأمور. وأما الوزير وكاتب السر فقد يراجعانه في بعض الأمور دون بعض، ثم اضمحلت النيابة بالحضرة وتقهقرت أوضاعها، وأما الآن فقد بطلت.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وأما الحجة فهي موضوعة لأن صاحبها ينصف من الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وتارة بمشاورة النائب إن كان، وإليه تقديم من يعرض، ومن يرد، وعروض الجند وما ناسب ذلك، وأما مع عدم النيابة فهو المشار إليه في الباب والقائم مقام النواب في كثير من الأمور، وأما إمرة جاندار فصاحبها كالمتسلم للباب، وله به البرد داريه وطوائف الركابية والحريسانية والجاندارية وهو يقدم البريد مع الدوادر، وكاتب السر على ما قدمنا ذكره.

وإذا أراد السلطان تقرير أحد أو قتله، كان على يد صاحب هذه الوظيفة، وهو المتسلم الزردخانه، التي هي أرفع قدراً في الإعتقالات من السجن المطلق، ولا تطول مدة المعتقل بها بل إما أن يعمل تخليه سبيله أو تلاف نفسه. وقد قدمنا القول أن صاحب هذه الوظيفة يدور بالزفة حول السلطان في سفره مساءً وصباحاً.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وأما الأستاذ دار فالإليه أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشرابخانة والحاشية والعلمان، وهو الذي يمشي بطلب السلطان والحكم في علمانه وباب داره وإليه أمور الجاشنكيريه وإن كان كبيرهم نظيره في الإمرة من ذوي المثين، وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى، وما يجري مجرى ذلك.

وإما إمرة سلاح فهو مقدم السلاح داريه، والمتولى لحمل سلاح السلطان في المجامع الجامعة، وهو المتحدث في السلاح خاناه، وما يستعمل لها، وما يقدم إليها، ويطلق منها وهو من أمراء المثين.

وأما الدوادرية فهم لتبليغ الرسائل عن السلطان، وإبلاغ عادة الأمور، وتقديم القصص إليه والمشاورة على من يحضر إلى الباب وتقديم البريد هو وأمير جاندار وكاتب السر كما تقدم، ويأخذ خط السلطان على عموم المناشير والتواقيع والكتب، وإذا خرج عن السلطان بمرسوم يكتب وتُعين رسالته.

وأما نقابة الجيوش فهذا كأحد الحجاب الصغار، وله تخلية الجند في عرضهم، ومعه يمشي النقباء، وإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميراً أو خدماً قالوا له أرسل إليه وأحضره، وإذا أمروا بالترسيم على أحد من هؤلاء أمروه فرسم عليه وهو بمن يطلب بالخزانة في الموكب وفي السفر. وأما الولاية فهم أصحاب الشرطة وطبقتهم معروفة معلومة وأما وظائف أرباب الأقلام فأجلها الوزارة لأن ربها ثاني السلطان إذا أنصف وعرف حقه، ولكن في هذه المدد حدث عليها النيابة، وتأخرت الوزارة حتى قعد بها مكانها، وقد تقدم قولنا على أنه وليها أناس من أرباب السيوف والأقلام بأرزاق على قدر الإنفاق، ووظيفة الوزارة أشهر من أن يذكر وضع مباشرها، لنفاذ كلمته، وتمايم تصرفه، ولكنها في أخريات هذه الأيام تتهقرت حتى كان المتحدث فيه كناظر المال، لا يتعدى الحديث في المال، ولا يتسع له في التصرف بمجال ولا تمتد يده في الولاية والعزل لتطلع السلطان إلى الإحاطة بجزئيات الأحوال، ثم أن السلطان أبطل هذه الوظيفة، وعطل جيد الدولة من عقودها وصار ما كان إلى الوزير منقسماً إلى ثلاثة؛ إلى ناظر المال إرشاد الدواوين أمر تحصيل المال، وصرف النفقات والكلف، وإلى ناظر الخاص تدبير جملة الأمور وتعيين المباشرين، وإلى كاتب السر التوقيع في دار العدل مما كان يوقع فيه الوزير

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

بمشاورة واستقلال ثم أن كلاً من المتحدثين الثلاثة لا يقدر على الاستقلال بأمر إلا بمراجعة السلطان، ومراجعته عليه. اسم الكتاب: مسالك الأبصار وأما كتابة السر فقراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها، وتسفيرها، وتصريف المراسم وروداً وصدرًا والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها، وقد صار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة على حسب ما يرسم له به السلطان.

وأما نظر الجيوش فقد تقدم في ذكر الإقطاعات وعند ذكر النيابة ما يدل على حال صاحب هذه الوظيفة مما فيه كفاية وهذا الناظر معه من المستوفين من محرر كليات المملكة وجزئياتها فرأسهم هو مستوفى الصحة، وهو يتحدث في جميع المملكة مصرًا وشاقًا، ويكتب مراسيم يعلم عليها السلطان تارة تكون بما يعمل في البلاد؛ بإطلاقات، وتارة باستخدامات كتاب في صغار الأعمال، ومن هذا، وما يجري مجراه، وهي وظيفة جلية تلي النظر. وأما بقية المستوفين فكل منهم حديثه مقيد لا مطلق، فإنه لا يتعدى حديثه قطراً من أقطار المملكة، وهذا الديوان هو أرفع ديوان الأموال، هو فرع هذا الديوان وإليه يُرفع حسابه وتتناهى أسبابه. وأما نظر الخزانة فكانت الخزانة أولاً كبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملكة، فلما استحدثت وظيفة الخاص ضعف أمر هذه المسماة بالخزانة، وصارت تسمى بالخزانة الكبرى، وهو اسم أزيد من مسماه، ولم يبق بها الآن إلا خلع تخلع منها، ولا يحضر عليها ويصرف أولاً فأولاً، وفي غالب ما يكون ناظرها من القضاة، أو ممن يلتحق بهم. وأما نظر البيوت فهو ناظر جليل، وهو منوط بالاستاذ داريه فكل ما يتحدث فيه استاذدار له فيه مشاركة الحديث، وقد تقدم تفصيل حال وظيفة استاذدار فيما تقدم. فأما نظر بيت المال فهي وظيفة جلية معتبرة وموضوعها حمل حمول المملكة إلى بيت المال، والمتصرف منه تارة بالميزان وتارة بالتسبيب بالأقلام، ولا يلي هذه الوظيفة إلا من ذوي العدالة المبرزة. وأما نظر الاصطبلات فهو ديوان جليل، مباشرته في اصطبل السلطان، وله الحديث في أنواع الاصطبلات والمناخات وعليقها وأرزاق المستخدمين فيها ومالها من الاستعمالات والإطلاقات، وكل ما يبتاع لها أو يبتاع بها. وأما وظائف ذوي العلم فقد تقدم القول أنها القضاة والخطابة ووكالة بيت المال والحسبة، وهذه وظائف معروفة ومباشرات أربابها معلومة لأنه لا يكاد تخلو مملكة من ممالك الإسلام فيها.

وفي هذه المملكة وما هو متعلق بها مجموع المساجد الثلاثة التي لا تشد الرجال إلا إليها، المسجد الحرام والبيت المقدس ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وأول ما تبدأ به ما هو محقق في هذه المملكة، ودخل في حدودها وهو القدس وبه المسجد الأقصى والصخرة التي هي أول القبليتين، وإليه كان إسراء

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

النبى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام كما قال الله عز وجل {سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله} وبجانبه الأيمن الطور وعليه كانت مخاطبة موسى عليه السلام وفيه وفيما حوله غالب مدافن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال التيفاشي في كتاب سرور النفس بمدارك الحواس الخمس وذكرت الرواة أن هذه الأرض التي بارك الله فيها وحولها أربعون ميلاً عرضاً في تدوير البيت المقدس، والبيت المقدس في وسطها، وكان اسمها في الزمن الأول إيليا، وقول الله تعالى يحقق أن بيت المقدس في وسط تربع الأرض المقدسة التي بارك الله تعالى فيها، والمسجد الأقصى في قبة السلسلة وكان مجلس داود عليه السلام.

وفيه أيضاً الموضع الذي عُرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء منه، وهو تحت قبة المعراج، وفيه موضع مصلى أيوب عليه السلام بالملائكة على قبة يقال لها قبة الملائكة، وفيه الصخرة التي كان يقرب عليها يوشع بن نون خلافة لموسى بن عمران وفيه محراب مريم، وفيه متعبد زكريا، وهو نفسه من بناء داود وسليمان عليهما السلام:

قلت: وفيه قبر إبراهيم الخليل على الصحيح داخل السور المحيط بالمكان المعروف به الآن بقربة إبراهيم المسماة الآن ببلدة الخليل، وإن لم يصح القبر المعين الآن بعينه وقد تضمن كتاب الله العزيز والأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم من فضائله ما فيه كفاية.

والصخرة قبله اليهود الآن وإلى القدس حجهم، وبالقدس القمامة التي يحجها النصارى من أقطار الأرض وأعماق البحر.

وإلى جانب القدس مدينة نابلس محسوبة من الأرض المقدسة، وداخله في حدودها وإلى طورها حج السامرة وهم طائفة من اليهود ينتمي أئمتها إلى بنوة هارون عليه السلام.

فالقدس الشريف معظم عند جميع المسلمين واليهود والنصارى، ومكان زيارة لهم أجمعين، وإنما اختلافهم في أماكن الزيارة منه، وما نبهنا على هذا إلا لما فيه من الفائدة لإطباق الجميع على تعظيمه وقصده بالزيارة.

وأما الحرمان الشريفان مكة والمدينة زادهما الله جلالة وتعظيماً، فهما من الحجاز ولم يزل أمراء المدينة الشريفة مترامين إلى صاحب مصر في غالب أوقاتهم، ومعظم أيامهم إلا القليل النادر، فإنه ربما عصى بعضهم، ومع هذا لا يترامى إلى سواه.

وأما أمراء مكة المعظمة فقد كان منهم من يُسير حُتُوّاً من ارتقاء يرضى صاحب مصر بأنه سامع له مطيع، ويقول لصاحب اليمن مثل ذلك، وكان أكثر ميلهم إلى صاحب اليمن حقيقة، هو أهم معه ثم تراموا إلى صاحب العراق لقوة سلطانه.

وما برح هذا السلطان يجلس منهم ويطلق ويقيم الواحد بعد الواحد، وبجهاز إليهم الجيش مرة بعد أخرى ليصفوا له كدرهم على علائهم، فأما الآن فقد حكم عليهم حكماً قاهراً حتى انقاد له صعيهم، ولانت له شكائهم على إباء فيها واعوجاج بها، وذلك لما مات أبو سعيد بهادر خان بن محمد خدابنده سلطان العراق وتشعبت بعده الأهواء، ولم يعد إلى بعد تأليف (كتابي هذا، أنهم يجمل)

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ولا صلحت لهم أمور وأمراء المدينة من بني الحسن بن علي رضي الله عنهما من أولاد جمار بن شичه.

وأمرأ مكة المعظمة من أولاد الحسن بن علي بن علي رضي الله عنهما من أولاد إدريس بن قتادة، وبكل منهما جماعة من الأشراف أقارب أمرائها، وهؤلاء أمرأ مكة والمدينة على طاعتهم وعصيانهم لا بد القائم منهم بالإمرة من ملاطفة صاحب مصر حتى يأخذ منه تقليداً بالإمرة، لخوفهم من قربه ومواصلة ركبائهم إليهم من مصر ودمشق، وقد ذكرنا هذا توفية بشرط هذا الكتاب، ولم تتعرض إلى ذكر فضائلهما كفى الحرمين عن ذلك، وفيهما البيت المحجوج المحجوب، وبني هذه الأمة وشفيعها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فحسبهما بمكان بيت الله ورسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم شرفاً، تتطامن له أعناق السماء، ويمسك بأطراف البسيطين الثرى والماء. ومما هو في حدود هذه المملكة مما له باسم سلطان حاكم وملك متصرف، حماة وهي مدينة بين حمص وحلب وهي لبقايا ملوك بني أيوب من أراد صاحب مصر ولاه ومن أراد عزله، ولقد كانت انتزعت منهم بعد موت المظفر شادي بن المنصور محمد بن المظفر، ووليت لنواب كبقية نواب هذه المملكة ثم أن هذا السلطان أعادها إلى البيت الأيوبي، وملك بها المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل بن المظفر ابن عم الذي انتزعت بعد موته ثم بعده ولده الأفضل محمد وهو القائم بها الآن، يستقل فيها بإعطاء الإمرة والإقطاعات وتولية القضاة والوزراء وكتابة السر وكل الوظائف، ويكتب المناشير والتواقيع من جهته، ولكن لا يمضي أمراً كبيراً في مثل إعطاء إمرة أو إعطاء وظيفة كبيرة، حتى يشاور صاحب مصر، وهو لا يجيبه إلا بأن الرأي ما يراه، وهذا ومثله. وهذه حماة مبنية على نهر العاصي، وهي من أحاسن مدن الشام. ومما يجب ذكره هنا ذكر بلاد سيس، وهي ما بين حلب والروم استولى عليها الأرمن من قديم، ومملكتها في بيت الأردن بن مليح الأرمني من مدة متقدمة.

وبلادها بعضها أغوار على ساحل البحر، وبعضها متعلقة بالجبال، وهي من العواصم، ومما يليها، وملكها مترام إلى صاحب العراق والعجم، وممتنظم في سلكه، وما خرج عسكره إلى الشام لقتال صاحب مصر إلا وخرج معهم، وكثر سواد عسكره، وبالغ في نكاية الإسلام وأهله، وهو مع هذا يدارى صاحب مصر ويداهنه ويحمل إليه ما لا في كل سنة، قطيعة مقررة، وفي كل وقت وحين تغزوه عساكر مصر والشام في عقر البيرة، وفتحت البلاد وسبى النساء والذراري في سنة تألفي فيها هذا الكتاب، وهي سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، جهز السلطان فرقة من العساكر إليها، فخاف صاحبها، وسلم جانباً من بلاده، مما يلي المملكة الإسلامية من نهر جيهان إلى ما لاصق البلاد، وصارت بحمد الله في يد الإسلام، وقبضة السلطان، وقرر عليه القطيعة على باقي بلاده. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ومن خصائص هذه المملكة معدن الزمرد وهو بالحد المتصل بأسوان له من جهة السلطان ديوان وشهود، وينفق على العمال به، وتقام لهم المؤن لحفره

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

واستخراج الزمرد منه، وهو في جبال هرمله، يحفر فيه، وربما سقط على الجماعة به فماتوا وتجمع ما يخرج منه، ويحمل إلى السلطان، ومنه يحمل إلى البلاد، ولقد رأيت منه قطعة وسطها أخضر، في نهاية الحسن، وأطرافه جميعه أبيض، ما بين وسطه وأطرافه بين اللونين، ثم كلما كان أقرب إلى الوسط كان أقرب إلى الخضرة، كان إلى الطرف، كان أميل إلى البياض إلى أن كان آخره أبيض الوسط، أنضجته الطبيعة نضجاً كاملاً والأطراف لم يكمل نضجها، فسيحان الله مبدع كل شيء.

وبها البلسان وهو شجر قصار بالمطرية حاضرة عين شمس بالقرب من القاهرة، وتسقى من بير هناك، (ولا يكون إلا في تلك البقعة، وهذه البير) تعظمها النصارى، وتقصدوها وتغتسل بمائها، وتستشفى بها على زعمها، ويخرج لاغتصار البلسان أو أن إدراكه من قبل السلطان، من يتولى ذلك ويحفظه، ويحمل إلى الخزانة ثم يحمل منه إلى قلاع الشام، والمارستانات لمعالجة المبرودين، وملوك النصارى من الجيوش والروم والفرنج بها دون السلطان بسببه، (وبستهونه منه) لأنهم لا يصح عندهم تنصر إلا بالغمس في ماء العمودية وعندهم أنه لا بد أن يكون في ماء العمودية من دهن البلسان، هكذا أخبرني جماعة من النصارى، وهو ظاهر التقديم في معالجة الفالج وارتقاء الأعصاب وسائر الأمراض.

وفيهما القرصفة والصنم السليمانى، والسبب من مكان يعرف بدار الغربية، قريب مصر، أنفع دواء للاستسقاء، ومنه الأفيون، وهو عصارة الخشخاش الأسود المصري، وكذلك الجوز المائل، وهو يطلع بدمياط، فأما ما يطلع بجبال القدس وبلاد فلسطين والأردن من الحشائش المنصوص عليها في كتب الأطباء فكثير جداً كالمرياقلوت ذات الألف ورقة التي هي من أجل الباذهرات النافعة من السموم القتالة، ولم نذكر هذا إلا على سبيل العرض وإلا فليس هو من المقصود.

ذكر عادة هذه المملكة في الخلع ومراتبها وهي ثلاثة أنواع؛ أرباب السيوف والأقلام والعلماء، فأما أرباب السيوف أكابر ذوي المئين منهم الأطلس الأحمر الرومي وتحتة سنجاب، وله سجع من ظاهره مع الغشاء قندس وكلوته زركش ذهب وكلايب ذهب وشاش لانس رفيع موصول به في طرفيه حرير أبيض مرقوم بألقاب السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملوف مع منطقة ذهب، ثم تختلف أحوال المنطقة بحسب مقاديرهم، وأغلاها أن يعمل بين عمدتها يواكر أوسط ومجنين مرصعة بالبلخش والزمرد، واللؤلؤ.

ثم ما كان بيكاربه واحدة مرصعة ثم ما كان بيكارية واحدة من غير ترصيع. فأما من تقلده ولاية كبيرة منهم، فإنه يزاد سيفاً محلى بالذهب وفرساً مسرجاً ملجماً بكنبوش مذهب.

وصاحب حماة خلعت من أعلى هذه الخلع، وبدل الشاش اللانس بشاش يعمل بالاسكندرية من الحرير شبيه بالطول، ويمرج بالذهب، ويعرف بالتمن،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ويعطى فرساناً، أحدهما كما ذكر والآخر يكون عوض كنبوشة زناري أطلس أحمر، وقد استقر لنائب الشام مثل هذا وأزيد بتركيبه مزركش ذهب دائرة بالقباء الفوقاني، ودون هذه المرتبة في الخلع نوع يسمى الطرد وحش يعمل بدار الطراز بالاسكندرية وبمصر وبدمشق، وهو مجوخ جاخات كتابه بالقباء السلطان.

وجاخات طرد وحش أو طير، وجاخات ألوان ممتزجة بقصب مذهب تفصل بين هذه الجاخات نقوش وطرار، هذا من القصب وربما كبر بعضهم فركب عليه طراز مزركش بالذهب، وعليه السنجاب والقندس كما تقدم، وتحت قباء من المفرج الاسكندراني الطرح وكلوته زركش كلاليب وشاش على ما تقدم، وحياسة ذهب تارة تكون بيكارية وتارة لا تكون بيكارية. وهذه لأصاغر أمراء المئين، ومن يلحق بهم ودون هذه الرتبة كنجى عليه نقش من لون آخر غير لونه، وقد يكون من نوع لونه، يتفاوت بينهما بسنجاب مقدس والقباء كما قدمنا ذكره، إلا أن الحياصة والشاش لا يكونان بأطراف رقم بل تكون مجوخة بأخضر وأصفر مذهب، لا يكون بيكارية ودون هذه الرتبة كنجى بلون واحد بسنجاب مقدس والبقية على ما ذكر، وتكون الكلوة خفيفة الذهب، وجانبها يكاد أن يكونان خاليين بالجملة، ولا حياصة له ودون هذه الرتبة لا محرم لون واحد، والبقية على ما ذكر خلا الكلوته والكلاليب ودون هذه الرتبة محرم وقندس تحته قباء ملون بجاخات من أحمر وأخضر وأزرق أو غير ذلك من الألوان وسنجاب وقندس، وتحت قباؤها إما أزرق أو أخضر أو شاش أبيض بأطراف من نسبة ما تقدم ذكره، ثم ما دون هذا النوع ولا بد من تنقيص ما.

وأما الوزراء والكتاب فأجل خلعهم كنجى أبيض مطرز برقم حرير ساذج وسنجاب وقندس ويبطن القندس بالسنجاب، وتملأ الأكمام به، وتحت كنجى أخضر وبقيار كتان من عمل دمياط مرقوم وطرحة، ثم دون هذه الرتبة عدم تبطين القندس بالسنجاب وأخلى الأكمام منه، ودونها ترك الطرحة، ودونها أن يكون التحتاني محرماً، ودون هذا أن يكون الفوقاني من نوع الكنجي، لكنه غير أبيض ثم تحته عنابي طرح أو ما يجرى مجراه، ثم ما دون ذلك كما قدمنا في خلع أرباب السيوف.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وأما القضاة والعلماء فخلعهم من الصوف بغير طراز، ولهم الطرحة، وأجله أن يكون أبيض وتحت أخضر ثم ما دون ذلك على نحو ما قدمنا. وأما أهية الخطباء فإنها من السواد للشعار العباسي وهو دلق مدور كما قدمنا وصفه في ذكر زي العلماء وشاش أسود وطرحة سوداء، وينصب على المنبر علما أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب؛ ويخرج المبلغ من المؤذنين قدام الخطيب، وعليه سواد مثل الخطيب، خلا الطرحة، وفي يده السيف، فإذا صعد الخطيب المنبر أخذ منه السيف فإذا رقى المنبر وسلم، أذن لابس السواد تحت درج المنبر، وتبعه المؤذنون، ثم ذكر الحديث الوارد؛ (إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب أمضت فقد لغوت) ثم يبلغ عنه الصلاة والرضا والدعاء للخليفة والسلطان هو ثم المؤذنون ثم إذا انحط إلى الصلاة أخذ السيف من يده، وهذه الأهية تصرف من الخزانة، ثم تكون في حواصل الجوامع، لتلبس في ساعات الجمع، فإذا خلقت أعيدت الخلقة في الخزانة، وصرف لهم

قد تقدم ذكرنا لهيئة السلطان في ركوبه أيام الأعياد وبقي ما لا بد من ذكره هنا، وهو أنه إذا ركب من باب قصره بقلعة الجبل، ونزل إلى منفذه من الإصطبل إلى ميدان العبيد الملاصق له، ينزل به في دهليز قد ضرب له على أكمل ما يكون من الأبهة، فيصلى، ويسمع الخطبة، ثم يركب ويعود إلى الإيوان الكبير المقدم. ذكره، ويمد به السماط، ويخلع على حامل الجنز والسلاح واستاذدار، والجاشنكير، وكثير من أرباب الذين لهم خدمة في مهم العيد كنواب استاذدار وصغار الجاشنكيرية ونقيب النقباء وناظر البيوت، ومثل هؤلاء. ومن عادة هؤلاء أن يعد له كل عيد خلعه على أنها لملبوسه من نسبة خلع أكابر المئين، فما يلبسها هو ولكن يخص بها من بعض أكابر أمراء المئين، يخلعها عليه.

ولصاحب مصر في مثل هذه اليد الطولى حتى بقي بابه سوقاً ينفق فيه كل مجلوب، ويحضر إليه الناس من كل قطر حتى كاد هذا ينهك المملكة، ويؤدي بمتحصلاتها عن آخرها، وغالب هذا ربما قدره هذا السلطان، ولقد يتعب من يجيء بعده بكثرة هذا الإحسان. ولهذا السلطان عادات جميلة كلها من الخلع في أوقات لعبه بالكرة على أناس جرت لهم عنده عوائد بالخلع في ذلك الوقت كالجوكندار والولاه، ومن يجري مجراهم ممن له خدمة في ذلك عادة مما ينعم به ويطلقه وإذا حصل لواحد شيئاً مما يُصيده في صيوده، خلع عليه، وأما إذا خرج إلى صيد الوحش وصادوا الغزلان والنعام فكل من أحضر له صيداً، خلع عليه قباًءً مستجباً بما يناسب خلعه مثله للكبير كبير وللصغير صغير كل واحد على قدره.

وكذلك اليزداريه وحملة الجوارح ومن يجري مجراهم عند كل صيد انعامات ينعم بها عليهم، ولغلمانهم في الطاشتخاناه والشرنجانات والفراشخانات، ومن يجري مجراهم، عوائد في كل سنة زمان الصيد، كل هذه العوائد جارية لا تنقطع، ولكل من يتصل بخدمة هذا السلطان بمن يرد عليه أو بها جر من مملكة أخرى أنواع الإدارات والأرزاق والإنعام، وغايات لا يبلغها قرارته في بلاده، ولا يزين بظله.

وكذلك التجار الذين يصلون إليه ويبيعون عليه، لهم عليه الرواتب الدائمة من الخبز واللحم والتوابل والحلوى والعليق والمسامحات ينظير كل ما يباع عليه من الرقيق المماليك والجواري مع ما يسامحهم به أيضاً من حقوق تطلق أخرى.

وكل هؤلاء إذا باعوا عليه ولو رأساً واحداً من الرقيق لهم خلع مكملة، لكل واحد بحسبه خارجاً من الثمن، وعما ينعم به على بعضهم أو يستقر به من مال السلطان على سبيل القرض، ليتاجر به.

فأما جلابة الخيل من عرب الحجاز والشام والبحرين وبرقة وبلاد العرب فإن لهم من ذلك الحظ الوافر والنصيب الراجح، وربما أعطى عن الفرس نظير

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ثمناها عشر مرات وأكثر، غير الخلع والرواتب والعلوفات والإنزال ورسوم المقامات خارجة عن تميم الخيول ومسامحات تكتب لهم بالمقررات عن تجارات يتجرون بها، مما أخذوه من أثمان الخيول.

(قلت: وبجنده المملكة جميع قبل الملل، أما القبلية الإسلامية فهو بيت مكة المعظمة، وهو بها كما تقدم، وأما اليهود فقبلتهم البيت المقدس وقد كان القبلية الأولى في الملة الإسلامية، وهو بها، وأما الساجرة وهم فرع من اليهود فقبلتهم طور نابلس وهو بها عندهم أنه طور سيناء، وأما النصارى فلا قبلية لهم وتوجههم إلى الشرق لا لقبلية، وجميع معابدهم التي يعظمونها بها مثل قمامة وهي بالقدس، وإليها حجهم، من أقطار الأرض يأتون إليها من البراري والبحار، وبيت لحم به مولد عيسى المسيح عليه السلام وكنيسة صيدنايا ببردمشق، وكنيسة صور، ومن ملوكهم من لا يصح تملكه حتى يصلى عليه فيها، وكنيسة ماري حنا بالاسكندرية وهي معتقد اليعاقبة منهم، وبها بطريرك القبط، وملوك الحبشة لعظم هذا البطريرك، وتشير إليه بالتعظيم، وإذا جاءهم كتابه، عملوا به، لا خروج لهم عنه، ولا مندوحة لهم عند حكمه، وهو يولى عليهم مطراناً بعد مطران، كلما مات واحد بعث غيره، نائباً له فيهم، وذلك المطران يقوم بالحبشة مقام البطريرك في الأمر والنهي فيهم، وانقيادهم أجمعين إلى طاعته من غير مخالفة له ولا عليه في شيء.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

حدثني من أثق به أن بعض التجار بمصر جهز مالاً له مع مسفر به إلى الحبشة، فمات المسفر وبئس صاحب المال من ماله، وكان مالاً كثيراً، ففعل صبره، وشكا إلى السلطنة بمصر حاله، ففعل للبطريرك، فكتب كتاباً إلى ملك الحبشة، يأمره بإعادة مال الرجل إليه ثم أن صاحب المال سفر رجلاً أعهد عليه فما طال به المكث أتى بجوابه بالامتنال، وأحضر معه جميع المال بعينه أصله وريحه.

وحكى عن تعظيم الحبشة لكتاب البطريرك أنه منذ دخل حدود بلاده وحدودهم، وعلموا بالكتاب، تلقاه عمال الأطراف بها ورفعوا الكتاب على رمح وحملوه هو ومحضره ومن حضر معه على أرفه الدواب، ورتبوا له الإنزال والإقامات (المطوط ص 532) يوصله أهل كل عمل إلى الآخر على هذه الصورة حتى انتهى إلى حضرة الملك، فبالغ في إكرامه وإنزاله، وإضافته. فلما كان يوم الأحد أخذ منه الكتاب وقرأه المطران في الكنيسة على الملك، وهو واقف مكشوف الرأس إلى أن فرغ ثم أمر بإحضار المال وتسليمه إليه، ولم يخرج منه مكانه حتى أوصل إليه المال ثم وصله بصلة جيدة، وإفادة مكرمة والإنزال جار عليه من عمل إلى عمل إلى أن خرج من حدوده. قلت: ولهذا جميع ملوك النصرانية الملكية واليعاقبة تهادى صاحب مصر، وتراسله لاحتياجها لتمكين المترددين من عندهم من زيارة قمامة، وبقية مزاراتهم، واليعاقبة أكثر حاجاتهم إليه لمقام بطريركهم عنده، فإنهم لا باب لهم بخلاف الملكية فإن لأولئك الباب وهو يروميه. قلت: والباب هو طاغيتهم العظمى عندهم أن الحلال ما حلل والحرام ما حرم،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

ولا لأحد عندهم مندوحة أن يتأخر عن أمره أو يتقدم.
فصل

ومن شيعة هذا السلطان طائفة تعرف بالإسماعيلية مساكنهم في مصيف، وما معها من قلاع الدعوة على مسافة مابين حمص وحماة، متصلة بالبحر الرومي إلى جانب طرابلس الشام، وهؤلاء هم الذين يسمون في بلاد العجم تارة بالباطنية وتارة بالملاحدة، وملخص معتقدتهم التناسخ، وهم يسمون أصحاب الدعوة الهادية، وهم شيعة الخلفاء الذين كانوا بمصر وتسموا بالفاطميين، وكان قد انتهت رئاسة هذه الطائفة إلى راشد الدين سنان، وكان صاحب سماء، أراهم بها ما أضل به عقولهم من تخيل أشخاص، فمن مات على طاعة أئمتهم في جنات ونعيم، وأشخاص فمن مات على عصيان أئمتهم في النار والجحيم، وهم يعتقدون أن كل من ملك مصر كان مظهراً لهم، فلهذا تتوالاه هذه الطائفة، وترى ائتلاف نفوسها في طاعته لما ينتقل إليه من النعيم الأكبر.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ولصاحب مصر بتشيع هؤلاء مزية يخافه بها أعداؤه لأنه يرسل من هؤلاء إليه من يقتله، ولا يبالي أن يقتل معه، ومن بعثه صاحب مصر إل عدو له ليقتله فجين قتله أهله إذا عاد، وإن هرب اتبعوه وقتلوه.

ولقد سألت المقدم عليهم والمشار إليه فيهم وهو مبارك بن علوان عن معتقدهم، وجاذبته في هذا الحديث مرات، فظهر لي أن هذه الطائفة ترى أن الأرواح مسجونة في هذه الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المظهر على زعمهم، فإذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت وانتقلت للأنوار العلوية، وإن انتقلت على العصيان هوت في الظلمات السفلية وعقيدتهم أن علياً رضي الله عنه، كان المظهر ثم الانتقال منه، وليس هذا بمكان التطويل فيه.

وأكابر المدن المشورة بهذه المملكة قاعدة الملك الكبرى وهي القاهرة، وقد تقدم القول على أنها هي والقلعة والفسطاط ثلاث مدن صارت مدينة واحدة، وقوص والاسكندرية ودمياط، ودمشق وهي قاعدة الملك الثانية ثم بعلبك ثم حمص ثم حماه ثم حلب ثم طرابلس ثم صفد والقدس والكرك وغزة.

وتقدم القول على قلة والمدينة المعظمتين، وكيف دخولهما في المملكة على ما بيننا هناك.

أما قلعة الجبل فهي على نشز عالٍ يسمى الجبل الأحمر من تقاطيع جبل المقطم بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله، ولم يسكنها حتى ملك أخوه العادل أبو بكر فسكنها، وهي مبنية على ذلك النشز، ترتفع في موضع منه وتنخفض في آخر، يدور بها سور حجر بأبراج وبدنات إلى أن ينتهي إلى القصر الأبلق الناصري المستجد بناؤه، ثم من هناك تتصل بدور الملك، ليست على أوضاع أبراج القلاع، يدخل إلى القلعة من بابين أحدهما بابها الأعظم مواجه القاهرة، والثاني ينفذ إلى القرافة، وبينهما ساحة فسيحة في جانبيها قلة بشرق، وشمالاً بغرب بيوت وبالقلى سوق للمأكّل، وينتهي من صدر الساحة إلى دركاه جليلة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

لهم بالدخول، وفي وسطها باب القلعة يدخل منه في دهاليز فسيحة إلى ديار وبيوت ومساكن وإلى المسجد الجامع، وقد كان لا مسجد لضيق بنائه، فبناه هذا السلطان بناءً متسع الأرجاء، متسع البناء، مفروش الأرض بالرخام، مبطن السقوف بالذهب، وفي وسطه قبة عليّة تليها المقصورة مستورة هي والرواقات بالشبابيك الحديد المحكمة الصنعة، ويحف صحنه رواقات من جهاته، ويمشي من دهليز باب القلعة المقدم ذكره في مدخل أبواب إلى رحبة فسيحة في صدرها الإيوان الكبير، المعد لجلوس أيام المواكب، وإقامة دار العدل، وبجانب الرحبة ديار جليّة، وفي محنته ممر إلى باب القصر الأبلق تليه رحبة صغيرة، يجلس هناك خواص الأمراء قبل دخولهم إلى الخدمة الدائمة، ويمشي من باب القصر في دهاليز إلى قصر عظيم البناء شاهق في الهواء بإيوانين أعظمهما الشمالي بطل منه على الاصطبلات السلطانية ويمتد النظر إلى سوق الخيل والقاهرة وحواضرها إلى بحر النيل وما يليها من بلاد الجيزة وقرائها.

وفي الإيوان الثاني القبلي باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الإيوان الكبير إلى أيام المواكب، ويدخل من هذا القصر إلى ثلثة قصور جوانية منها واحد مسامت الأرض هذا القصر الكبير، وإثنان مرفوعان يصعد إليهما بدرج في جميعها شبابيك حديد تخترق إلى مثل منظر القصر الكبير، وفي هذه القصور مجاري الماء مرفوعاً من النيل بدواليب تديرها الأبقار من مقره إلى أخرى حتى ينتهي إلى القلعة ثم يدخل إلى القصور السلطانية ودور أكابر الأمراء الخواص المجاورين للسلطان يجري في دورهم، وتدور به حماماتهم وهو من عجائب الأعمال لرفقته مما يقارب خمسمائة ذراع من مكان إلى مكان، ويدخل من القصور الجوانية إلى حرم الحريم وأبواب الستور السلطانية. وهذه القصور جميعها من ظاهرها بالحجر الأسود والأصفر، مؤزرة من داخلها بالرخام والفص المذهب والمشجر بالصدف والعجون والطرقات وأنواع الملونات والسقوف المبطن بالذهب واللازورد يخرق الضوء في جدرانها بطاقات من الزجاج القبرس الملون كقطع الجواهر المؤلفة في العقود، وجميع الأرض بها مفروشة بالرخام المنقول إليها من أقطار الأرض مما لا يوجد مثله، فأما الأدر السلطانية مغلى ما صح عندي خبرة ذوات بساتين وأشجار وساحات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور والدواجن وباقي داخلها يعني القلعة للمالك السلطانية وخواص الأمراء بنسائهم وحرمتهم ومماليكهم ودواوينهم وطبشت خاناتهم وفراش خاناتهم وشراب خاناتهم ومطابخهم ووظائفهم.

والقلعة بها مساكن لأكابر الأمراء ومن كبر من الطبلخانات والعشرات، ومن خرج عن حكم الخاكيه إلى طبقة البرانيين، ودار الوزارة ودار كاتب السر وديوان الإنشاء وديوان الجيوش وديوان الأموال والنقباء والزردخانه والحبوس والأسرى وما يجري في هذا المجرى، مقسمة المساكن، فيها المساجد والحوانيت والأسواق في جهاتها، هذه جملة العمارة.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

ثم نذكر بقية ما يتعلق بالقصر السلطانية فنقول: أنه ينزل منه في جانب إيوان القصر إلى الإصطبلات السلطانية ثم إلى ميدان ممرج بالنجيل الأخضر فاصل بين الإصطبلات وبين سوق الخيل، في غربيه، فسيح المدى يسافر النظر في أرجائه، يركب السلطان من درج يلي قصره الجواني وينزل إلى الإصطبل الخاص ثم إليه راكباً وخواص الأمراء في خدمته لعرض الخيول في أوقات طعم الطير، وربما وقف به راكباً، وربما نزل فيه، ولم ينصب عليه خيام وربما نصب عليه الخيام إذا طال مكثه، وكان زمان حر أو برد، وربما مد به السماط ثم يطلع راكباً إلى قصره.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وبهذا الميدان أنواع من الوحش المستحسن النظر، وتربى به خواص الخيول للتفسيح، وفي هذا الميدان يصلى السلطان وخواصه ومن لا يقدر يفارقه من ذوي الخدم، صلاة العيدين، ونزوله إليه وطلوعه، منه من باب خاص من دهليز القصر غير هذا المعتاد النزول منه لما قدمنا ذكره، وللسلطان عدة أبواب سر إلى القرافة وإلى غيرها، لا حاجة لنا إلى ذكرها.

قلت: هذه القصور والأبواب الكبيرة، والميدان الأخضر، والجامع، وغالب العمائر الضخمة بالقلعة، والقلعة عمارة هذا السلطان، وبنائه مطرزة الطرز فيها بألقابه واسمه، ترد الطرف قليلاً بأنوارها، وترف القلوب على ما تفتح من نقوش نوارها، تقر الملوك بها، لعلو هممه وسعة إنفاقه وكرمه، تقف عليها الأبصار ويعرف من رآها أنه هان عليه العدو والدينار.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

القاهرة

مدينة عظيمة مبنية في وطأة نائية عن ذروة الجبل، أرضها سباخ، ولأجل هذا يعجل إلى مبانيها الفساد.

والفسطاط المسمى الآن على ألسنة العامة بمصر مدينة مبنية على ضفة النيل الشرقية، وقد بُنى قبالتها في الجزيرة المبنى بها المقاييس، أبنية كثيرة، صارت كأنها فرقة من مصر، ومجرى النيل بينهما لمنظره بينهما عند امتداد ضوء القمر، أو إيقاد السرج بالليل، منظر يجذب القلوب وكل من مصر والقاهرة وحواضرها الممتدة ذات رباع عليه مبلغ بعضها أربع طبقات، في كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومترفها، وسطح مقتطع لها من الأعلى بهندسة محكمة وصناعة عجيبة مع كَوْن البيوت بعضها تحت بعض، لا يرى مثل صناع مصر في هذا الباب، وفي كل من هاتين المدينتين وحواضرهما، القصور الشاهقة والديار العظيمة والمنازل الرحبة، والأسواق الممتدة، والمدارس والخوانق، والربط والزوايا، والجميع على اتساع رقعة البناء، وفسحة الشوارع مزدحمة بالخلق سكناً وممشى، قد حشرت إليها الأمم، واختلفت إليها أنواع الطوائف.

وقال لي غير واحد ممن رأى المدن الكبار، والخطط العظام في مشارق الأرض ومغاربها، وبعيدها ومتقاربها: أنه ما رأى مدينة اجتمع فيها من الناس ما اجتمع في مصر والقاهرة وحواضرهما قال لي الصدر مجد الدين اسماعيل السلامي، وقد سألته عن بغداد وتوريز، وهل يجمعان مثل مصر؛ فقال: في مصر خلق قدر كل من هو في جميع البلاد منها إلى توريز وغالب من فيها من العوام والباعة وأهل المهن والصنائع.

كما قال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني رحمه الله: أهل مصر على كثرة عددهم، وما ينسب من وفور المال إلى بلدهم، مساكين يعملون في البحر، ومجاهيد يدانون في البر، وأحملة على أنه قصد السجعة، إذ كل بلد فيها مجاهد في أعمالهم، وما زال هذا في خاطري لا زيادة عندي عليه إلى أن أقمت بمصر، وسافرت في صحبة السلطان، غالب بلادها فرأيت خلقاً ممن عليهم أرض مسجلة، قد ركب المنخفض فيها، ولم يركب العالي وهم وقوف كل اثنين على مستنقع ماء، وبأيديهما قفة بخيط في أذنيها، وهما يترفان الماء بها، ضرباً باليد إلى ورأيهما من مقرة محفورة، يجتمع ما ينزح منها، ثم يصرف في مجاري إلى تلك الأعالي، ثم التي لم يركبها الماء ليسقوها، وهم من هذا في جهد جهيد، وأمر شديد، فعلمت أن هؤلاء الذين أراد القاضي الفاضل رحمه الله مجاهد يعملون في البر، فإنه ليس في البلاد أشد جهداً منهم وأنهم ملزمون بدرهم معين، وأردب معين، فإن لم يعملوا هذا أضنكم الطلب، ولم يجدوا جهة الوفاء.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وأما بر الديار المصرية فإنه ريف ممتد بين حاجزين، وأعقبه رمل مفصل بالقرى، وهي مبنية بالطوب، سود الطواهر يحف بها نخل، وتقل في بعض وتكثر في الأخرى، كلها على أنموذج واحد، من رأى واحدة منها فكأنما رآها كلها.

وقوص مدينة على شرقي النيل في أعلى الصعيد، واقعة في الثاني ذات ديار جليلة وفنادق ورباع وحمامات ومدارس، يسكنها جلة من التجار والعلماء وذوي الأموال، وهي أول محط ركاب تجار الهند والحبشة واليمن والحجاز، الواصلون في البحر الملح من صحراء عيزاب، وبها المكاسب ولها البساتين والحدائق ومنابت البقول والخضروات، لكنها شديدة الحر كثيرة العقارب والسام أبرص، وبها صنف من العقارب القتالات حتى أنه يقال فيها عن الملسوع أكلته العقرب، لأنه لا يرجى له إقامة.

قال لي عز الدين حسن بن أبي المجد الصفدي أحد العدول بالقاهرة: أنه عد في يوم صيف على حائط الجامع سبعين سام أبرص على صف واحد، والمستفاض أن أهل قوص إذا تمشى أحد منهم في مكان أو خرج إلى بيته أو منه يأخذ بيده الواحدة مسرعة وفي الأرض مشك يشك به العقارب. وفي الصعيد بقايا سحر قديم يحكى عنه أشياء، أصح ما سمعت منها ما حكى لي من أثق به عن طغصبا والي قوص؛

قال: أمسكت امرأة ساحرة فقلت لها: أريد أن أبصر شيئاً من سحرك؟ فقالت: أجود عملي أني أسحر العقرب. فقلت لها تسحري العقرب؟ قالت أسحره على اسم شخص مخصوص فلا تزال ذلك العقرب تتبع ذلك الشخص حتى يلسعه فيقتله.

فقلت: أريني هذا وأسحري العقرب على اسمي، فأخذت عقرباً وسحرته وأرسلته فبقيت كلما انحى عنه وهو يتبعني، فجلست على تحت منصوب في بركة ماء، فجاءت العقرب إلى البركة وصارت تحاول طلوعها إلي ولا تقدر على اقتحام الماء فذهبت إلى الجدار فصعدت فيه وأنا أنظرها حتى ترقب إلى

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

السقف وجاءت إلى ساحة مكاني ثم رمت بنفسها إلى أن نزلت إلى الأرض وقصدت مكاني، فضربت بها بعصى في يدي فقتلتها ثم أمسكت تلك الساحرة فقتلتها لما رأيت من سحرها العظيم.

ويحكى كثير من هذا، ليس هذا موضع ذكره، ثم من قوص إلى أسوان ومن أسوان المؤجل إلى بلاد النوبة ومن أسوان شعبة إلى الصحراء إلى عترباب على ساحل البحر، يجاز منه على جُده ميناء مكة المعظمة ومن هذا البحر مسالك للتجار إلى عدن، ثم إلى ما أرادوا من الهند واليمن والحبشة ولم نذكر قوص دون ما سواها من الصعيد إلا لأنها هي مدينتها الحاضرة وبها يحط مصعداً ومنحدراً زمر الرفاق المسافرين.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
الاسكندرية

والاسكندرية مدينة قديمة جليلة عظيمة وكانت في القديم أكبر مما هي الآن وأعظم في كثرة الأهل والبنيان، بناها الاسكندر ذو القرنين على شاطئ البحر الرومي، وكان بها على ما يقال سرير ملكه ومستقر أمة وجميع بنايتها بالحجر والكلس، مبيضة البيوت باطناً وظاهراً، كأنها الحمامة البيضاء، ذات شوارع مشرعة الأرجاء، كل خط بذاته كأنها رقعة الشطرنج، يستدير بها أسوار ممنة، وبروج محصنة، عليها الستائر المسترة، والمجانيق المنصوبة، وبها عسكر مستخدم لحفظها، وليس بالديار المصرية مدينة حاكمها مرسوم بناية السلطنة سوى الإسكندرية.

لا يزال أهلها على يقظة من أمور البحر، ومخالسة العدو، وبها الديار الجليلة، والجوامع والمساجد، والربط والخوانق، والمشاهد والفنادق، والرباع والأسواق الممتدة، ومعامل البز والقماش والطرز الفائق المثل، إليها تهوى ركاب التجار براً وبحراً من كل فج عميق ومكان سحيق، وليس في الدنيا نظير شربها، وطرازها المعمول بها والمحمول إلى أقطار الأرض شرقاً وغرباً، منها من الحفير المنسوج بالذهب والفضة، والمقصب بالقصب، وطرده الوحش المنوع، والجر والمنقوش، والمنزج والمدفون والديقي والمساذج، والمفرح والمقاطع، والممرش والشرب الخام والمقصور وبدلات المقانع وأنواع المقصبات والملون بالذهب والفضة والملاءات والغوط من كل ما لا شبه لرقمه ولا نظير لحسنه، يباع في كل يوم فيها بآلاف مؤلفة من الذهب الأحمر، ولا ينفذ متاعها، ولا يقل موجودها وبالإسكندرية معاملة الدرهم السوداء حقيقة مقصوراً عليها لا يخرج من سواها ولا يتعدى حاضرة أسوارها، وهو فيها كل درهمين سوداوين بدرهم واحد من نقد الدرهم المصري، يوجد بها الدراهم السود حقيقة اسم على مسمى.

وأما من بقية الديار المصرية فكما قدمنا يوجد اسماً لا مسمى كل ثلاثة دراهم سوداً بدرهم واحد من الدراهم المصرية.

والاسكندرية هي فرصة الغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم وإليها ترد سوافنها، وتجلب بضائعها، ومنها تخرج أغراضها.

فأما دمياط فهي وإن كانت رسيالتها في هذا الباب، فإنه لا تشبه لها إلى

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

الاسكندرية، وسيأتي ذكرها، والاسكندرية لها بحر خليج من النيل تصل فيه المراكب من مصر إليها، ومنها إلى مصر، وفي أوان زيادة النيل يمتلئ هذا الخليج، ويمد إلى صهاريج «داخل» المدينة معدة لإختزان الماء بها لشرب أهلها، نافذة من بعض الدور إلى بعض يمكن النازل إلى صهريج منها الصعود من أي دار اختار، وتحت الصهاريج الآبار النبع بالماء المملوح، فهي طبقات ثلاثة، طبقة الآبار عليها طبقة الصهاريج عليها طبقة البناء ولا يعتني أهل الاسكندرية ببناء الطبقات على أعالي أبينتهم لقوة الأمطار بها، وتجويف قرارها. اسم الكتاب: مسالك الأبصار وعلى الاسكندرية البساتين الأنيقة والغيطان القساح وفيها لجة أهلها القصور الناهدة والجواسق الشاهقة، محصنة جميعها بأحكام البناء، وعلو الجدر خشية من طرّاق الفرنج ودغّار العرب. وبها من الفواكه المنتجة الثمار وهي تفوق (المخطوط 442) مصر بحسن ثمراتها، ورخص الفواكه بها، وليس للاسكندرية من إزدراع القمح والشعير والحبوب إلا ما قل، وغالب أقواتها محمول من أرياف مصر. تنبيه: قد ذكرنا فيما تقدم أن الاسكندر هو الذي بنى الاسكندرية وذلك صحيح بمعنى أنه جددها وجدد بنائها، وأما سبب بنائها القديم فقد ذكره التيفاشي في كتاب سرور النفس بمدارس الحواس الخمس.

قال: ذكر أحمد بن مطرف في كتاب الترتيب أن الذي بنى الاسكندرية أول أمرها جبير المؤتفكي، وأن الذي دعاه إلى بنائها أنه غزا بعض النساء اللواتي ملكن مصر، وكان اسمها حوريا بنت البرت، وأنه لما طال بينهما الحرب، انفذت إليه، نقول: أني قد رغبت في أن تتزوجني فيصير ملكنا واحداً، ودارنا واحدة، وأصير أنا ومملكتي لك، وذلك خير لك من أن تقيم على الحرب، فينفذ مالك، وتنفى رجالك، فإن ظفرت بي لم يحصل لك طائل، لأن الهزائم تذهب الأموال وتمحقها وإن أنت خذلت ذهبت وذهب جميع مالك، فأعجبه جميع مقالها وأجابها وعقد النكاح على ما كانوا يعتقدونه، والتمس الدخول بها، فقالت: إنه يفتح بي وبك أن نجتمع في غير مدينة تبنيها لهذا الأمر في أحسن موضع، وأجل مكان بحيث لم يكن فيه بناء قط غير ما تبنيه، وإنما كان ذلك منها مكرأ به لتنقذ أمواله وتبلغ منه ما تريد في لطف ومودعة، فأجابها وأنفذ المهندسين إليها، وخبرها المواضع، فاخترت موضع الاسكندرية، وقسمت المدينة وصورها المهندسون، ثم عرفته ذلك، فأجاب إلى كل ما طلبت، وسار بجيشه فنزل على ذلك الموضع، وشرع في البناء، فكان كلما بنى بناءً خرجت دواب البحر وعشت به، وهدمته، فأقام زماناً، ونفذت الأموال، وضاق ذرعاً فوفق له أن دل على بعض السحرة، فأحضره وشكا إليه ذلك الأمر، فوضع له طلسمات، وجعلها في أنية زجاج كالتواييت فكانت في الماء حذاء (المخطوط 542) الأبنية، فإذا جاءت دواب البحر فرأت الطلسمات والتوييت نفرت فثبت البناء، وبنيت المدينة، وتمت بعد زمان طويل، ثم راسلها في المسير، فسارت بجميع قللها وعساكرها حتى نزلت حذاء، عسكره، وراسلته أني قد أحببت أني أحمل عنك مؤنة الإنفاق على العسكرين في أطعمة تصلح وأشرية، وقد أعددت لوجود الأمراء والقواد خلعاً وتحفاً حملاً عنك لما كرمك في بناء المدينة، فأحب أن تحييني إلى ذلك، فأجابها، وأمرت بذلك، فعمل وأنفذت إليه: أنا أحب أن أراك وأرى سائر عسكرك في

الميدان يلعبون ضروب اللعب، ويكون متصرفكم بعد ذلك إليّ لحضور الطعام والخلع، فأجابها، وتقدم بركوب الجيش وحمل السلاح واللعب، فلما فعل واشتد عرق القوم، انصرفوا إليها جميعاً، فتلقاهم أصحابها بالخلع المسمومة؛ فلبسها وجوه العسكر، ولبس الملك جبير خلعتة، وكانت أقل سماً من غيرها إبقاءً عليه لتبقى فيه بقية لخطأ بها، فما أقاموا إلا ساعة بالخلع حتى طفتوا وماتوا؛ ورأى ذلك بقية العسكر، فعلموا موضع الحيلة، فبادروا مستأمنين فنودي فيهم بالأمان، وبقي الملك بقية من الحياة، فأمرت أنه يحمل إليها فلما رآته في السياق قالت له: إن ملكاً أنفق ماله وأفتى زمانه، ونزل ملكه، وجاء شهوة لا يدري أينالها، ولا ملك سخيف، وكان آخر كلامها بخروج روحه، فمات، ودخلت هي المدينة، وأقامت بها زماناً، وعادت إلى مصر.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

ثم ملك الاسكندر فزاد في بنائها، وأطال في منارتها وجعل فيها مرآة كان يرى منها مراكب العدو عن بعد، فإذا صارت بإزائها، وصددها شعاعها أحرقها كما تحرق المهة في الشمس ما قابلها من الخرق، وإن لم تتصل بها، فسميت الاسكندرية من حينئذٍ، وكان اسمها قبل ذلك وقوده، وبذلك يعرفها القبط في كتبهم القديمة.

وأقامت المرأة على ذلك زماناً، وشق ذلك على الروم، فاحتال حكيم من حكمائهم بأن وافق متملكهم على أن يبعث أموالاً مع أصحاب له، فيدفعونها في مواضع متفرقة (المخطوط 642) من ثغور الإسلام، ثم عادوا بعد دفنها فصنع كتاب مطالب ذكر فيه المواضع وختمه بأن تحت المرأة القي في منارة الاسكندرية كنزاً لا يحصى ما فيه من الأموال، وعثق ذلك الكتاب، ودفعه إلى إنسان ذكي، وأمر أن يسير به إلى بلد بلد، وأن يكون قصده إلى السلطان، كل بلد فيعرفه ما في ذلك البلد، ويخرجه، ويأخذ منه جزءاً يسيراً واتصلت الأخبار إلى سائر الثغور بذلك، فكان سلطان كل بلد ينفذ إليه من يتسلمه بعد أن يحضر أخرجه الكنز في البلد الذي هو فيه، فلم يزل إلى أن وصل إلى الاسكندرية، فقال لملكها ما قال في المرأة، وقال له: إذا قلعتها وأخذت الكنز أنا أردتها إلى أفضل ما هي عليه الآن، فأجابه، وقلعت المرأة وشرع في هدم ما تحتها وانسل الإنسان ونزل ونزل تلك الأموال التي أخذها من الكنوز المتقدمة ليطمسوا ولا يجدوا في طلبه، وفاتهم، وحفروا فلم يجدوا شيئاً، فعلموا أن ذلك كله كان حيلة على قلع المرأة، ولم يقدروا على ردها لأن واضعيها كانوا حكماء قد نصبوها بطالع مختار، واختلف الناس في هذا القول فمنهم من ذكره، ومنهم من ذكر غيره.

قال: غير أنني قرأت في بعض كتب التواريخ أن أعاجيب الدنيا أربعة فرس من نحاس بأقصى غرب الأندلس لا يتجاوزه أحد إلا ابتلعه الرمل، وشجرة من نحاس برومية عليها صورة طائر من نحاس وهو الذي يسمى الزرزور، إذا كان أوان نضج الزيتون، فلا يبقى طائر من جنسه، وهو الطائر المعروف إلا أتى

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

حاملًا زيتونة في منقاره وزيتونتين في رجليه، فيلقيه عند الطائر النحاس المذكور، فيعصر أهل رومية من ذلك ما يكفي أدمهم، وسرج عامهم ذلك لأن روميه ليس بها زيتون، ومنارة من نحاس عليها راكب من نحاس بارض عادٍ إذا كان في الأشهر الحرم، جرى منها الماء، ولا يجرى من غيرها، وامرأة بمنارة الاسكندرية ترى بها القطائع الحربية إذا تجهزت من القسطنطينية العظمى، فيرى أهل الاسكندرية أهل (المخطوط 742) القسطنطينية، وبينهما عرض البحر.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

قال: وأما مساحة المنارة فهي ثلاثة طبقات، ومساحتها على ما ذكره بعض المحصلين مائتا ذراع وثلاث وثلاثون ذراعاً، فالطبقة الأولى مربعة وهي مائة ذراع وإحدى وعشرون ذراعاً، والطبقة الثانية مئمة وهي إحدى وثمانون ذراعاً ونصف ذراع، والطبقة الثالثة مستديرة وهي ثلاثون ذراعاً ونصف ذراع. قلت: وأما ما حكاه عن منارة اسكندرية، فقد أصبحت كلها أثراً بعد عين، سقطت أعلامها، ومحيت آثارها، ولم يبق من المنارة، إلا دون العشرين ذراعاً، وأمر السلطان لها بالبناء، ولم يصرف إليها وجه الاعتناء وليس الناطور الآن إلا في منارة استحدثت على كوم عال داخل السور يعرف بكوم مَعلى لا له أساس ثابت ولا جدار مَعلى.

وأما عمود الصواري فباق على حاله والطلل باق على هائل ولا طائل، وهو من الاسكندرية على مسافة ونصف يوم من غربها البر الأقفر المتصل ببرقه إلى الغرب الأقصى.

والرطل الاسكندري يسمى الجروي وهو رطلان وأوقيتان بالمصري، وأرد بها ثمان وبيات بأردب وثلث بالمصري، وأسعارها أقرب إلى الرخاء، ولولا التهجير زادت رخاؤها، وعظمت أجلابها.

دمياط

ودمياط مدينة على ضفة البحر، عند مصب أحد فرقي النيل، بناؤها الآن غير موثق، يطوف بها جسر، يباري النيل إلى مصبه، وهي موضع غرة للعدو من قبل البحر، وقد علقت بهاجمة الكفر زماناً طويلاً حتى نصر الله عليهم في أخريات الدولة الأيوبية.

حدثني من رأى دمياط أنها مدينة لطيفة فيها مدرسة واحدة وأسواق ليست بالكثيرة، ومنها الإقضاء إلى بحيرة تنيس المذكورة في القديم بحسن الأوضاع، وجودة القماش والمتاع، وإنما هي الآن جون من البحر المالح كالجون.

وبدمياط وما يليها شجر الموز الكثير، ومنه مدد مصر والقاهرة وبلادهما. فائدة: قال التيفاشي في سرور النفس: يقال أن تنيس ودمياط والعزما ثلاثة أخوة ملكوا هذه المدن الثلاثة، وسمى كل واحد منهم مدينته باسم نفسه، وكانت تنيس يقال لها تنيس الإخصاص، ويقال أن المسيح عليه السلام دخلها، فأكرمه أهلها، فدعا أن يبارك الله لأهلها فيها، وأن يأتيها الرزق في كل مكان، لما رآها وسط بحيرة، ولم يدخل دمياط.

وأما الجفار فهي خمس مدن العزما والبقارة والورادة والعريش ورفح والجفار، كله رمل وإنما سمى جفارا لشدة المشي فيه على الناس والدواب، لكثرة رمله وبعد مراحل، والجفار تحفر فيه الأبل وغيرها فتهلك، فاتخذ له هذا الاسم كما قيل للحبل، الذي لهجر به البعير هجار، والذي يحجر به حجار والذي تعقل

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

به عقال، والذي تبطن به بطن، وكذلك خطاب وزمام ونحوه.
اسم الكتاب: مسالك الأبصار
والبقارة من البقر، والواردة من الورود والعريش أخذ من العرش ويذكر أنه
نهاية التخوم من الشام وأن إليه كان ينتهي رعاة إبراهيم الخليل عليه السلام
بمواشيه، وأنه اتخذ به عريشاً كان يجلس فيه، ومواشيه تحلب بين يديه،
فسمى بذلك، ورفح اسم رجل نسب إليه المكان.

قلت: هذه جملة الكلام في مدن الديار المصرية الشهيرة وأما برها فيأخذ
بخناقة جيلان، تضيقا في أوله بأعلى الصعيد ثم يأخذ في التقليل إلى الجزيرة،
فانفرجا واتسع مدى ما بينهما حتى انقطع بالبحر الرومي إلى آخر الأعمال،
فأوسعه مدى نحو يومين وأضيفه نحو ساعة (نحو يومين نحو ساعة)، وغالبه
نحو ساعتين وما بين ذلك، وهذا هو عرض الديار المصرية حقيقة إلا أن نظرت
إلى قفار موحشة تهاب الجن سلوكها، ويخاف الظلام اقتحامها على أن مدى
العرض الذي ذكرناه عطل الجانبين عن الحرث والنسل والزرع والغروس، خال
من الأنيس الإسار في سبيل أوصال عن طريق، والعامر الأهل من هذا المدى
ثلاثة والثلاث كثير، لكن ذور ربع رابع، ومتحصل كثير.
وبمصر من أنواع الثعابين والأفاعي والحيات والعقارب والفأر وسائر الحشرات
لولا ما يهلكه النيل الفاض على البلاد في كل سنة، وما يفر من النيل فيقف
أهل البلاد له على الطرق بأيديهم العُمد والعصي لقتل ما يهاجمهم منها، لما
سكنت مصر ولا تأهلت لها ديار، ولا استقر بها لأحد قرار.
وأما زمان ربيعها وما يبقيه من المقطعات نيلها وما يوشى حللها من نوار
البرسيم والكتان، ويحشر في أرضها من الطير على اختلاف ذوات الجناح، فلا
يملاً عينيك وسامة وحسناً، ويروقك صورة ومعنى، كأن بناءها زمردة خضراء،
ومقطعاتها فيروزه زرقاء ونوارها لكل فرط منه لؤلؤة بيضاء، عليها للطيور
ظلل من الغمام، قد نصبت على فرشها الاستبرق خيام، ولما رأيت منظرها
البديع في زمان الربيع، وبين أكنافها المخضرة قراراً بناء كأنها النجوم في
السماء: قلت:
«لمصر فضل باهر لعيشها الرغد النضر»
«في سفح روض يلتقى ماء الحياة والخضر»

ونحن نقول: إن الديار المصرية وجهان؛ قبلي وبحري، جملتها خمس عشرة
ولاية، فالوجه القبلي أكبرهما، وهي تسعة أعمال وهي عمل قوص، وقوص
شرقي النيل، وهو أجلها، ومنه أسوان، وعرب قموله، وأسوان نهاية حد
المملكة من الجنوب، وعمل أخميم وهو شرقي النيل أيضاً، وعمل سيوط،
وعمل منفوط، وعمل الأشمونيين، وبها الطحاوية، وعمل البهنسا، (وعمل
العراني وهي عبارة عن غربي المنهى المؤدي إلى الفيوم)، وعمل الفيوم، وهو
منقطع، وعمل أطفيح وهو شرقي النيل، وعمل الجيزة، والوجه البحري وهو
سته أعمال؛ عمل البحيرة (وهو متصل البر بالاسكندرية، وبرقة، وعمل العزبية
جزيرة واحدة، يشتمل على ما بين البحرين والبحر المار ومسكبه عند دمياط،
وهو المسمى بالشرقي، والبحر الثاني ومسكبه عند رشيد، وهو المسمى

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

بالغربي)، والمنوفية وكانت منف المنسوبة إليها هذا العمل هي مصر قديماً، (ومنها أيار المسماة بجزيرة أبي نصر، وهي جزيرة وتأخذ في وسط البحر الغربي) وعمل قلوب، وقلوب شرقي النيل، وعمل الشرقية وهو متصل البر بين الشام والقلزم والحجاز. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وكذلك أشموم (ويعرف بأشموم طناج) ومنها الدقهلية، والمرناحية، (وهنا موقع ثغر البرلس، وموقع ثغر رشيد، والمنصورة المبنية زمان حصار دمياط. وفي هذه الوجه الاسكندرية ودمياط وهما مدينتان بندران على البحر لا عمل لهما، وأما الواحات فمنقطعة وراء الوجه القبلي في مغاربه، ولا تعد في الولايات ولا في الأعمال، ولا يحكم عليها من قبل السلطان وال، وإنما يحكم عليها من قبل مقطعتها،) وبلاد الواحات بين مصر والاسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة، بعضها داخل بعض.

قال البكري: وهو بلد قائمة بنفسه غير متصل بغيره ولا مفتقر إلى سواه، وفي هذه الأرض شبيه وراجية وعيون حامضة الطعوم تستعمل كاستعمال الخل مختلفة الطعوم من الحامض والقابض والملح ولكل نوع منها منفعة وخاصة ومما يتعلق بذيل هذه المملكة. ذكر برقة

قال ابن سعيد: هي سلطنة طويلة وإن لم تكن يمكن بها استقلال، لأنه قد استولت عليها العرب، وكان سريرها في القديم مدينة طبرق. قلت: وليس لها سلطان بل ولا سوى أهل العُمد سكان، وقربها إلى أفريقية أكثر من قربها إلى مصر، ولكن ما دون العقبة، لصاحب مصر وأمرها إليه. أخبرني الأمير الفاضل ناصر الدين محمد بن المحسن أنها بلاد كثيرة الماء، صالحة الهواء، وأرضها محاجر وحروز وعرة في الغالب، وبها المروج والأشجار الكثيرة، وبها المدن المبنية الباقية البناء إلى الآن، وهي خالية من السكان. وبها القصور العلية، والآثار الدالة على ما كانت عليه من الجلالة، وهي اليوم بيد العرب، وهم أصحاب ماشية ودواب سائمة كثيرة من الإبل والغنم، ومنهم من يزرع في بعض أرضها، فتخصب زروعها، ولكنهم أهل بادية لا عناية لهم بعمارة ولا زرع.

وحدثني غير واحد ممن دخلها من العسكر المصري ممن كان جرد إليها، أنها شبيهة بأطراف الشام وجبال نابلس، في منابت أشجارها، وكيفية أرضها، وما كانت عليه، وأنها لو عمرت بالسكان، وتأهلت بالزراع كانت اقليماً كبيراً يقارب نصف الشام، وقد كانت برقة مقطعة من مناشير صاحب مصر لابن المحسن، وكان يتوجه إليها، يأخذ من العربان بهائم أقطعت لأمراء عربان مصر من سليم، وهم الآن يستأذون من عرب برقة العَدَد.

وحدثني الأمير فايد بن مقدم السلمي المقطعة له الآن وأن برقة من أركى البلاد أرضاً للدواب، وأمرها مرعى لها، وأما خيل برقة فهي من أقوى الخيل بناءً، وإذا قيل الخيل البرقية كفى، وهم مدورات، ليست بمقرطات العلو، ولكنها عراض مرددات صلبة الحوافر، قد جمعت بين سبق العربيات وقوة صدماتها وكمال تخاطيطها، وصلابة حوافر البراذين وثباتها على الجبال والوعور وإدمان الركوب.

وأما صورها فهي بين العرب والبرادين، عليا منها سمات الشبه، وهي إلى محاسن العَرَّاب أميل، وفحول الخيل البرقية انجب من إناثها، ولجند مصر بها عناية، وتباع بالأثمان الغالية، ولكنها لا تبلغ مبلغ خيل البحرين والحجاز والشام. وطولها بالمسافة مقدار شهرين، وكانت قاعدة برقة مدينة انطابلس ومن مدنها طبرق وقد تقدم ذكرها، وطجيشه ولبدته وهي ذات رخام كثير عمد وألواح، وبها إلى الآن الرخام قائماً ونائماً، ومن مدنها المشهورة سرت. وحدثني قاضي الجماعة أبو إسحاق إبراهيم بن أبي سالم عن لبدته أنها مملوءة بالرخام الأبيض الفائق حتى شوارعها وممشى الناس في أسواقها، وأنها لا يعوزها من العمارة إلا السكان.

وحدثني الشيخ شرف الدين عيسى الزواوي قال: مررت ببلاد برقة فرأيتها كلها خراباً بياباً مقفرة، ما فيها إلا بادية العرب، وبها القصور المبنية، ليس بها الأغلال مخزونة لهم، وقال لي أن في جبال برقة أشجار مثمرة من الزيتون والفواكه الكثيرة، ولكن ليس بها مدينة معمورة تذكر لها أخبار. وسكان برقة كلهم أهل بادية، لا يتبايعون إلا بالأمثلة، حتى أن منهم من تكون معه دراهم فيعرضها للبيع فيقول من يشتري مني هذه الدراهم، لأنها ليست عندهم نقداً ولا معاملة.

ذكر المملكة الثانية وهي مملكة الشام وقاعدتها مدينة دمشق، وكانت الشام يقال لها أرض كنعان ثم جابر بنو إسرائيل، فقتلوهم بها، ونفوهم عنها، وبقيت الشام لبني إسرائيل إلى أن غلبت عليهم الروم، وانتزعوها منهم.

قال التيفاشي في كتاب سرور النفس: قال الشريف الإدريسي في حدود الشام: إنها من المشرق الجزيرة بينه وبين العراق، وسميت الجزيرة لأنها بين نهر دجلة والفرات، وهي أدنى الأرض التي ذكر الله عز وجل في سورة الروم من بلاد الجزيرة بنينوى مدينة يونس عليه السلام، وقاعدتها اليوم الموصل، ومنها الرقة ونصيبين وديار ربيعة وبنو تغلب وجزيرة هي التخوم الفاصلة بين الشام والعراق، وحدها النهران دجلة والفرات.

وحُدود الشام من الجنوب وادي القرى، ومن الغرب عسقلان والحاجز الذي بين البحرين حيث مدائن لوط عليه السلام وطوله أكثر من شهر ونحوه، بعض في الإقليم الرابع، وبعضه في الثالث، والتوجه في قبلته إلى الميزاب إلى الركن الشامي من جهة الشرق، وأكثر أهل اليمن وفيهم معدنه.

ثم قال: روى الحافظ أبو القسم علي بن الحسن ابن عساكر في تاريخ الشم، بسنده إلى الشعبي قال: لما هبط آدم من الجنة وانتشر ولده، أرخ بنوه من هبوط آدم، وكان ذلك التاريخ حتى بعث الله نوحاً، فأرخوا بمبعث نوح، حتى كان الغرق فهلك من كان على وجه الأرض، فلما هبط نوح وذريته وكل من كان في السفينة إلى الأرض، قسم الأرض بين ولده أثلاثاً فجعل لسان وسط الأرض فيها بيت المقدس والنيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون، وذلك ما بين قيسبون إلى نهر النيل، وما بين منحر الريح الجنوب إلى منحر الشمال.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وجعل لحام قسمه غربي النيل مما وراءه إلى منحر ريح الدبور، وجعل قسمة

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

يافث في قيسبون فما وراءه إلى منحر ريج الصبا، ثم تفرق بنو نوح من بابل إلى سائر جهات الأرض، فلحقت كل طائفة منهم بجهة. وفي رواية الحافظ من طريق آخر عن هشام بن محمد عن أبيه قال: كان الذين عقد لهم الألوية يعني ولد نوح عليه السلام، فنزل بنو سام المجدل صرة الأرض، وهو ما بين ساندما إلى البحر وما بين اليمن إلى الشام، وجعل الله النبوة والكتاب والجمال والأدمة والبياض فيهم. ونزل بنو حام مجرى الجنوب والديور، ويقال لتلك الناحية الداروم وجعل الله فيهم أدمة وبياضاً قليلاً، وأغمر بلادهم، ورفع عنهم الطاعون، وجعل في أرضهم الأثل والآراك والعسر والغار والنخل وجرت الشمس والقمر في سمائهم.

وبنو يافث القصور مجرى الشمال والصبا، ومنهم الحمرة والسناء، وأخلى الله أرضهم فأشتد بردها، وأجلى سماهم فليس يجرى فوقهم شيء من النجوم السبعة الجارية، لأنهم صدروا تحت نبات نعس والجدي والفرقدين، وابتلوا بالطاعون، ثم لحقت عاد بالشجر، فعليه هلكوا بواد يقال له مغيث، ولحقت عيل بموضع يثرب، ولحقت العمالق بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء، ثم انحدر بعضهم إلى يثرب فأخرجوا منها عيلاً ونزلها موضع الجحفة، واقبل سبل فاجتحمهم، فذهب بهم فسميت الجحفة، ولحقت ثمود بالحجر وما يليه فهلكوا، ثم ولحقت طسم وجديس باليمامة، وإنما سميت اليمامة بامرأة منهم فهلكوا (الخطوط ص 452) ولحقت أميم بأرض أبار فهلكوا بها، وهي بين اليمامة والشحر، ولا يصل اليوم إليها أحد، غلبت عليها الجن، وسميت أبار بابان بن أميم، ولحقت بنو يقطن بن عابر باليمن فسميت اليمن حين تيامنوا إليها، ولحق قوم من بني كنعان بن حام بالشام فسميت الشام حين تشاءموا إليها. وكانت الشام يقال لها أرض كنعان ثم جاء بنو إسرائيل فقتلوهم بها، ونفوهم عنها، وكانت الشام لبني إسرائيل، ووثبت على بني إسرائيل فقتلوهم؛ وأجلوهم إلى العراق إلا قليلاً منهم وجاءت العرب فغلبوا على الشام. قال أبو بكر محمد بن القسم الأنباري: الشام فيه وجهان يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشومى وهي اليسرى ويجوز أن يكون فعلي من الشوم، ويقال انجداني نجداً، وأغرق دخل العراق، وأعمن أتى عماناً، وأشام أي الشام، وبَعَّر وكوَّف، وفي التنزيل العزيز وأصحاب المشأمة ورجل شأم من أهل الشام، وسميت اليمن لأنها عن يمين الكعبة، وسميت الشام لأنها عن شمال الكعبة، قيل كان اسم الشام أول الأمر سدريه. اسم الكتاب: مسالك الأبصار ذكر دمشق وبنائها

روى عن كعب الأحبار قال: (أول حائط وضع علي وجه الأرض بعد الطوقان حائط حران ودمشق ثم بابل، وفي رواية أخرى أن نوحاً لما نزل من الجبل، أشرف فرأى تل حران بين نهري جلاب وريضان فاتاه فبنى حائط حران، ثم سار فبنى حائط دمشق ثم رجع إلى بابل فبناها).

وفي رواية أخرى أن جيرون بن سعد بن عاد بن عوض نزل دمشق وبنى مدينتها، وسمها جيرون، وهي أرم ذات العماد وليس أعمدة الحجارة في

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

موضع أكثر منها بدمشق.
قال الحافظ: وجدت في بعض الكتب أن جيرون وبريد كانا أخوين، وهما ابنا سعد بن لقمان بن عاد، وهما اللذان يعرف جيرون وباب البريد بدمشق بهما. وفي رواية عن وهب بن منبه قال: ودمشق بناها العازر غلام إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج إبراهيم من النار، وكان اسم الغلام دمشق، وكان متصرفاً في جميع مال إبراهيم. وروى الحافظ إنه وجد في كتاب أبي عبيدة بن المثنى المسمى بفضائل العرش أن بنو راسب الملك الكبراني بنى مدينة بابل، ومدينة صور ومدينة دمشق.

قال الحافظ: وبلغني من وجه آخر أنه لما رجع ذو القرنين من الشرق، وعمل السد بين أهل خراسان وبين يأجوج ومأجوج وسائر يربد المغرب، فلما بلغ الشام، وصعد على عقبه. دمر حتى عبر هذا الموضع الذي فيه اليوم مدينة دمشق، وكان هذا الوادي الذي فيه نهر دمشق غيضة أرز، قيل أن الأرزة وجدت في سنة ثلاث عشر وثلاثمائة من بقايا تلك الغيضة، فلما نظر ذو القرنين لماء تلك الغيطة وكان هذا الماء الذي هو في هذه الأنهار اليوم مفترق مجتمعاً في وادٍ واحد فأخذ ذو القرنين يفكر كيف يبنى فيه مدينة، وكان أكثر فكره فيه وتعجه منه أنه نظر إلى جبل يدور ذلك الموضع وبالغيضة كلها، وكان له غلام يقال له دمشق على جميع ملكه، وما نزل ذو القرنين من عقبه ومر سار حتى نزل في موضع القرية المعروفة ببلدا من دمشق على ثلاثة أميال، فأمر ذو القرنين أن يحفر له في ذلك الموضع حفيرة، ففعلوا ذلك، ثم أمر برد التراب الذي أخرج منها، فلما رد التراب لم تمتلأ الحفيرة، فقال لغلامه دمشق إرحل فإني كنت نويت أن أؤسس في هذا الموضع مدينة فلما إذ بأن لي هذا فما يصلح أن يكون ها هنا مدينة، فإنها لا يكون زرعها يكفي أهلها، قال: ثم رحل ذو القرنين حتى وصل إلى البثنية وحوران أشرف على تلك السعة، ونظر إلى تلك التربة الحمراء، فأمر أن يناول من ذلك التراب، فلما صار في يده، أعجبه، لأنه نظر إلى تربة كأنها الزعفران، فنزل هناك، وأمر أن تحفر حفرة فحفرت، وأمر برد التراب إلى المكان الذي أخرج منه فملأه، وفصل منه تراب كثير، فقال ذو القرنين لغلامه دمشق: ارجع إلى ذلك الموضع الذي فيه الأرز فأقطع ذلك الشجر وابن على حافة الوادي مدينة وسمها على اسمك، فهنا يصلح أن يكون مدينة، وهذا الموضع منه قوتها وعليه ميزتها.

قال الحافظ: وعلامة صحة ذلك أن أهل غوطة دمشق لا تكفيهم غلاتهم حتى يتكفوا من البثنية وحوران، فرجع دمشق، وبنى المدينة، وعمل لها حصناً، وهي المدينة الداخلة وعمل لها أربعة أبواب جيرون مع باب البريد مع باب الحديد في سوق الأساكفة مع باب الفراديس الداخلة، هذه كانت المدينة إذا غلقت هذه الأبواب فقد أغلقت المدينة، وخارج هذه الأبواب كان مرعى، فبناها دمشق، وسكنها ومات فيها، وكان قد بنى الموضع الذي هو الآن مسجدها الجامع كنيسة يعبد الله فيها إلى أن مات.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وروى أن باني دمشق بناها على الكواكب السبعة، وأن المشتري كان طالع بنائها، وجعل لها سبعة أبواب، وصور على كل باب أحد الكواكب السبعة، وصور على كل باب كيسان صورة زحل، فخربت الصور التي على الأبواب كلها إلا باب كيسان فإن صورة زحل باقية إلى الآن.

وروى الحافظ عن أبي القسم تمام بن محمد قال: قرأت في كتاب عتيق باب كيسان لزحل، باب شرقي للشمس، باب توما للزهرة، باب الصغير للمشتري، باب الجاية للمريخ، باب الفراديس لعطارد، باب الفراديس الآخر المسدود للقمر.

وروى الحافظ عن أبي مسهر قال: إن ملك دمشق بنى حصن دمشق الذي حول المسجد داخل المدينة على مساحة بيت المقدس، وحمل أبواب مسجد بيت المقدس فوضعها على أبوابه، فهذه الأبواب التي على الحصن هي أبواب مسجد بيت المقدس.

أسماء بعض جهاتها
خَرَجَ الحافظ مرفوعاً أن اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ولد له اثنا عشر ولداً، فسمى منهم دوماً وبه سميت دومة الجندل، وفي رواية أخرى أنه كان للوط أربعة بنين وابنتان ماب وعمان وجلان وملكبان والبنات زعر والربة، فعمان مدينة البلقاء سميت بعمان وماب من سائر البلقاء سميت بماب، وعين زعر سميت يزعر بنت لوط والربة سميت بالربة.

قال الشرقي بن القطامي: وسميت صيدا بصيدون بن صيدنا بن كنعان بن حام بن نوح، وسميت أريحا بأريحا بن مالك ابن ارفخشد بن سام بن نوح، وسميت البلقاء بأبلي عمان بن لوط لأنها ملكها وسكنها.
قال: وقيل أن الكسوة سميت بذلك لأن غسان قُتلت بها رسل ملك الروم قدموا عليهم في طلب الجزية، فقتلوهم، وأخذوا كسوتهم، هذا آخر ما نقله التيفاشي.

قلت: وبدمشق مهبط عيسى عليه السلام، وهي فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى، وقد تقدم القول أن الخوارزمي قال: طفت جوانب الأرض الأربعة فكان فضل غوطة دمشق عليها كفضلها على غيرها، كأنها الجنة صورت على وجه الأرض.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وأما وصفها فكثير جداً يعجبني منه قول ابن عنين.
«دمشق في شوق إليها مبرح
وإنَّ لجَّ واشٍ أو ألحَّ عذولُ»
«بلاذُّ بها الحصباءُ دُرٌّ وترُّها بيُرٌّ وأنفاسُ الشمالِ شمولُ»
«تسلسلُ فيها ماؤُها وهو مطلقُ
وصح نسيمُ الروضِ وهو عليلُ»
وقول عرقلة:

«ما بين شطري ومغربي جنةً سرحت
أنهارها في خلال الآس والبان»
«بظل منثورها في الأرض منتثراً
كأنما صيغ من دُرٍّ ومرجان»
«فالطير تصدحُ في أعصانها سحراً»

هذا هو العيشُ إلا أنه فاني»
وكذلك قول ابن عنين وقد نفى منها:
«فسقى دمشق وواديهما والحمى
متواصلُ الأرعادِ منقصُمُ الغُرا»
«حتى ترى وجهَ الرياض يعارض
أحوى ووجهِ الدوح أزهرَ نيرا»
«وأعادَ أياماً قطعت حميدةً
ما بين حرة عالقين وعُكبرا»
«تلك المنازلُ لا أعقة عالج
ورمالُ كاظمةٍ ولا وادي القري»
«أرضُ إذا مرت بها ريحُ الصبا
حكمت من الأغصان مسكاً أدفرا»
«فارقتها لا عن رضى وهجرتها
لاعن قلى ورحلت لا مُتخيراً»
وقول البحري:
«العيشُ في ظل داريًا إذا بردًا
والراحُ يمزجها بالراح من بردًا»
«إذا أزدت ملأت العين من بلدٍ
مُسْتَحْسِن، وزمان يُشبهُ البلدًا»
«أما دِمَشْقُ فَقَدْ أَبَدْتُ مَحاسِنَها
وقد وَفى لك مُطربها بما وعدًا»

«تمشى السحابُ على أجبالِها فرقاً
ويُصَيِّحُ النَّبْتُ في حُجراتِها بَدَا»
«وَلَسْتُ تُبْصِرُ إِلَّا وادياً خَصِيراً
أو يانعا خضلاً أو طائراً عَرِداً»
«كأنما القَيْظُ ولا بعد جيلته
أو الربيعُ أتى من يَعِدِها بَعْدًا»
ومدامتها على الموصوفة في الآفاق المعروفة في مغارسها بكرم الأعراق،
تنشر كاساتها ألوية حمراء، وتوقد في صفحات الخدود حمراً، فمن حمراء كنار
تتلهب، ومن صفراء كالزجاج المذهب، ومن بيضاء كأنها نقطة غدير أو فضة
طاقت بها قوارير أو وردية تتضاحك في الشفاه اللعس ثغورها المعتبرة،
ويخالطها الصفاء كخد أبيض تشرب بحمرة، تضىء في دجى الليل مصباحاً،
وتهدى إلى الجلساء بريحها تفاحاً، وبلاد الشرق بها ما يرق عن الزجاج، ويخف
عن مخالطة الامتزاج، فيعلق فوق الماء على الأقداح، وتتعلو حمرة عليه
كالشفق على الصباح، يطير عليها الشعاع وبطيب إلى قهقهة قبانها السماع،
وصيدنا يا معدن ذهبيها وافق كوكبها وإليها أشار ابن عنين بقوله:
اسم الكتاب: مسالك الأبصار
ومدامة من صيدنا يا نشرها
من عنبر وقميصها من صندل»
«مسكية النفحات يشرف أصلهان بابل ويحل عن قطربل»
وقد خالف القاضي الفاضل حيث قال بدم دمشق، ودخلت دمشق وأنا ملتان

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

لتغير مائها وهوائها وأبنيتها وأبنائها وأوديتها، ومن في مصر، فإني أبيع بردا بشرية من مائها، فالطلل هائل ولا طائل، وما سمعناه من تلك الفضائل متضائل.

وقال فيها وقد وقع عليها الثلج وأما دمشق فأدرها اليوم للثلج قوالب، وقد أخذ أن يذوب، فالشوارع تحتاج إلى مرالاب، وبدمشق من كل ما في مصر من الوظائف، وليس هذا في بقية بلاد الشام، مثل (قضاة) القضاة الأربعة من المذاهب الأربعة، وقاضي عسكر، وخزانة يخرج منها الانفاقات والخلع وخزائن سلاح وزردخانات وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة، حتى لو حضر السلطان إليها جريدة، وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته، وكل أمير أمر فيها أو في غيرها من الشام أو أولى رب وظيفة وظيفه، من عادة متوليها أن يُخلع عليه خلعة أو إنفاقاً، ولم يخلع عليه من مصر أو ينعم عليه من مصر، كان من دمشق خلعة وإنعامه.

ومنها يخرج أعلام الإمرة وطلائعهم وشعار الطبلخانات، وفي خزائن السلاح بها معمل المجانيق والسلاح، والزردخانات، وتحمل إلى جميع الشام، وتعمر به البلاد والقلاع، ومن قلعتها يجرد الرجال وأرباب الصنائع إلى جميع قلاع الشام، ويندب في التجاريد والمهمات.

وهي مدينة جليلة وقلعتهم مرحلة على الأرض يحيط بها وبالمدينة أسوار عليه، يحيط بها خندق، بطون الماء منه بالقلعة، وإذا دعت الحاجة، أطلق على جميع الخندق المحيط بالمدينة فيعمها، وهي في وطأة مستوية، بارزة عن الوادي المخط عن منتهى ذيل الجبل، مكشوفة الجوانب لممر الهواء إلا من الشمال؛ فإنه محجوب بجبل قاسيون، وبهذا تعاب وتنسب إلى الوخامة، ولولا جبلها الغربي الملبس بالثلوج صيفاً وشتاءً، لكان أمر في هذا أشد، وحال سكانها أشق، ولكنه ترواق ذلك السم ودواء ذلك الداء.

وهي مدية حسنة الترتيب جليلة الأبنية، بالحجر والخشب والآجر، مضيب بين مداميك البناء بالخشب الملبن، وأخشابها من خير أخشاب الأرض، يسمى الحور، ينصب في بساطنيها، ويربي، ويقطع في انتهائه فيعطى اللبان، فإذا انكسر عود منها يبقى في مكانها متماسكا عدة سنين وأكثر ولو أنه متعلق بقدر شعرة واحدة.

ولهذه المدينة حواضر فسيحة من جهاتها الأربع، والماء حاكم عليها من جميع نواحيها بإتقان محكم على ما ذكره في صفة نهرها.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وهذه المدينة مقسمة على جوانب الجامع بها لا على أنه واسطتها من كل الجهات، فإن ما بينه وبين نهاية المدينة من القبله وما بينه وبين نهاية المدينة من الشرق أوسع مدى مما بينه إلى نهاية المدينة من الجانبين الآخرين الشمالي والغربي.

وأشرف هذه المدينة ما قرب من جامعها، وبها الديار الجليلة المذهبة السقوف المفروشة بالرخام، ومنها ما هو مرموز الحيطان بالرخام والنوع المفصل بالصدف والذهب والبرك الماء الجارية، وقد تجري الماء في الدار في أماكن،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وبها الطباق الرفيعة والأقنية الوسيعة، والأسواق المليحة الترتيب، والقياسر الحصينة، وبها الصناعات المبهرة في كل فن من البنائين وصناعات السلاح والمصوغ والزركش وغير ذلك، ونعمل بها لطائف الأعمال من كل نوع، وصناعاتها تفخر على بقية صناعات هذه المملكة إلا فيما قل مما بمصر.

ومصر والشام والعراق والروم تستمد من لطائفها خصوصاً في القس والنحاس المطعم والزجاج المذهب وجلود الخراف المدبوعة بالقرط المضروب بها المثل وهي أحد جنات الدنيا الأربع.

وقال الخوارزمي، رأيت جنات الدنيا الأربع، وكان فضل غوطة دمشق عليها كفضلها على سواها كأنها الجنة على وجه الأرض حسبما ذكرناه، وبها البساتين الأنيقة يتسلسل جداولها، وتفيء دوحاتها، وتتميل أغصانها، وتغرد أطيارها.

وبها بساتين النزهة وبها العمائر الضخمة والجواسق العلية، والبرك العميقة والبحيرات الممتدة عليها العرش المحددة المظلمة، تتقابل بها الأواوين والمجالس، ويحف بها العراس والنصوب المطرزة بالسرو الملفت البرود والجور الممسوق القدود، والرياحين المتأرجة الطيب، والفواكه الجنية، والثمرات الشهية، والبدايع التي تعينها شهرتها عن الوصف، وبها في سفح جبل قاسيون الصالحية، وهي مدينة ممتدة في سفح الجبل بإزاء المدينة في طول مدى ذات بيوت وجنان ومدارس وربط وترب جليلة وعمائر ضخمة ومارستان وأسواق جليلة بالبز وغيره وبأعلىها من ذيل الجبل المقابر العامة، وجميع الصالحية مشرفة على دمشق، وغوطتها وكل بساتينها وشرفها وميادينها ومجرى واديها وبجانبيها القرى، كان دبر مران المشهور مكانه الآن من المدرسة المعظمية إلى قريب عقبة دمر ومنه وهناك بقايا آثار.

وأما حواضر دمشق فهي كما قدمنا القول جليلة من جميع جهاتها وأجلها ما هو في جانبها الغربي والشمالي، فأما الغربي فإنها تفضي من تحت القلعة بها في ساحة فسيحة هي سوق الخيل على ضفة الوادي، ويخرج إليها من جوانب المدينة من أمتعة الجند فتباع في أيام المواكب بها وتنتهي فيما يليها من الوادي إلى شرقي محيطين به قبلة وشاماً في ذيل كل منهما ميدان أخضر النخيل، والوادي يشق بينهما، وفي الميدان القبلي منهما القصر الأبلق، بناه الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالح وظاهر من وجه الأرض إلى نهاية أعلاه بالحجر الأسود والأصفر مدمكاً من هذا ومدمكاً من هذا بتأليف غريب وإحكام عجيب، ويدخل من دركاه له على جسر راكباً بعقد على مجرى الوادي إلى إيوان يراني بطل على الميدان القبلي استجده أقوس الأقرم زمان نيابته بها، ثم يدخل إلى القصر من دهاليز فسيحة مشتمل قاعات ملوكية يستوقف الأبصار وتستوهب الشموس من أشعتها الأنوار بالرخام الملوق قائماً نائماً في مفارشها وصدورها وأعلىها وأسفلها مموهة بالذهب واللازورد والفص المذهب وأزر من الرخام إلى سجد السقوف.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
وبالدار الكبرى بها إيوانان متقابلان، تطل شبايك شرقيها على الميدان الأخضر الممتد، وغربيها على شاطئ الوادي المخضر، والنهر به كأنه ذائب الفضة،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وله الرفارف العالية المناغية للسحب، تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغوطة، والوادي كامل المنافع بالبيوت الملوكية والاصطبلات السلطانية، والحمام والمنافع المكملة لسائر الأغراض. وتجاه باب القصر باب من رحبته إلى الميدان الشمالي على الشرفين المقدم ذكرهما، أبنية جليلة من بيوت ومناظر ومساجد ومدارس وربط وخوانق وزوايا وحمامات ممتدة على جانبيين ممتدين طول الوادي.

وقد بنى في هذه السنين نائب السلطنة بها على الشرف الشرقي منهما جامعاً بديعاً، يليه تربة ضخمة وداراً ملوكية، ومد قبالة الجامع سوقاً نظيفاً وحماماً فائقاً، زاد المكان حسناً على حسن وإبداعاً على إبداع. وأما حاضرها الشمالي ويسمى العقبة فهو مدينة مستقلة بذاتها ذات جوامع ومساجد ومدارس وربط وخوانق وزوايا وأسواق جليلة. وحمامات وبها ديار كثيرة للأمراء والجنود.

وأما نهر دمشق وهو بردى فمجراه من عينين، البعيدة منهما دون قرية تسمى الزبداني، ودونها عين بقرية تسمى الفيحة بذيل جبل غزتا، والماء خارج من صدع في نهاية سفلى الجبل، وقد عقد على مخرج مائة قبور رومي البناء، ثم ترفده منابع في مجرى النهر، ثم يقسم النهر أربعة؛ اثنان عن اليمين واثنان عن الشمال مرفوعان على مجرى النهر في قرارة الوادي دائمة بمقسم معلوم، وعليه التفاف بساتين ممتدة من الجانبين إلى أن يمر على المكان المسمى بالربوة وقد بنى الملك العادل الشهيد نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله بها المقام المعروف بمهد عيسى، يقال أن مريم أوت إليه بولدها عيسى عليه السلام، وأن هذه الربوة هي المعنية بقوله تعالى: {وأويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين}.

ومنظر هذا الوادي من أعجب المناظر لتراكم الظل والماء وأظلال الشمس والهواء، وأفراس الجبلين المحدقين به في أرضه بالبنفسج تحت الأشجار المتمايلة على غصون البان، تنفخ بينهما خدود الورد، ويُفتر مباسم الياسمين، وتندلق ألسن السوسن، وتتجاوب فيها هدير الماء والحمام، وتتلاقى خيول النسيمين الطائر من الشمال على منابت الشيع ومن القبلة على الحدائق الفيح.

وإنَّ إلى جانب هذا الوادي في قبليه بشمال سطح ممتد على ظاهر المزبة كأنه قطعة بيداء مقفرة ينبت بها الشيع والقيصوم، وتتلاعب بها الصبا والدُّبور، عرفت بصحة الهواء وفسحة الفضاء قطاب به ما جاورها، وصح لأجله ما قاد بها ثم نعود إلى ذكر النهر وتسمى الأنهار السبعة بحرى الوادي، والستة المقسومة فمجرى الوادي برداً فاق عليه هذا الاسم لا يعرف بغيره، وعلى سمت بردى في الجانب الغربي الأعلى الآخذ قبلة نهر داريا ودور المزبة ودونه نهر القنوات، ودونه نهر باناس وعلى يسرة بردى في الجانب الشرق الآخذ شمالاً على نهر يزيد، ودونه نهر نوراً. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

فأما القنوات وباناس فهما نهر المدينة حاكمان عليها، ومسلطان على ديارها، يدخل باناس القلعة بها، ثم ينقسم قسمين؛ قسم للجامع، وقسم للقلعة، ثم ينقسم كل قسم منهما على تقاسيم تتفرق على أصابع في المدينة بأصابع مقسومة وحقوق معلومة، وكذلك تنقسم القنوات في المدينة، ولا مدخل له في القلعة ولا الجامع، ومجرى الماء في قنى مدفونة في الأرض إلى أن تصل إلى مستحقاتها، ويتسع في منابعها، ثم تنصب فضلات الماء والبرك ومجاري الميضاوات والمرتفعات إلى قنى وسخ معقودة تحت أرجائي الماء المشروب، ثم تتجمع وتنهر وتخرج إلى ظاهر المدينة لسقى الغيطان.

وأما بقية الأنهر خلا بحر بردى فإنها تتصرف إلى البساتين والغيطان وعليها القصور والبنيان خصوصاً ثوراً، فإنه نيل دمشق، عليه أجل مبانيهم، وبه متنزهاتهم، وإليه أكثر سيارتهم وتوجهاتهم، يخاله من يراه زمردة خضراء لتراكم الأفياء عليه، والتفاف الدوح من جانبيه، ويجرى يزيد في ذيل الصالحية، ليشق خيطاً من عمارتها، وأما مجرى بردى فإنه تتفرق منه فرقة بجانب المدينة، تدخل إلى داخل سورها، وتدور به أرجاؤها وينصب باقيها إلى مجرى الوادي إلى أن يخرج من حدود العمارة، والأرجاء المنصوبة عليه إلى تنمة الوادي يحف به الفياض المتكاثفة من السفرجل والجوز والبساتين، ثم يرمى إلى ظاهر قرى دمشق، يسقى ما يحكم عليه ثم ينصب في بحيرة هناك متصلة بالبرية.

هذه أمهات الأنهار من بردى، وما ينقسم منه على أن كل نهر من هذه الأنهار تنقسم منه أنهار كبار وصغار، وتتشعب من تلك الأنهار جداول، ثم تتفرق في البساتين والغيطان لسقى أراضيها، وإدارة أرحائها، مما لا يكاد يعد كثرة. فأما مسجدها الجامع فصيته دائر في الدنيا، كان هيكلاً لعباد الكواكب، ثم كنيسة للنصارى، إلى أن فتحت دمشق على أيدي أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد رضي الله عنهما، فجري عليه حكم المناصفة، فوقع نصفه الشرقي للمسلمين، وبقي نصفه الغربي بأيدي الروم إلى خلافة الوليد بن عبد الملك، واستخلصه وأتمه جامعاً للمسلمين، فهو بيت عبادة من قديم، وقد ذكرناه فيما تقدم. جملة أعمال دمشق

أما جملة أعمال دمشق فهي ثمانية وعشرون عملاً، وهي ما يذكر عمل ضواحيها، وتسمى بولاية البر، وهي الغوطة والمرج وجبة عسال والإقليم، كل هذا عمل واحد، والبلاد الساحلية القليلة وما تبعها وهي عبارة عن بلاد غزة وعمل قريتا وما جاورها سهلاً ووعراً وهي نسخة أعمال خاصة غزة ثلاثة أعمال وهي؛ عمل غزة وعمل قريتا، وعمل بيت جبريل، والساحل ثلاثة أعمال وهي عمل الرحلة وعمل قاقون وعمل لدم، والجبل وهو ثلاثة أعمال، عمل نابلس وعمل القدس الشريف، وعمل بلد الخليل عليه السلام.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
فهذه جملة هذه الأعمال والمشاهير منها مذكور في عمله، موصفة إلا نابلس فإننا نذكرها هنا فنقول إنها مدينة ممتدة يحتاج إليها، ولا يحتاج إلى سواها،

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

والصَّفقة القبلية وهي بلاد صوران والغور وما مع ذلك (المخطوط 562) وهي عشرة أعمال وهي؛ عمل بيسان وبيسان لها قلعة من بناء الفرنج، وهي مدينة الغور، وعمل بانياس وهي مدينة الجولان وبها قلعة الصبية، وعمل الشعراء، وعمل نوى وهي مدينة قديمة، وبها قبر أيوب عليه السلام، وعمل أذرعات وهي مدينة البنية.

قال البلاذري ولما فتح المسلمون بصرى أتاهم صاحب أذرعات فلما جاءها عسكر هولاكو بعد أخذ دمشق فهدموا شرفاتها وأبقوها بيده، فجدد الملك الظاهر بيبرس البندقداري تحصينها وتحسينها، وصَرَّخ مدينة حوران العليا، وعمل بصرى وهي مدينة حوان السفلى، بل حوران كلها بل هذه الصَّفقة جميعها.

قال البلاذري: وبصرى قصبة حوران، وهي مدينة على سيف البرية، ولها ذكر في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل إليها قبل بعثته وهو تاجر لخديجة بنت خويلد الأسدية رضي الله عنهما، وفيها لقي بحير الراهب، وبها قبره إلى عصرنا هذا.

قال البلاذري: اجتمع المسلمون عند قدوم خالد بن الوليد على بصرى، ففتحوها صلحاً ولبثوا على حوران فغلبوا عليها. وقال ابن جرير وقد ذكرها: في هذه الكورة قلعة صرَّخ، وهي محدثة ثم كان بها مملك بعد مملك.

قلت: وهكذا جرت العادة في محضرتنا وما تقدمنا مما قاربه أن يكون لمن أنزل عنه رتبة سلطنة أو ما قاربها، وعمل زرع فهذه جملة الأعمال والصَّفقة الساحلية والجبليَّة الشماليَّة، وهي أربعة أعمال وهي؛ عمل البقاع العزيرية والبقاع البعلبكية وعمل بيروت؛ وهي ثغر على صفة البحر، وعليها سور من حجارة وبها جبل فيه معدن حديد، ولها غيضة من أشجار الصنوبر تكسيرها اثنا عشر ميلاً، تتصل بلبنان، وشرب أهلها من الآبار، وهي بيدر فرصة دمشق، وعمل صيدا، وعليها سور حجر، وهي تنسب لرجل من ولد كنعان بن حام، وكورتها كثيرة الأشجار غزيرة الأنهار وتشتمل على نيف وستمئة ضيعة، وشرب أهلها من ماء يجري إليهم من قناة فهذه جملة هذه الأعمال. والصَّفقة الشرقية الشماليَّة هي البلاد الحمصية، وهي أربعة أعمال وهي عمل حمص وعلى قارة وعمل سلمية وعمل تدمر وتدمر مدينة شامية عراقية لاتصالها ببر العراق وبر الشام وهي مدينة جليلة سليمانبة البناء، وبها بساتين جليلة ومتاجر مفيدة لأهلها يسار ومنها تجار تضطرب في الأرض فهذه جملة المملكة الدمشقية.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
بعلبك

وبعلبك مدينة قديمة البناء، شمالي دمشق يقال أنها من بناء سليمان بن داود عليهما السلام، لها قلعة عظيمة مُرجلة على وجه الأرض، مثل قلعة دمشق يستدير بها.

وبالمدينة سور منيع محصن عظيم البناء بالحجارة الثقل الكبار من الصخر الشديد المانع، وبه ثلاثة أحجار عظيمة ممتدة تحت برج وبدنتين كوامل ذوات أطوال وعروض وسمك مرتفع كأفلاق الجبال وفي القلعة عمد عظيمة شواهي وسيدة الدور منيفة العلو.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وفي هذه البقعة من عمائر من تفرد بها من الملوك الأيوبية آثار ملوكية جلية القدر جلية الحسن كالدار الأمجدية والمجرة.

وأما المدينة فمختصرة من دمشق في كمال محاسنها في حسن الترتيب والبناء وجهات الوقف العامرة من الجامع والمسجد والمارستان ودار الحديث والمدارس والربط والخوانق والزوايا والأسواق النظيفة المشتملة على أنواع المبيعات، وتخرق الماء في ديار هذه ومشارعها وأسواقها، ويعمل بها الدهان الفائق في الماعون مما يستحسن، ويحمل منه إلى كثير من البلاد، ويحف بالمدينة غوطة عظيمة أنيقة ذات بساتين مشتبكة الأشجار بأنواع الثمرات الحسان والفواكه المختلف الألوان.

وبعلبك في ظاهرها عين ماء سارحة متسعة الدائرة مشهورة بالزينة، ماءؤها في غاية الصفاء، عليها بهجة الحسن بين مسرح أخضر وبستان مونق، وعليها مسجد، واستجد إلى جانبها مسجد جامع كمل به طرازها المذهب، وجمالها المبدع، يمد منها نهر ينكسر على الحصاء في خلاف تلك المروج كنصل سيف يسن فوق مسن إلى أن يدخل المدينة، وينقم منه في بيوتها وجهاتها، ويسمى ماء رأس العين.

ولبعبك عين أخرى أبعد من هذه الأولى مدى، يقال لها عين اللوجج في طرف بساتينها البعيدة، خفيفة الماء هاضمة لا يشرب أكابر بعلبك، وأهل النعمة بها إلا من مائها، ويتصل منها فرع إلى الجانب الشمالي من بعلبك، ويصب منه في قناة هناك، ويدخل إلى القلعة منه، وهو من الماء المستطاب الموصوف في البلاد.

وبعلبك بلد لطيف ظريف كثير الخير والأرزاق، أرخى أسعاراً من دمشق، كثيرة الأطايب، وبها الملبن المعمول على أنواع، يقل موجود مثلها من الأرض، ولا يكاد يفوتها من دمشق فائت.

وبها جبل لبنان المشهور المبارك البقعة موطن الأولياء والصلحاء والسواح، يأوى إليه كثير ممن انقطع إلى عبادة الله عز وجل، وهو مدرج طريق الفقراء، وقطب مدار الأولياء، يقر بهذا من عرفه، ولا يستطيع إنكاره من جهله.

ومع ما ذكرنا من حسننها، قد ذمها القاضي الفاضل فقال: وكأني آليها من إحدى المضائق بل المطابق المسماة بعلبك، وأنا نازل على عين يصم الشمع هديرها، فوق جبال يغمر العين حريقها تحت سماءٍ قد رايني منها الغداة سفورها، إما في قتال يدير كأس المنون فيه مديرها، ورأبى أحجار المنجنيقات التي إذا زارت نبطها حروف البروج محيت سطورها، والله المستعان على ما يصفون. حمص

حمص مدينة قديمة اسمها القديم سوريا، كانت معظمة عند ملوك الروم كرسي ملك لهم، ولم تزل يشار إليها بينهم بالتعظيم وهي في وطأة ممتدة على جانب نهر العاص في شماليه مبنية بالحجر الأسود الصغير، وبها قلعة لا تمنع ويستدير بها سور هو أمتع من القلعة، واسمح من أبراجها في الرفة، ولها من العاص ماء مرفوع يجرى إلى دار نائب السلطنة بها، وبعض مواضع بما ولها

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

من ير بعلبك أنواع البر، وظاهرها أحسن من باطنها، لا سيما في زمان الربيع، وما تلبس به ظواهرها من حلل الربيع الموشحة بالأزهار ما مد النظر، يرنو بأحداق النرجس وثغور الأقاح وتتوسط بها البحيرة الصافية الماء الصافية النماء، ذات السمك المنقول من الفرات إليها حتى تولد فيها، والطير المبعوث في نواحيها.

وبها إلى جانب مسجدتها الجامع قبة العقارب لا يوجد لها نظير، يقال أنها طلسم قديم موضوع لدفع العقارب عنها، ولأجل هذا لا يوجد بها شخص عقرب، ولا تجمل عقرب إليها إلا وتموت بها ومن أخذ تراباً من أرض حمص، وخلطه بماء حتى يصير طيناً ثم ألصق تلك الطينة ببعض جدران تلك القبة من داخلها، وتركها حتى تسقط بذاتها من غير أن يلقيها أحد، ثم أخذها ووضع شيئاً منه في بيت، لا تدخله عقرب، فإن ذر على عقرب منه أحدث بها مثل السكر وربما زاد عليها فقتلها هذا لا يحتاج يسأل عن تحقيقه، ولا يأبى من هو في غاية المشرق أو المغرب في تصديقه، بل والذي يقال أن هذا الأمر لا يختص بهذه القبة وإنما هو خاصة في عامة أرض حمص، لا تقرب عقرب ثيابه وأمتعته ما دام عليه من غبار ترابها.

حدثني خلق بهذا، ورأيت بعيني، وجربت ما يتعلق بالطين الملتصق بالقبة، وإلى هذا أشار الفاضل في البشري بفتوحها ودب إليها من عقارب المجانيق ما خالف عادة حمص في العقارب ورميت بها الحجارة على الحجارة، فظهرت العداوة المعروفة بين الأقارب وحمص تتلو اسكندرية فيما يعمل فيها من القماش الفائق على اختلاف الأنواع وحسن الأوضاع، لولا قلة مائه ونحوه جسمه مع أنه يبلغ الغاية في الثمن، وإن لم يلحق اسكندرية مصر فإنها تفوق صنعاء اليمن.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
حماة

حماة مدينة قديمة وهي في وهدة حمراء ممتدة عليها نشزان عاليان مطلان عليها، يسميان قرون حماة، ذكرها امرؤ القيس، هي وسيزر في شعره طامر بهما في طريقه إلى قيصر.

وهي مدينة على ضفة العاص بناءً مكيناً بالحجارة، ولها قلعة ملونة الأحجار يستدير بها سور وبيوت ملوكها وسرواتها مطلة على النهر، بها القصور الملوكية والدور السرية والمساجد والمدارس والربط والزوايا والأسواق التي لا تعدم نوعاً من الأنواع، ولا صنفاً من الصنوف، جليلها وحقيرها.

وغالب مبانيها العلية وأثار الخير الباقية فيها من فواضل نعم الدولة الأيوبية، ولها النواعير المركبة على العاص تدور بذاتها، ويرفع الماء إلى الدور السلطانية، ودور الأمراء والبساتين والغيطان. وفي بساتينها الأشجار والعراس المفعن الأفنان، وبها بقايا الناس وأنموذج الكرام، يخدمهم العلماء يتصانيفهم، والشعراء بمدائحهم، ويقصدهم الفقراء والسؤال وطوائف بني الآمال، ويتفنن أرباب الصنائع في دقائق الأعمال، وتقدم إليهم التحف، ويخصهم التجار ببذائع الطرف، وكرمهم يربي على الأمل، ويزيد

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

على الرجاء حتى أن كل أحد ليعلق من ملوكها الطماعية بنصيب، ويفردهم بقصدٍ، وهم أجود من الغمام السكوب، وأندى من الرياح ندَى عند الهبوب. ثم نعود إلى ذكر حماة فنقول: إنها لم تكن في القديم نبهة الذكر، وكان الصيت دونها لحمص، ثم تنيه في الدولة الأتابكية ذكرها فلما جاءت الدولة الصلاحية الناصرية وانتقلت حماة إلى ملوك بني أيوب مصرّوا مدينتها بالأبنية العظيمة والمساكن الفاخرة، وتأمير الأمراء فيها وتجنيد الجند بها، وعظموا أسواقها وزادوا فيها القصور والغراس، وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كل من فاق في فنه، وبقي كل ما لمحل منها يكبر ويزداد إلى أن أضحت الآن تامة المحاسن، معدودة في أمهات البلاد، وأحاسن الممالك. وبها الفواكه الكثيرة والخيرات الغزار، وأسعارها رخيّة وسمتها ملوكية خلا أنها ذات وعر في الصيف بحجب الهواء عن اختراقها، ويعرض بها في الخريف، تغير ينسب إلى الوخم، ولا يبقى بها الثلج كما يبقى من بقية الشام مدخراً إلى الصديق، ولكنه يجلب إليها من جاورها. وحول حماة مروج ممتدة وبرفسيح يكثر به مصائد الطير والوحش، ولبس بعد دمشق في الشام لها شبيه ولا يدانيها في لطف ذاتها من مجاوراتها قريب ولا بعيد وليس لها سوى عمليْن؛ عمل بارين وعمل المعرة. حلب

وحلب مدينة عظيمة قديمة، أم أقاليم وبلاد وأغوار وأنجاد؛ وبها معظم قلاع الشام ومعاقله وحصونه وثغوره، وتسمى حلب الشهباء. اسم الكتاب: مسالك الأبصار وهي ذات القلعة البديعة العلية المنار، وهي أعني حلب في وسط وطأ حمراء ممتدة، والقلعة على تل عليّ، كانت قد عظمت أيام بني حمدان، وتاهت بهم شرفاً على كيوان ثم جاءت الدولة الأتابكية فزادت فخاراً، واتخذت لها من بروج السماء منطقة وأسواراً، ولم تزل على هذا يشار إليها بالتعظيم ويأبى أهلها في الفضل عليها لدمشق التسليم حتى وطئها هولاء بحوافر خيله، وأقام عليها مفرقاً في أقطار الشام بعوث سراياه وجنده، فهدمت أسوارها وخربت حوافرها، فأصبحت يرثى لها الشامت ويبكي بها اللاهي، وهي على ما توالى عليها من المحسن، وأطاف بها من نوب الأيام مصر جامع، ومبصر رائع، مبنية بالحجر الأصغر، الذي لا يوجد مثله في البلاد، كأنها به رافلة في حلل الديباج، مائلة في ذهبية الأصيل. وبها الديار العظيمة والجامع ذو المئذنة العليا الفائقة والمارستان والمساجد والمدارس والربط والخوانق ووجوه البر الدائم والصدقات الجارية، ويجرى إلى داخل المدينة فرع ماء، يتشعب في دورها ومساكنها، وهو قليل نزر، لا يبل صداها، ولا يكفي بغيتها ولها الصهاريج المملوءة من ماء الأمطار، صافية الغطاف، باردة الزلال، منه شرب أهلها. ويدخل إليها الثلج من بلادها وليس لأهلها إليه كبير القفات لبرد هوائهم ومائهم، وقرب اعتدال صيفهم، وشتائهم، وبها نهر قويق، وهو نهرها القديم، ونهر الساجور مستجد فيها ساقه هذا السلطان إليها، وحكمه جارياً عليها. وحلب أوسع الشام بلاداً وأوطأ أكنافها لخيّل الأمل مجالاً، ولها المروج القيق والبر الممتد حاضرة وبادية ومنازل عرب وأتراك.

بها جند كثيف، وأمم من طوائف العرب والتركمان، وبها البطيخ القليل في الشام مثله وأنواع من الفواكه، أكثرها مجلوبة من بلادها، متصلة ببيس الروم وبلاد ديار بكر وبرية العراق، وفي أعمالها وادي الباب وبزاعة وهو الوادي المشهور، نزل به المنازي الشاعر ووصفه بقوله:

«وقانا لفحة الرمضاء وادٍ
وقاه مضاعف النبت العميم»
«نزلنا دوحة فحنا علينا
جثو الوالدات على الفطيم»
«وأرشفنا على ظمأ زلالا
أكثر من المدامة للنديم»
«يروع حصاه حالبة العذارى
فتلمس جانب العقد النظيم»
«يصد الشمس أتى واجهتها
فيحجبها ويأذن للنسيم»

وأما أعمالها فهو كثير منه قلاع وحصون، ومنه ما ليس له قلعة وعدة الجميع ثلاثة وعشرون عملاً، وهي عمل شيزر المدينة المشهورة، وعمل الشجر ولكاس وهي قلعة، وعمل القصير وهي قلعة، وعمل دبركوش، وعمل حارم، وعمل أنطاكية المدينة العظيمة المشهورة المذكورة، وعمل يقراض وهي قلعة حصينة ثغر الأرمن والدريسال وهي قلعة، وعمل حجر شعلان وهي قلعة، وعمل الراوندان وهي قلعة، وعمل عيتبان وهي مدينة (مليحة) جليلة، وعمل مدينة بيشنا (وهي مدينة جليلة على ما يذكر)، وعمل كركر وهي قلعة، وعمل الكحتا، وهي قلعة، وعمل البيرة وهي القلعة (الجليلة المشهورة)، وعمل قلعة المسلمين (وهي قلعة جليلة) وعمل منبج، وعمل الجول، وعمل بيرين، وعمل عراز، وعمل سرمين ومعها الفويعة ومشيزر، وعمل كرطات، وعمل الباب وبزاعه المقدم الذكر.
اسم الكتاب: مسالك الأبصار
طرابلس

طرابلس قد قدمنا القول على أنها بنيت عند الفتح عوض طرابلس العتيقة، وكانت تسمى قديماً بدار العلم، وتداولها ملوك بني عمار، وكانوا في الأول لهم القضاء بها، ولما بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة البقعة. ذميمة المسكن، فلما طالت مدة سكنها، وكثر بها الناس والدواب وصرفت المياه الآسنة التي كانت حولها نقائع، وعملت بساتين ونصب بها المنصوب والغراس فخف ثقلها وقل. وخمها، وقد كان بها أسد مر الكرجى نائباً، وبقي لا يستقل من لون وخم، فشكا إلي الحكيم الفاضل أمين الدين سليمان بن داود المتطبب، وخامتها، وسأله عما يخفف بعض ذلك، فأشار عليه أن يستكثر بها من الجمال وبقيّة الدواب ففعل ذلك، وأمر به الأمراء والجند، فخف ما بها، وكان الأمر كما أشار به الحكيم، وسألت عن تعليل هذا كثيراً من الأطباء فقال أنه لا يعرفه، وفوق كل ذي علم عليم.
وأما ما قاله لي الصدر بهاء الدين أبو بكر بن غانم رحمه الله فقال: إن السبب

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

فيما تعرض للأجسام بها، أنها لمجاورة البحر وَغِره حارة فتكون في أول الليل كذلك، فلا يقبل فيها ثقل الغطاء، فإذا نام النائم قليل الدثار يفاجئه البرد الشديد في آخر الليل من قبل الجبال المجاورة لها، فيجيء البرد عقيب الحر، والمسام مفتحة، والنائم في غفلته فيحدث له ما يحدث.

ولها نهر يحكم على ديارها وطبقاتها، يتخرق الماء في مواضع من أعالي بيوتها التي لا يرقى إليها إلا بالدرج العلية، وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذوات أشجار وكروم ومروج وأغنام ومعز ويجتمع بها الجوز والموز وقصب السكر والثلج، ويعمل بها السكر ويهوى إليها، وفود البحر، وترس بها مراكبهم: موضع زرع وضرع، وهي الآن مدينة ممتدة كثيرة الرخام، ذات مارستانين ومساجد ومدارس وزوايا وأسوار جليّة وحمامات حسان موصوفة وجمع أبنيتها بالحجر والكلس مبيصاً ظاهراً وباطناً تحيط بها غوطنها، ويحيط بغوطتها مواضع مزدرعاتها بديعة المشرف تحسن بعين من يشرف من هضبة عليها، وهي مملكة ذات جيش وتركمان، وخاصة لأهل الجبال، بها يد من الرمي على القوس الثقيل بالنشاب الخارق، ولها حصون وقلعة وتجاورها قلاع الدعوة المعروفة وقاعدتها مصيف، ومن جملتها قلعة القدموس وبها حمام يخرج بها أنواع حيات كثيرة لا تحصي حتى أن القاعد في داخلها ليغتسل والحياة ظاهرة من الأنبوب مع الماء، حتى أن الخارج من الحمام ليرفع قماشه من الأرض ليلبسه والحيات تتساقط منه، ولكنها لا تؤذي أحداً، ولا أعرف هذا عنها في وقت من الأوقات، وبالقرب من هذه القلعة قلعة الخوابي.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

حدثني الأديب بدر الدين حسن الغزي أن سورها أغنى قلعة الخواي مكاناً إذا لدغت أفعى أو حيةً أحداً، وحمل لكي يشاهد ذلك الموضع من سور الخواي بيته أو كان الملدوغ عاجزاً، فأرسل رسولاً له إلى ذلك الموضع، فأتى إليه وشاهده بعينه قبل عطب السليم الملدوغ نجا السليم، وكانت عاقبته إلى سلامة.

وهذا من عجائب ما يحدث به في الأفاق مما أدى لهذا الطلسم هناك أو لخاصية في ذلك الحجر؟ وعلى كل الحالين هذا السر عجيب غريب، وأغرب ما فيه كون هذا يفيد نفع اللديغ برؤية رسوله له إذا لم يره هو بنفسه، فسبحان من له الحكم وإليه مرجع الأمر كله.

ووادي الفوار قريب حصن الأكراد غرباً بشمال على الطريق السالكة صفته هناك صفة بئر قائمة في الأرض، وفي أسفل البئر سرداب ممتد إلى الشمال يفور في كل أسبوع يوماً واحداً لا غير، فيسقى به أرض ومزروعات، وينزل عليه التركمان ويردوه، وبقية الأيام يابس لا ماء فيه، ويسمع له دوى كالرعد قبل فورانه، والسرداب خلفه البناء، وذكر من دخل السرداب أن في نهايته نهراً كبيراً أخذاً من الغرب إلى الشرق تحت الأرض، وله جريان معين، وبه موج وريح عاصف، ولا يعرف إلى أين يجري، ولا من أي جهة يجيء.

وداخل البحر الشامي بطرابلس عند برج الخصاص بقدر رمية حجر فوارة ماء حلو عذب، تطلع على وجه الماء علو ذراع أو أكثر بين ذلك عند سكoon البحر لكل أحد.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

صفد

وصفد مدينة في سفح جبل، صحيحة الهواء، خفيفة الماء يحمل إليها الماء على الدواب من واديهها، وبها عين ماء لو أنها دمع لما بلت الآفاق، ولا ملت بلى البكاء به الأحداق وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادي بها، ولا يرضى حمامات المدينة لقلّة مائها، وسوء بنائها، وبها عسكر من الجند. والحلية وهي على مسافة يومين من دمشق فحكها حكمها، وكل ما يوجد بدمشق فيها مما هو من صفد وبلادها، ومما هو مجلوب من دمشق إليها، وهي إلى جانب عكا، وقد خربت عكا، وبقيت هي مدينة ذلك الساحل، وقاعدة ذلك، ولها قلعة قل أن يوجد لها شبيه، كأنما عليها من ذهب الأصيل تمويه، ولا تردم السحب إلا من جنب، ولا يطوف عليها سوى الشفق مدام عليه من مواقع النجوم حب، ولا تجاور الأرض إلا وهي إذا رامت السماء لا يعوقها بسبب، ولما فتحها الملك الظاهر بيبرس، عظم أمرها وهي تستحق التعظيم، وتستوجب الرفعة، بما رفع الله من بنائها العظيم، ولقد ذكرها ابن الواسطي الكاتب فقال: وقلعة صفد بنتها الفرنج، وكانت أولاً تلاً عليه قرية عامرة تحت برج اليتيم، بنتها الداوية في سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

وقال: وهي قلعة حصينة على جبل يحتف به جبال وأودية، ولها أحد عشر عملاً، وهي (ولاية برها) وولاية الناصرة منبع الطائفة النصرانية، وولاية طبرية ذات البحيرة المشهورة والحجة العجيبة، وطبرية من سفح جبل مطل على البحيرة، وطول البحيرة اثنا عشر ميلاً، (وحمتها) يقصدها المبرودون للاستشفاء ويكاد أن يلصق بها البيض والجدا، وماؤها حلو، ويخرج منها نهر الأردن، (ومن عملها قدس، وكان معها قديماً السواد وبيسان، ثم خرجا عنها، وولاية بينين ومنها هونين وهما حصنان منيعان بناهما الفرنج بعد الخمسمائة، وهما من جبل عاملة بين بانياس وصور، وولاية عثليث، وولاية عكا، وولاية صور وشهرتهما تعني عن ذكرهما، وولاية الشاغور، وولاية الإقليم، وولاية شقيف أرنون وعلى الشقيف قلعة حصينة، وبقاربها شقيف نبرون، وهو حصن جله مغارة منيعة، وما هي من صفد، وولاية جنين فهذه جملة أعمال صفد.

ومما يذكر فيها حيفا، وهي خراب على الساحل، وقلعة كوكب، وهي قال فيها العماد الأصفهاني، راسية راسخة شماء شامخة، وقلعة الطور وهي مفردة على جبل الطور بناها العادل أبو بكر بن أيوب ثم غالبه عليها الفرنج فهدمها. القدس

والقدس الشريف الأرض المقدسة مشتملة على مدينة القدس وما حوله إلى نهر الأردن المسمى بالشرية إلى فلسطين المسماة بالرملة طولاً، ومن البحر الشامي إلى مدائن لوط عرضاً، غالبها جبال وأودية إلا ما هو في جنباتها.

وأما مدينة القدس الشريف فعلى جبل مدينة مستديرة في وسطها السور المحيط على الصخرة والمسجد المسمى الآن بالمسجد الأقصى، وإنما حقيقة المسجد الأقصى جميع ما يحيط به السور المذكور، وهي المعروف بالسور السلیمان، ويشرف عليها من شرقيها جبل أعلى منها، يفصل بينهما الوادي

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

المعروف بوادي جهنم، ويعرف بالطور وبه إلى الآن بناء جليل رومي يقال أن منه كان صعود المسيح عليه السلام إلى السماء وبهذا الوادي عين سلوان وهي تخرج من مكان في الجبل الذي عليه بناء مدينة القدس، ويجري في داخل ذلك الجبل أزيد من علوه نشاب تقديراً، ثم يخرج من صدع في الجبل إلى ساحة لطيفة في انفراجه في الجبل لا ترى إلا جدولاً جارياً، والنبع من داخل الصدع، ثم يسرح على وجه الأرض، وترمى إلى الوادي وتسقى المنازل، وماؤها قليل ليس بالكثير.

ومدينة القدس مبنية بالحجر والكلس وغالب حجرها أسود وهي وعرة المسالك وكان بها آثار (المخطوط 772) قلعة قديمة خربة، جدت في أيام هذا السلطان سنة عشرة وسبعمئة على ما يذكر الجوكندار. إذ كان كافل الممالك ووجودها وعدمها سواء، إذ لا نفع بها، ولا تحصين لها. اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وبالقدس مدارس وخانقاه وربط وزوايا وترب والمسجد الأقصى بها وقوف كثيرة جارية على مصالحه والمؤذنين به وخدمه وجماعة من العلماء والقراء به. وقد تقدم القول في هذا الكتاب على أن في القدس لكل الملل معتقداً وإليه توجهها، وأن اليهود تزوره والنصارى تحج به قمامة وتزور كنيسة بيت لحم مكان مولد عيسى عليه السلام.

وقد كانت مدينة القدس بعد تولي أيدي الفرنج عنها؛ تغلب عليها الهدم والخراب؛ إلى هذه المدة القريبة، أنصرفت الهمم إلى عمارة أماكن بها، وتوفرت الدواعي عليها، ووفر نائب السلطان بالشام الآن الاهتمام بذلك، وساق إليها قناة بسطها إلى بركة هو مجتمع ترفدها بالماء زمان قلة الماء، وتجري إلى مدينة القدس، وتدخل إلى سور المسجد الأقصى، وتجري به.

وعمر نائب السلطان إلى ما جاورها الربط المنصوري قلاووني مدرسة جليلة، وقفها على مدرس وفقهاء ومتفقهة على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وبأعلاها خانقاه مشرفة، وبحضرتها مكتب أيتام حصل له به الأجر التام، وللناس الرفق العام، أثابه الله وتقبل منه.

وعمر بها حمامين جليلين كانت أحوج شيء إليه لأنه لم يكن بها حمامات مرضية، وأنشأ بها الأسواق والعمائر وأصبحت مدينة القدس ضاحية (المواء أهلة) الرحاب، وعادت إلى ما كانت عليه من التمدن بعد أن كانت لا تعد من القرى، ولا يندى في جوانبها الثرى.

وأما بلد الخليل عليه السلام، وهي مزرعة إبراهيم فأبهى بلدة غير مسورة، على نحو يوم من القدس بالسير المعتاد، وهي منطوية بين جبال، لا هي في صحراء، ولا في واد، وهي قرية أم عمل، ولولا مكان الخيل عليه السلام بها، لم تذكر فيما يذكر، وإنما عادت عليها بركات ذلك المثنوى الكريم، فباهت الأقطار بفضلها وتأهلت الأمصار بأهلها، وأجرى بكتمر الجوكندار قبل أن يكون كافل الممالك إليها عين ماء كانت على بعد منها ولقد شاهدت بها الماء جارياً في طبقة عليه يصعد إليها من نحو عشرين درجة في العلو.

والخليل عليه السلام بها، يحيط به سور هو داخل ذلك السور ولا يصح مكان القبر به على التخصيص، وبه سرداب الخليل المنسوب إليه داخل ذلك السور، يوقد عليه قنديل، ولهذا تقول العامة «صاحب السرداب والقنديل» وقد أشرنا

والكرك مدينة ذات قلعة تعرف بكرك الشوبك، والشوبك أقدم منها، والكرك مدينة محدثة البناء، كانت ديراً يتديره الرهبان ثم كثروا، فكبروا بناءه، وكثروا أبنائه، وآوى إليهم أناس من مجاورهم من النصاري، فقامت لهم به أسواق، ودارت لهم به معاش، وأوت إليه الفرنج، فأدارت أسواره فصار مدينة مشهورة، ثم بنوا حصته فكانت قلعة مذكورة فاستولى عليها الفرنج حتى فتح الله في زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

وهو مكان صعب المرتقى، لا تليق عقارب صخوره للرقى، قد زاحم الشعر القبور بمناكبه، وعلا في السماء فالقي الهلال نعل راكبه، قعد من البر المقفر على نشز عال لا يبلغه النسار إلا محلّقاً، ولا يغدو مصباح الصباح إلا على شرفاتها معلقاً، فلهذا أتخذته الملوك لمالها حرزاً ولمالها كنزاً، ولم يزل لأولاد السلاطين في الأمور ملجأ، ومن الدهور منجاً، ماؤه من مطر السماء، وله وادٍ يتفجر عيونه بالماء، وهو بلد خصب وإقبال ومنبت زرع ومسرح مال وفيه يقول القاضي الفاضل: وكان الكرك شجى في الحناجر، وقذى في الحاجر، ورصد الطرقات المسلوكة وصير في السبل المشكوكة، قد أخذ من الآمان يُمخنها، وقعد بأرصاد العزائم وطرقها، وصار ديناً للدهر في ذلك الفجر، وعذراً لتارك فريضة الله من الحج، وحبس من هام الإسلام مكان عمامته، وجثم على أنفاس الحجاز، فلم يدع نفساً يصعد من تهامته فؤاديه من مسائل المعازل بجمعها، وظله من نجوم الأسنة بمطلعها، وهو والشوبك بسر الله الأمر كبيت الواصف للأسدين:

«ما مر يوم إلا وعندهما لحم رجال أو يولغان دما»

وكفى إشارة أنه مكان الغزاة وقعرها ومستودع الفريضة ومستقرها، مجاورته لتبوك وغزاتها آخر الغزات النبوية، وإلى طريقه انتهت الخطا الحميدة المحمدية، والعمل على آخر الأعمال الشرعية، والوقوف عنده إشارة لا تخفى عن الإفهام اللوذعية، وتحف بهذه القلعة مدينة قد عقل الجبل حبولها وأزلق الغراب أن يطأ ذروتها، وعصم سوار الوادي الملوك معصمها، وحمّت غرة الجبل المطل أدهمها فمناكبها حاطم، والله يحطمه، ولها من ندى الغمام راضع، ومهد المنجنيق يفظمنه، وهصروه هصرة فإذا البلد قائم على عروش بل طريح على نعوشه، قد محيت سلة دنائره، ومن الدور فما يتعامل بالسكن فيه أهل الغرور، وصار كل مديح في الكنيسة مربطاً، وكل مصعد من قلة مهبطاً، وكل مسقط رأس بالحقيقة لرأس مسقطاً، وفيه يقول أيضاً: ومما فتحه الله على سلطاننا بلاد الكرك وما أدراك ما هو قلعة، كانت على الإسلام أية مضرة بل كانت لكعبة الإسلام زادها الله شرفاً أية ضرة، وإن نعم الله لأكثر من أن يقصر لها حديثاً، وأن الله قد أغشى ليل الشرك نهار الإسلام، يطلبه حيثاً، وما أشك أن في أهل الحرم الشريف مع الرماة رماة بسهام الأسحار، ومجاهدون

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

وبالمحاورة ما خرجوا ولا بعدوا عن البيكاد وكلا وعد الله الحسنى).
الشوبك

والشوبك المنسوب إليه الكرك مدينة صغيرة أكثر في البر دخولاً منها،
وانحرافاً إلى التغريب في القبلية عنها ذات أكواب من جداول الأنهار موضوعة
وسرر من مقاعد الأبراج مرفوعة وفاكهة كما قال الله تعالى في الجنة غير
مقطوعة ولا ممنوعة.

قلت: والشوبك فتح وقت فتح الكرك بعد أن دام الحصار سنتين على الكرك
وأقطعها الملك الناصر لأخيه الملك العادل ولم يزل في يده حتى أعطاهما
لولده الملك المعظم عيسى، فصرف إليهما العناية حتى نزل الكرك مدينة
يعنى بنفسها وزادها تحصيناً وتحسيناً، وجلب إلى الشوبك غرائب الأشجار حتى
تركها تضاهي دمشق في روائها وتدفق مائها وتزيد بطيب هوائها.
قلت: وذكر ابن جرير كورة الجبال فقال: (وقد أحدث بها مدينة تسمى الكرك،
وقال البلاذري: في كتاب فتوح البلدان أن مدينة هذه الكورة الغرندك).
وأما أعمال الكرك (فهي أربعة) زغر وهي مدينة قديمة حارة متصلة بالبادية،
وبها (تل) جيد، ومعان وكانت مدينة قديمة خربت هي وعملها، ومؤته وهي
باقية وواضعها معروف، وبها قبر جعفر بن أبي طالب (عليه السلام، والشوبك
وهو محدث كما ذكرنا).

غزة
وغزة وهي مدينة بين مصر ودمشق، بها دفن هاشم بن عبد مناف وبها ولد
الشافعي رحمه الله، وهي مبنية بالحجر والكلس، مونة البناء، على نشز عالٍ،
على نحو ميل عن البحر الشامي، ذات هواء صحيح، وماء مصرفها خم، لا
يستلذ، وشرب أهلها من الآبار، ولها مجمع للمطر، يدوم به ماء الشتاء، لكنه
يستثقل.

ولها فواكه كثيرة أجلها العنب والتين وبها مرستان بناه هذا السلطان أثابه الله
لحوج ما كانت المارة إليه في مكانه، وبها من المدارس والترب (ما ازدانت
به)، وهي نيابة جليلة، وبها طائفة من العسكر والعرب والتركمان.
وهي أخذة من البر والبحر جانبها متصلة بتيه بني إسرائيل، من قبلها موضع
زرع وماشية، وموضع مجمع حاضرة وبادية، وقرارية أهلها عُشر، أن بعضهم
عدو لبعض لولا مهابة الدولة لاخمدت فيها نار، ولا ألم فيها بالجفون غرار، لا
يطمن فيها ساكن، ولا يستقر ظاهر ولا باطن.

ومما استجد مضافاً إلى هذه المملكة فهي البلاد الجهانية، ومحل النيابة بها
مدينة إياس وهي الآن عامرة أهلة، وكذلك كاوزه واستفيدكار ونصف
المصيصة، لأن الذي استقر للمسلمين هو كلما هو إلى هذه الجهة الشامية من
جهان ونصف إذنه منه ونصفها الآخر قاطع جهان من جهة الأرض فهو لهم، وأما
ما خربه المسلمون وبقي عملهم بهم الهارونية وحميص وتل حمدون والنقير
وكل ذلك من دون جهان إلى الشام، وكذلك ما استجد قلعة جعفر وهي شرقي
الفرات وقلعة درنده، وهي قاطع بهسني إلى الروم، فهذه جملة هذه المملكة.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

فائدة جليلة تتعلق بذكر غزة قالوا يجوز أن يكون اسمها مأخوذاً من الغز والفز الشذق وهما غزان سميت بذلك لأنها في فم الشام مما يلي شقة البحرى، ويكون مأخوذاً من قول العرب أغزت البقرة فهي مغز إذا عسر حملها سميت بذلك لعسر السير إليها على الناس والدواب للرميل المتأخم لها، وتعرف في القديم بغزة هاشم، سميت بهاشم ابن عبد مناف جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإليها كانت رحلة قريش هي إحدى الرحلتين المذكورة في القرآن، رحلة الشتاء والصيف وهي الصفية منها، وكان عليها حصن منيع قد بقيت منه بقية إلى الآن هدمته قيس، لما جاء إليها بعض قبائل اليمن وفيها يقول أبو عامر السلمي في قصيدته المسماة بالذاهبة وهي ثلاثمائة بيت يهجو بها اليمن ويذكر مثالبهم في القرآن والأخبار، ويذكر مناقب قريش:

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

«ونحن الموقدون على حروري ونحن لحصن غزة هادمونا».

وفي غزة قبر هاشم بن عبد مناف، وبذلك قيل لها غزة هاشم، وهاشم أول من مات من بني عبد مناف، وكانوا أربعة أخوة؛ هاشم هذا وقبره بغزة، ثم مات بعده أخوه عبد شمس وقبره بمكة بالحجوان، ثم مات بعده أخوهما نوفل بطريق العراق بموضع يقال لها سلمان وقبره هناك، ثم مات بعده أخوه المطلب بأرض اليمن في موضع يقال له ردمان وقبره هناك، فهؤلاء بنو عبد مناف الأربعة.

(تتمة في ذكر سبب سفرهم الموجب لموت من مات منهم غريباً)

اتفقوا على أنه كان لعبد مناف خمسة بنين وهم سادة قريش كلها هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس، وأبو عمرو ومات صبيلاً ولم يكن له خبر مع إخوته، وكانت العرب وقريش كلها تسمى بني عبد مناف هؤلاء الأربعة فضاح النضار لشرفهم وجمالهم وبهائهم، وكانت قريش كثيرة التجارة إلا أنهم كانوا لا يخرجون من مكة والحجاز، وكانت الأعاجم تأتيهم بالبضائع فيشترون منهم ويبيعونهم، فأقاموا على ذلك زماناً طويلاً حتى ركب هاشم بن عبد مناف فخرج إلى الشام فنزل بقيصر ملك الروم.

واسم هاشم يومئذٍ عُمر العلي، فكان يذبح كل يوم شاة، ويصنع جفنه ثريد ويجعل اللحم عليها أوصالاً، ويدعو من حوله فيأكلون معه، وكان هاشم من أحسن الناس وجهاً، وأكرمهم أخلاقاً، فليلقيصرها هنا رجل قريش يهشم الخبز، ويصب عليه المرق (الخطوط ص 382) ويجعل عليه اللحم، وإنما كانت العجم تجعل المرق في صحاف واللحم في المرق ويلتدمون بذلك، ولم يكونوا رأوا الثريد فسمى هاشماً بهشيم الثريد، وفيه يقول شاعرهم بمكة:

«عمرو العلي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف».

وهذا أول من فعله من العرب والعجم، فدعاه قيصر، فلما رآه وكلمه، أعجبه إعجاباً عظيماً، فقال له هاشم: أيها الملك إن لي قوماً هم تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمنهم فيه على أنفسهم وما معهم من المال والبضائع وغير ذلك فإنهم يقدمون عليك بما تستظرفه من أدم الحجاز وثمره وغير ذلك

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

مما يصير إليهم ولا يبلغك من طرف البلاد، فأمر أن يكتب له كتاب جامع للعرب، وأخذه هاشم وسار فصار كلما جاء حياً من أحياء العرب على طريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافاً، والإيلاف أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم على أنفسهم وأموالهم، وأخذ هاشم الإيلاف من جميع القبائل ممن بينه وبين الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بشيء لم يأتهم بمثله أحد قط فسروا بذلك سروراً عظيماً، وخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم يحوطهم ويؤمنهم ويجمع بينهم وبين رؤساء العرب في جميع طريقهم حتى ورد بهم الشام فأحلهم غزة ومات هاشم في ذلك السفر، فدفن بغزة.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار
ثم خرج أخوه المطلب إلى اليمن ففعل كفعل هاشم بالشام، وأخذ من ملوك اليمن عهداً لمن يجيء ويسافر إليهم من قريش، ثم أقبل يأخذ الإيلاف ممن يمر به من العرب حتى أتى مكة كما فعل هاشم، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى الفيض لكرمه وهلك عبد المطلب بردمان من أرض اليمن في سفرة سافرها.

وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة فأخذ منه كتاباً وعهداً لمن يجيء من قريش، ورجع يأخذ الإيلاف من كل من مر به من العرب من بلاد الحبشة إلى أن أتى مكة كما فعل هاشم والمطلب، فمات بمكة وقبره بالحجون، وكان أكبر من هاشم.

وخرج نوفل بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان أصغر من إخوته إلى العراق، فأخذ عهداً من كسرى، ثم عاد يأخذ الإيلاف إلى أن أتى مكة، ثم رجع تاجراً إلى العراق، فمات بسلمان في طريق العراق.
تنبيه

البيت المقدم ذكره اختلف فيه، وأصح الروايات أنه لابن الزبيري، والزبيري في اللغة التعبير اللازب الكثير شعر الأذنين والرأس، وفيه قصر وغلظ، وهو من قصيدة له في هاشم وإخوته على أقواء في البيت الآخر منها وهي:

«يا أيها الرجل المحول رحله
هلا مررت بال عبد مناف»
«هبلتك أمك لو مررت بدارهم
لجموك من جوع ومن أقراف»
«المطعون إذا ألرياح تناوحت
والظاعنون لرحلة الإيلاف»
«والآخذون العهد من أكفافها
والناهشون لمقدم الأضياف»
«عمرو العلى هشم الثريد لقومه
ورجال مكة مُستنون عجاف»

قلت: وهذه خاتمة في ذكر الرحلة، جر الكلام إليها قريبا من غزة، يقال أن الذي أحدثها سليمان بن عبد الملك بن مروان، وأن مدينة فلسطين كانت قبلها

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

له، وأن سليمان وليها من قبل أبيه، وهو صبي، وكان معه من قبل أبيه من يدبره، ويشير عليه، والاسم في الإمارة لسليمان، وكان إلى جانب كنيسة لد بستان، حسن العمارة مليح الموضع، كثير الفواكه، وكان سليمان كثيراً ما يستحسنه، ويجلس فيه، ويستطيبه، فقال يوماً للشيخ الذي يرجع إلى رأيه، وكان يسمى رجاء بن حيوة: أحب أن تشتري لي هذا البستان حتى أنني فيه من الأبنية ما يصلح لثلاثا، فكان البستان للقسيس الذي يتولى أمر الكنيسة، وأحضره رجاء وقال له ذلك فقال: سمعاً وطاعةً أحضرني القاضي والشهود حتى أشهد على نفسي بذلك، وأفرغ منه الساعة، فأحضرهم وحضر القسيس فقال لهم جميعاً: ألستم تعلمون أن هذا البستان لي، وفي ملكي وبدي، لا مانع لي ولا معارض لي فيه؟، فقال له القاضي والشهود: نعم؛ يريدون بذلك تصحيح الملك، ليصح البيع، فقال لهم: أشهدوا الآن أني قد حبسته على الكنيسة حبساً تبتلاً لا رجعة لي ولا مثنوية فيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فسقط في أيديهم وتم مكره، وعظم ذلك على من حضر، وهم سليمان بقتله، فمنعه من ذلك رجاء، ورفق به وشاغله، وقال له: سر بنا تفرج ونبرم أمراً يكون فيه هلاك الكنيسة وغيرها، فركبا، وأمر سليمان أن لا يتبعهما أحد، فلما فصلا من لِدَ رأيا بيتاً من الشعر مضروباً على ربوة من الأرض هي الآن موضع المصلى، وكان الحر قد اشتد، فقال له رجاء أعدل بنا إلى هذا البيت لتنظر من به، ونريح فيه إلى أن يبرد النهار، فقربا من البيت، وسلما على من فيه وهما لا يريان أحداً، فبرزت لهما منه امرأة ذات برقع ردت عليهما السلام بأحسن رد ولفظ، وسألتهما النزول عندها بلسان فصيح وعزم صحيح، فنزلا، وسألتهما أن يتخففا ويستريحا عندها، وأعجبهما فعلها، ونسى سليمان أمر البستان إعجاباً بكرمها

وعقلها، وسألاها عن اسمها فقالت: رملة وعرفتتهما أن لها بعلاً في ماشية اسمه لِدَ، وعرضت عليهما الغداء واللبن، وقالت عندي اللبن الحلو واللبن الحامض والخبز الحار والخبز البارد، لأن إثاري يخالف إثار بعلى في الطعام، وأنا أعد له ما يؤثر، وأعد لنفسي ما أشتهيه، وقدمت لهما في كل شيء من ذلك، وتردت لهما، وقد ذهلا من حسنهما وجمالها وأدبها وحسن فعلها في جميع ما تحاوله، وأقسمت عليهما لياكلان، وقالت: لو جاز لي أن أكل معكما لفعلت، والطعام يدعو الكرام إلى نفسه، فأكلا ونظرا إلى ما حول البيت من الشجر والضياع وغير ذلك، فاستحسننا الموضع، وإشرافه على ما حوله من العمارة.

اسم الكتاب: مسالك الأبصار

فقال رجاء لسليمان: لو أمرت ببناء ديرها هنا للنصارى ومسجد للمسلمين، وأمرت في النداء بالناس من أحب أن يكون في حمى من المسلمين والنصارى، فليبن داراً إلى جنب مسجده وديره، لصارت مدينة، ولتعطلت الكنيسة بالدير، وهذا الموضع أحسن من موضع لد، وأعلى، ففعل ذلك، وتبادر الناس من كل أدب من المسلمين والنصارى يحيطون المازل والقصور على قدر همهم ونعمهم.

وكان سليمان خط مسجداً صغيراً وداراً للإمارة لطيفة، فقال له رجاء: غير هذا فإنها ستكون مدينة عظيمة فخط مسجداً عظيماً كبيراً وداراً واسعة، وهو هذا الجامع، وهذه الدار المعروفة بدار الإمارة.

ثم أن سليمان أراد هدم الكنيسة وأخذ رخامها وعمدها للجامع فراجع رجاء عند ذلك، وبعث إلى عبد الملك يخبره بما فعل القسيس من غدره ومكره وما

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الإسلامية

مكتبة مشكاة

فعلاه من بناء المدينة والجامع، وكتب عبد الملك إلى ملك الروم وكان الإسلام في ذلك الوقت ظاهراً علي الروم، فأنقذ ملك الروم إلى عبد الملك من دله على موضع أخرج منه عمداً لم ير مثلها في الاعتدال والحسن، وأخرج معهما رخاماً منشوراً، وغير منشور ما كفى الجامع وفضل عنه.

يقال أنه كان في ضيعة من الداروم، داروم وغزة، يقال لها عموداً، وكان أكثر ما نال النصارى من ذلك أن ملك الروم ألزمهم نقل العمد والرخام من عمود إلى الجامع وسميت المدينة الرملة باسم المرأة المقدم ذكرها، وأحسن سليمان إليها وإلى بعلها.
